

عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة
الإنسان بين العلم والبيئة
البيئة والجريمة
بيئة العصر بين البقاء والبقاء

رئيس التحرير: أحمد مشاري المدوافي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت : يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص ١٩٣

المحتويات

الإنسان والبيئة

٢ بقلم التحرير	التمهيد
١٣ الدكتور أحمد أبو زيد	أزمة البيئة
٣٥ الدكتور محمود أحمد الشرييني	الإنسان بين العلم والبيئة
٧٣ الدكتور حسن صادق الرصافوي	البيئة والجريمة
١٢٧ الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبلي	بيئة العمر : بين البقاء والفتاء

★ ★ ★

آفاق المعرفة

١٦٩ الدكتور منصور أحمد منصور	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق
١٨٩ الدكتور عبد الوهاب حومد	مقوية الإعدام بين الإبقاء والإلغاء

★ ★ ★

أدباء وفنانون

٢١١ الدكتور مناف منصور	ميخائيل نعيمة .. ناقداً أدبياً
-----	--------------------------	--------------------------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢٤٧ بقلم الدكتور أسعد عبد الرحمن	قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ - ١٩٧٢
 للدكتور لؤي الكسندر	النمو الإنساني في عصر التحضر
٢٥٧ مراجعة الدكتور أسحق يعلوب القلقب	

المراسلات التي ننشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وخلافهم

الانسان والبيئة

تقديم

شهدت السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة في اهتمام العلماء والمختصين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ، والتغيرات التي تطرأ عليها واساليب التعامل معها والاضرار التي تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان في استغلال مواردها الطبيعية ، وإلى أي حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح أن هذا الاهتمام لم يكن قاصراً على البحث عن مدى ما يمكن أن تقدمه الطبيعة للانسان من ثروات ، أو الطريقة المثلى التي يمكن للانسان أن يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وأفضل الأساليب لاستغلالها ، وإنما كان ، بالإضافة إلى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئة الطبيعية من أضرار وأذى قد يصعب علاجها أو تلفيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمام في ثلاثة أمور : -

الأمر الأول : هو كثرة الكتابات التي تهدف إلى تنبيه الأذهان إلى الأخطار المحدقة بالبيئة الطبيعية وطريقة المحافظة عليها ، والإبقاء على ما يعرف باسم التوازن البيولوجي (أي التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتي قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم ، والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ما قد يكون في هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق ان يلقى الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الامر الثاني : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، واثار هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة . وكان من اهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر اخطار البيئة الذي عقد في استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة باجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . وكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة مضموية ، فلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية ، واهتمام . وسوف يجد القارئ في هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .

الامر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية باتشاء وزارات وأقسام وأدارات وأجهزة حكومية لشئون البيئة ، يكون من اهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة مسؤولة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا في اكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من أهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء لهم مكانتهم وأهميتهم في الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والسكان . ومن اهم ما يسطع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين أعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفر حياة أفضل للأهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد أنشأت وزارات لشئون البيئة تعنى في المحل الاول بأمر المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين في شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصائح والمشورة في كل ما يتعلق بأمر البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الإيكولوجى الدقيق .

وواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها في التالي:

١ - الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه أن مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة في عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة في اشباع هذه الاحتياجات .

٢ - على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بإمكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية امام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر في النقطة التالية .

٣ - النظر الى المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق في المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع اساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على أسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ، ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي في الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر في تلويثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث في آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ماهي وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعاً لمدى تقدم المجتمع او تأخره وانماط الحياة السائدة في هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوتة وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سلبيا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل او بآخر ، وان كانت هذه التغيرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة اكثر وضوحا في الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ في المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتهما وقسوتهما على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة لهـ ولتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على أن يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . ويقول آخر كان الانسان في هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاكه ماتقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها في طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللأمراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا أو تفسيراً، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الاقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يردهذه الكوارث والأمراض الى قوى خفية غامضة أقوى منه وأكثر قدرة وعنفاً ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية أخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له في المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذي تسير عليه الطبيعة والقوى التي تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل ما يصدر عنها ، بل انه كان يعمل على ان يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . وبذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثروبولوجيا ، في القرن التاسع عشر الى ان هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذي ادى في آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل مافيه من خوارق وغيبيات . فالدين في نظر هؤلاء العلماء يقوم اساسا على فكرة التسليم بوجود قوى - ايا ما تكون طبيعتها - يعترف الانسان بضعفه امامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم في مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو في هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان في اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكانه وقواه الطبيعية كان يقف موقفا أشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وإبرازه ، وان كان هذا الموقف الإيجابي أقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية في الماضي . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى في أبسط أشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذي لا يخلو من تدمير الطبيعة أو بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك في اثنا معركة الحياة التي كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره

ظهر هذا مثالا في مرحلة قنص الحيوان التي تعتبر من المراحل المبكرة في تطور المجتمع الانساني .. فقد كان الانسان المبكر - على ما يبدو يبالغ ويفالئ مفعالة شديدة في مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمتها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من أشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر تغييرا هاما في البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الإيجابي من ناحية ثانية في اكتشاف الانسان للنار ،

واستخدامها على نطاق واسع في حرق الخشب والحطب بل واحيانا في اشمال غابات باكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلويث للبيئة ، وان كان هذا التلوث ضئيلا في تلك الازمنة نظرا لضاآلة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي ألا نغفل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير في الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشعب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، او تشتمل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسفي الغابات ومناطق المراعى والاحراش. وكل هذا معناه ان تأثير الانسان في البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل أشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات في الكم وليس في النوع . وهذا لا ينفي بطبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان احرز المجتمع الانساني تقدما ملحوظا في التقدم الصناعي والتكنولوجي وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك في ان ارتقاء المجتمع الانساني وتقدمه يرتبطان - في احد جوانبهما على الاقل - بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوّناتها لصالح الانسان، وكذلك القدرة على التحكم في هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . ويقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن ان يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وايضا في قدرته على اخضاعها لرغباته والتحكم في مكوّناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجي الرائع الذي احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشري ، والذي وصل الى ذروته في القرن الحالي ، قد ساعد على تصور الطبيعة على انها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشري التي كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله ان بدأت النظرة الى الطبيعة والسى البيئة تختلف ، كما بدأت اتجاهات الانسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرا عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، اضنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد ان كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه في آخر الامر انه من الخطأ ان ننظر الى مشكلة البيئة على انها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نغفل ابعادها الاجتماعية والانسانية، وذلك لان الانسان هو بالضرورة احد العوامل او العناصر الاساسية في البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضوع التأثير بها والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، او الابداء واحداث الضرر ، كما ان حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشر في آخر الامر بما يطرا على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو اننا سلمنا بذلك واعتبرنا الانسان هو أحد مكونات البيئة الاساسية فان أية دراسة للبيئة لابد ان تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من ان تتعرض لكثير من الامور المتشابكة المعقدة التي يمكن ان تشير الى بعضها هنا ، مثل : -

١ - الاسس الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي اسس معقدة الى ابعاد حدود التعقيد .

٢ - الظروف الايكولوجية من حيث انها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحيها الافراد والمجتمعات ؛ بل وايضا على نفس مشكلة الوجود الانساني وامكان استمرار الجنس البشري في الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ - النتائج السيئة المترتبة على التغيرات الايكولوجية سواء على المستوى المحلي أو الاقليمي او العالمي .

٤ - الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهي مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر في النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظر في سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظراته الى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، في آخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر في القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارئ في مقال الدكتور حسن المرصاوي مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ - التفاعل القوي بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتسانها الوظيفي ، وهي امور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة امثلة كثيرة لذلك يجدها القارئ في مقالات الدكتور محمود احمد الشربيني ، والدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبلي ، والدكتور احمد ابو زيد) .

وكل هذا خلق بان يبين لنا في آخر الامر ان الاضرار التي يلحقها الانسان بالبيئة التي يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهم على الأقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المفالة في الإقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم له كثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق في الوقت ذاته اشد الضرر والاذى بالبيئة كما هو الحال مثلا في تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنهما من نفايات وبقايا وابخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناداة بضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه احيانا اسم « أخلاقية الأرض » - كما ترد في مقال الدكتور ابو زيد - اى وجود نظرة جديدة او اتجاه جديد وموقف جديد لملاقة الانسان بالبيئة . وفي ذلك يقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من اكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلوا جهودا كبيرة في تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة أخلاقية المحافظة على الارض حين ننظر اليها على انها مجتمع ننتمي اليه وبذلك يمكننا ان نستخدم الارض بطريقة تنم عن الحب والاحترام . وليس هناك سوى هذه الوسيلة لكى تساعد الارض على الصمود امام وطأة الحياة الآلية التى تسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد امامنا نحن لكى نحصد من الارض المحصول الجمالى الذى هى قادرة على ان تنبت به بفضل العلم - وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على انها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارض واحترامها هو امتداد طبيعى للأخلاق الانسانية . ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارض قادرة على ان تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عن الأذهان فى العصور الحديثة » ، (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع ان نميز فى هذا الصدد بين موقفين مختلفين اشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، فاما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة - ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار - من الناس ممن يهتمون بالمحافظة على البيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات على مقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على اساس ان اى تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فى الطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير من المضاعفات والتاثيرات الجانبية الضارة السيئة . الا ان هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضة والمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهى فئات تنهم اصحاب حركة « الصراع من اجل البيئة » بانهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد ان ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى من طريق التنمية الاقتصادية التى تحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى ايسد صورها فى استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف المواقف من البيئة يعكس - الى حد ما على الاقل - اختلاف المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاء على مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد ان تتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهي تعارض أى تدخل من جانب الإنسان ، وتعتبره تشويها وإساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمستغلون بالتخطيط فى الناحية الأخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الإنسان والمجتمع لن يقصر عن إيجاد وسيلة للتغلب على أخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وأنه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من أضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فإنه فى آخر الامر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن أذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الامر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى أن الطبقات الفقيرة فى أى مجتمع تهتم أولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بعدى ما تتعرض له البيئة من أخطار ، فالظاهر انه من الصعب التغلب على هذه الاخطار وإبقائها تماما ، وإنه يتعين على العالم أن يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يتعين عليه فى الوقت ذاته أن يمشى على حلول تقلل من هذه الاخطار التى يبدو انها تهدد نفس وجود الإنسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة أو الصراع من أجل البيئة » التى أشرنا اليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الأذهان وتجنيد كل القوى للوقوف فى صف البيئة ومعها ضد عوامل التخريب ، كما تحرص أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وإن كان يصعب التغلب عليها .

والواقع أن المشتغلين بهذه المسألة يرون أن الخطر الأكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة أخرى هامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل انحاء العالم وبالدات فى العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق أن عالجنها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو أن الإزدياد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من إعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية إما كان نوعها من ناحية أخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الإغارة على المناطق الخلوية ؛ بل وأحيانا على الأراضى الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا في حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق في هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكي تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التي يعتبرها الكثيرون صورة أخرى أو شكلا آخر من اشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها امور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارئ لها صدق في اكثر من مقال في هذا العدد ، بل وفي أعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف في الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من ان التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء العطلات ، له دخل كبير جدا في تغير البيئة وغزو الطبيعة والإغارة عليها والحاق الكثير من الأضرار بها . ولقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة أعدى أعداء الطبيعة ، وبالتالي أعدى أعداء حركة المعركة من أجل البيئة ، ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته أثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التي تصل اليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل في السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط أو قيد على تحركاته ، وأصبح الانسان حرا في أن يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك أمكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكسب بعض فيها عطلاته ، وازداد بالتالي تهجمه على جمال الطبيعة والتخريب والدمار . فليس أقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر في الاماكن التي يمضي فيها عطلاته واوقات راحته بما يحدثه من تغير وما يتركه وراءه من مخلفات . ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها في الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع أربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة أو ستة ايام لراحة وقت أطول للتراف والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة ايام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هي ما يلحقه الناس أثناء هذه العطلات ايام الراحة الطويلة من أضرار وأذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا ايضا هو احد العناصر التي تتضمنها حركة إيجاد اخلاقية

للارض . ومن يدري فقد يكون في نجاح الدعوة الى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظة عليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدي في حالة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالي الحد من انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات في النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة المويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هي : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة في المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصادية وتوفير حد ادنى لرفاهية الانسان من ناحية اخرى؟ او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بين رغبات الاغنياء والقادرين والموسرين الذين يحاولون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبات ومطالب الفقراء الذين لا يهمهم في المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليق بان يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشكلة العلاقة بين البيئة والانسان هي مشكلة اجتماعية في المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل افضل للحياة ، سواء في المجال الجعالي الفنى او الاقتصادى . ولا تزال الحلول تعوز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتين تحت ظروف اجتماعية بالغة القسوة .



أحمد أبو زيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة في كل قرن ان تستطيع
احدى القضايا الهامة ان تفرغ نفسها على الناس جميعا
من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد أصبحت
مشكلة البيئة الفيزيكية التي نعيش فيها احدى هذه القضايا .

(وليام روكهاوس)

أفلحت « قضية البيئة » في أن تفرض نفسها بشكل قوى منذ أوائل السبعينات ، وذلك
حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء
لا تزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، وإلى أى حد يمكن أن
تؤثر في مصير الإنسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فإن الآراء
تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « أزمة بيئية » أو « أزمة بيئية » قد تقلب الأوضاع
الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن في المستقبل القريب أو البعيد . بل أن الذين يظهرون شيئا
من التشكك في ضخامة المشكلة وأهميتها إنما يبنون أحكامهم على الأوضاع القائمة في المجتمعات
التي يعيشون هم فيها دون أن يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى أنهم لا يعطون

لمشكلة البيئة اولوية مطلقة ، وذلك على اساس ان مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لآخطار ومتاعب اخرى يجب حلها اولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى ان تحل هذه المشكلات المعالجة .

ولقد بدأت « حركة البيئة » بما يطلق عليه الآن اسم « يوم الارض » Earth Day وذلك حين تقدم في عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين في بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة في امريكا ، ببعض النداءات التي تدعو الى بذل الجهد لاتقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة ان وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين في شكل مؤتمر عقدته هيئة الأمم في استكهولم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من اكبر المظاهرات العلمية - بل والفوقانية ايضا - التي شهدتها العالم في أى وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه في عام ١٩٧١ أى قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد ان كانت الازدهان قد انتهت فعلا الى خطورة المشكلة - أنفق رجال الصناعة في امريكا ما يزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء فقط ، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الامريكية خطة لانفاق ثلاثمائة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، أى يواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفي الوقت ذاته خصصت بريطانيا أكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير أنهارها ، كما خصص الاتحاد السوفييتي بليون دولار لتطهير مياه نهرى الفولجا والاورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خلية بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان افضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او اصداقها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتحويل والمقالة التي لا تقوم على اساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة انفسهم ، نظرا لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الاموال التي انفتحت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى ان هذه الحركة تسببت بشكل مباشر في خلق « أزمة الطاقة » التي عانت منها امريكا معاناة شديدة ، وهى أزمة يمكن ان تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالي مستقبل امريكا والقوى العاملة في الصناعة ، تهديدا مباشرا لو انها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التي

(١) الواقع ان فكرة هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك الى بدا التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانظار الى اهميته . وقد أطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الأمم المتحدة من البيئة الاسيانية » .

يرى أنصار البيئة أنها سوف تلحق بالإنسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ما هي عليه ، ولم تتخذ الإجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية أخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا أنفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجى ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز في الغالب بارتفاع المستوى الإقتصادي والثقافي ، وهم بذلك لا يحسون بالآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقاته والخروج من دائرته ، وإن التوقف عن الصناعة أو تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التي وجهها رجال الصناعة الى أنصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعي ، على أنها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيط هم الدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها في التنمية الاقتصادية التي تركز الى حد كبير على التحول التدريجي الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، او على الأقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضروبة عليها . ويقول آخر فإن هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادي من رقة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، إذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلي العالم الثالث هي أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وإنما هي مجرد نوع من الترف يجب أن يستمرى بالعملة الصعبة ، وأن لمن هذا الترف قد يكون غالبا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج أنصار البيئة التي تقوم على مبدأ ضرورة تضاعف جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لاصلاح البيئة ، وإن ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه في مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وإن الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو أن يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته في درجة النمو الاقتصادي والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارلينش Paul Ehrlich في كتابه الشهير « القنبلة السكانية The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الإيكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير في هذا الطريق الخطر الذي اختاره لنفسه .

وأيا ما تكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الأوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما في الاعتبار ، وهي حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الانتباه اليها . مثال ذلك أن كثيرا من المباني الأثرية في أوروبا كالكنائس

والكتاندراليات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من اكبر مظاهر الحضارة الغربية بدأت تعاني من سحب الدخان والغيار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتأثيرها . ولقد أوصت إحدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكي تمنع عنه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر أن كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضى ثمنًا غاليا للفاية . والظاهر أن هذا هو الوضع أيضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول أن تنفيذ أى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغيرات في البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ماتحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق منها بعض الأضرار في التوازن الإيكولوجي . وربما كان أفضل مثل لذلك هو التغيرات الإيكولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل وأراضي الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه لأن السد العالي الذي يعتبر من مغاخر الهندسة الحديثة ، ومن أضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ما قد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المزروعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ماسوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فإن الثمن الإيكولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والأطباء يخشون من أن تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل أن البعض يخشى من إمكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالإضافة الى ظاهرة النحر النهري وتآكل الشواطئ في شمال الدلتا والأخطار التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمي الذي كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالإضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجببري والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء أنفسهم يرون أن لكل مشكلة حلا ، وأن العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (١)

(٢) الملاحظ أن التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضي في رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وأنه لن يمكن لأي دولة واحدة أن تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا من ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وأيضا نظرا للتوسع القائمة بالعمل . مثال ذلك أن سبع دول على الأقل تلقى بفضلاتها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما أن الرماد المتصاعد من مصانع الرور في ألمانيا مثلا يؤثر في لوج الترويج ويلقدها بريقها ولعنتها وصغارها ، وبالتالي فإن نفايات وفصلات مصنع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت أعداد هائلة من الأسماك فيه . والسؤال لدى عدد كبير من العلماء أن البحر الأبيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لتآكل الفسفات والنفط والغازات من المصانع والبواخر فيه أن لم يبلد الجهود الجبارة للقائه ، وأن كان هناك من يعتقد أن الوقت قد فات بالعمل واتجه لامل في التكاتف من ذلك الصغر :

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد - كما ذكرنا - أن « حركة البيئة » هي آخر سلاح أعلى الأصح أحدث سلاح تتسلح به الدول الغنية في مؤامراتها ضد الدول الأخرى حتى تظل هذه الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع أن تتحكم في غيرها ، ويكفي هنا أن نذكر أنه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق أحد أعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هو أن « مشكلتنا ليست هي التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعي وإنما هي الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب في أن المؤتمر عالج بالإضافة إلى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الأراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجذب وما إلى ذلك . وعلى أية حال ، فلقد بدأت بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالية المشكلة ، وتدرك أن تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالدات دون غيرها ، وأن الأزمة الإيكولوجية أزمة عالمية بكل مافي هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهي أمثلة يمكن أن نجدها في كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على أية حال أن الدول الفقيرة والمتخلفة هي أكثر عرضة من الدول الغنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ما قيد يبدو في ذلك من غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ - في سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر - في ادخال نظم الحياة السائدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي ترهق بذلك مواردها الطبيعية التي سوف تستنزف في فترة قصيرة نسبيا ، كما أن الإقبال الشديد على التصنيع سوف يجعل بتلوث الهواء والماء بدرجة أكبر مما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي لديها من الموارد المالية ما يسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الأمر في المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مألوفة في المجتمعات المتقدمة .

(١)

والشيء الذي يسترعى النظر حقا هو أنه على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم إلا منذ أوائل السبعينات فإن ماتم احرازه من تقدم حتى الآن في هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الأقل في مجال توجيه الانظار إلى خطورة المشكلة ، حتى وإن لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من أن منع هذا التلوث لا يزال أملا براود أحلام أنصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول أصدر بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الإيكولوجيا - على أيدي علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون إلى المسألة في الغالب من الزاوية الفيزيكية

البحته ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة اوسع وامعق ، ولذا فانهم اعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان فى البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريزر دارلنج F. Fraser Darling فى مقال طريف له : ان الايكولوجيا - باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى فى علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد او الى انواع مختلفة - هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا فى هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفقد المقارنة وتكشف عن اوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرتبة . (٢)

وربما كان اهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التى تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية او الفيزيكية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتاثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية اخرى . ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة ، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الان من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانباً انسانياً عميقاً تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الايكولوجيا ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم فى تطبيق

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك فى ان الفصل فى ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع فى المكان الاول الى علماء النبات باللات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر - كما يقول فريزر دارلنج - من فلسفة محددة ومن رؤية واضحة لوقف شديد التقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملاً فى بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره فى ذلك الحين اقل من ثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع فيهم من العلماء من اجل الوصول الى فهم كيف تتماشى مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب اصدره التون فى هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفى بوضف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستند ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التى قام بها لتلاميذه واتباعه خلال عشرين عاماً . ورغم ذلك فقد اهتم التون بאתنيته الى قلة البحوث التى اجريت فى هذا المجال الحيوى العام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى فى المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عدداً آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اطلساً نباتياً ظل معتمداً لمدة طويلة جداً وذلك بعد ان قام برحلة علمية الى افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل الدوليوبود Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث فى صحارى المكسيك وارىزونا .

المنهج العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية افقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيته » وعمقها ، وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، واخفقت بالتالى فى ان تصل الى كثير من الناس على الرغم من انها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءا ان عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية او بشرية على الاصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا فى الاغلب من المتخصصين اصلا فى الجغرافيا او الانثروبولوجيا . ولعل من اهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الايكولوجيا دائما فى ضوء النشاط البشرى العام . ويقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوا يومنون بان هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، وبصدورن فى كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلى اى حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت فى مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات او الحيوان ، كما اصبحت الدراسات الايكولوجية اكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الايكولوجية الان واعطاء الجانب الاجتماعى والانسانى قدرا اكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة لانطلاق فى اى بحث ايكولوجى هى الظروف والاضواء المادية السائدة فى اى مجتمع من المجتمعات ، والى اى حد تنعكس هذه الاوضاع فى سلوك الناس ، والى اى حد تتأثر بدورها بهذا السلوك . والثقافة السائدة فى ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الاستفادة من هذه الظروف البيئية العامة . وعلى الرغم من التسليم بان هذه الاوضاع الفيزيكية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه ان ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتى كانوا يعنون بها ان الشروط والاحوال الجغرافية تملئ على الناس نوعا معيناً بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن الخروج منه - قد اخفقت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التى اصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون مما فى تشكيل السلوك الاجتماعى . فساكن الصحراء مثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لان الظروف البيئية وحدها هى التى تحتم عليهم ذلك ، وانما لان هناك الى جانب هذه الظروف البيئية الالائمة اوضاعا اخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر معا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار اهمية الدور الذى تلعبه تلك الاوضاع المادية او البيئية فى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين - النشاط الاقتصادى ... فالانسان هو الذى يصنع النظم الاجتماعية التى تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، اخذنا بالاعتبار فى الوقت ذاته ما تقدمه له البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو ايضا الذى يستطيع ان يغير هذه النظم التى اوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضى الامر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة فى كل الاحوال . فكان اى تغير فى البيئة الطبيعية يمكن

للإنسان أن يقابله بإدخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الأوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الإيكولوجية في معظمها وبخاصة البحوث التطبيقية - ناحية العمل للمحافظة على البيئة. وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أى ازدياد الإقبال على إنشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف إلى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا أثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي إزاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء إلى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تولدها ، ولكن أيضا باتخاذ الريف والمحافظة عليه والبقاء على المناطق الخلوية التى تعتبر ثروة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا من طريق التصنيع يرتبط بالضرورة **بخفض أو تدهور** مستوى المعيشة **بيئيا أو إيكولوجيا** ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضجة والصخب التى ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة إلى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الإيكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثروبولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمشتغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

(٤) هناك بعض الاتجاهات التى تدعو إلى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة، بل وإلى ظهور تخصصات جديدة في علم البيئة التى يبدو أن كثيرا من الدول حتى التقدمية لاصطحابها الآن ما تحتاجه من مناهج واعتماد . وتعتمد هذه الدعوة على أن (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج إلى عدة تخصصات تتكامل وتعاون فيما بينها بحيث يمكن أن يخرج منها تخصص جديد يرجع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التى تساعد على فهم مظاهر سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقعهم من البيئة الطبيعية . فالإنسان - على ما يقول دوبرت موريسون Roper Morrison في مقاله الرابع من Education for Ecological Concerns هو أنجح الكائنات في استعمار الأرض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه في الوقت ذاته أكثر هذه الكائنات انبساطا للأرض وتلوثا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الأمريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص في (الإيكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فلاحظ أن الإقبال عليه لا يزال غريبا نظرا لصعوبة العلوم التى يتضمن على العالم الإيكولوجى أن يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أن حال فإن توفير أمثال هؤلاء التخصصين لن يكون سوى الخطوة الأولى في دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الأمر بعد ذلك إلى تعاونهم مع عدد من التخصصين في بعض فروع المعرفة الأخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وأيضا الكيمياء والبيولوجيا لحل أبسط مشكلات البيئة .

(٢)

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الإيكولوجيا الآن هو مسألة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وإن كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وإن لم يدركوا كل الأبعاد التي تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التي تحتاج إلى الإلمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما في ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة وطريقة معاملتهم لها - أو على الأصح تعاملهم معها - وردود الفعل التي ينتظر أن تصدر عنهم أزاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهي برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فأنها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعي على أي حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التي تهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالإضافة إلى المعارضة التي يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الإشارة إليه . إلا أنه يبدو أن الأذهان أصبحت الآن مهية إلى حد كبير إلى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما أنه يمكن تبديد كثير من الشكوك التي أثرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وإن كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما أحرزته من نجاح في المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان إلى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون أن تفرق مع ذلك في المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا أمام إتمام هذه البحوث وبخاصة في المجال التطبيقي ، وربما كان الجانب الاجتماعي هو أصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم في جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الأنهار مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما إليها ، وهي كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج إلى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الأمر إلى إصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة في الأنهار ومجاري المياه) . وإن كان السلاح الأقوى والأكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعي ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول أن «المحافظة على البيئة» لا تعني أبدا الامتناع عن كل ما عساه أن يؤدي إلى تغيير الأوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الأرض ، أو إنشاء مشروعات الري وتوليد الكهرباء الكبرى قد أسهمت أسهاما ملموسا في

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفلت هذه المشروعات ، كما أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل - في أبسط وأوضح مظاهرها - في الأمراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التي تواجه المهتمين بهذه المسألة ليست هي الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى أي مدى يجب التحكم في هذه السيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجة التحكم في تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولا يزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التي يجب ابعادها وازالتها تماما . والرأي السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في أي بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يثيره تلوث تلك العناصر الاخرى ، وذلك نظرا لان الهواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي تحتاج اليه كل الكائنات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون أن يملكها أي كائن واحد منها . فالهواء سلعة جماعية بكل ما في الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأي السائد الآن هو اننا لنستطيع أن نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم أولا في انفسنا ، اما من طريق التشريع او عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الاساسية المتعلقة بالبيئة والاحاطة التي يمكن أن تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأي السائد ايضا بين أغلب العلماء والمستغلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهي انه لا مفر - رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة - من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفي كل شيء وفي كل وقت ، وان المسم في الامر - من الناحية العلمية - هو ان نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التجديد الدقيق .



(٦) انظر في ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٢ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين :

• ويشير التقرير الى اهم مصدر تلوث الهواء "A Study of Pollution — Air" P. 14
مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية وغير العضوية التي العضوية كالباني . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى في معالجة البيئة ، وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة او نسقا متمايزا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الإيكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لاحد الانماط الاساسية التي تغلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا في التمييز بين النسق الإيكولوجي الصحراوي الذي ينشأ نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جذب الارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعى قبلى ، والنسق الإيكولوجى الريفى الذى ينشأ نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانيات الرى وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافا شديدا ويعتمد اساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الإيكولوجى الحضرى الذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ في مناطق معينة بالذات نتيجة لطروف جغرافية معينة تساعد اما على التجارة او تقديم الخدمات او قيام بعض الصناعات ، وهكذا . واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها في نظام واحد يندرج من اسفل الكائنات العضوية الى اكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها في بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الاشياء غير العضوية وكل ما في الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الأخرى . الا انه لا بد من ان نميز في هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) واشكال الحياة الأخرى ، على الرغم من كل ما بينها من تفاعل وتشابك في العلاقات في المتبادلة . وتجتاز هذه التجمعات البشرية في اى نسق إيكولوجي بتعتقد سلوكها الاجتماعى الى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجى لاتجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية او النباتية وبقية مكونات البيئة في ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الإيكولوجية هو الذى يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات (التجمعات) واشكال الحياة ، وهذه السيطرة هي التي تخلق في آخر الامر الأزمة الإيكولوجية التي تعاني منها كل المجتمعات في الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر اهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة ، ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خليق بان يلقى اكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الانسانى ومصادر الثروة في الارض وامكانية تحقيق درجة اكبر من التقدم (٧).

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماء الان بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث عن الانساق الإيكولوجية المختلفة - بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة - قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب لآن لا يخرج عن الوصف السريع الذى يكاد يخلو من تعقيد العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا الى تقاع هذه العلاقات والى الحاجة الى الاشارة بكثر من المعلوم التخصصى لهم هذا التعامل على ما ذكرناه . ولما اتجه باحثون ان يفرض نفسه الان على دراسة الانساق الإيكولوجية عن طريق تطبيق النماذج الرياضية والتكمية .



وهذا ينقلنا مرة أخرى الى ماسبق ان ذكرناه من أن النسق الإيكولوجي - رغم تعقده - نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة ومشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والاثربولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متأخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « إيكولوجيا Ecology » ادخلت لأول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الاحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للإشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الإيكولوجي او النهج الإيكولوجي في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في اوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الأمريكي جالين Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذي ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشرريح الاجتماعي لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatomy of an Agrarian Community ومع أن جالين لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (إيكولوجيا) صراحة الا أنه في دراساته للعائلات القروية التي تعيش ذلك المجتمع المحلي الزراعي (الذي يقع في إحدى مقاطعات أمريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وافصح في ان يكشف عن مختلف انواع النشاط وعوامل توزيعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالين هي أن يدل على انه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف إيكولوجية معينة ، كما انه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق أنواع معينة من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، بل وايضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه ان انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في أمريكا من أمثال ووبرت بارك Robert Park وبيرجس Burgess ، ففي عام ١٩١٥ أيضا حاول بارك أن يدل على ان المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل



وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يقلد هذه العلاقات الإيكولوجية جانباً من معناها الإنساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه أنفسهم يرون ان تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الإيكولوجية الى امال علمية جديدة ويطلق لها مستوى لا يتوفر لها الآن باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى أي حال فان التعطيل الكمي للنساق الإيكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة على أية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن - حسب فو موريسون - فهم امعاق إيكولوجيا المجتمع بنس الطريقة التي يفهم بها الآن الشفرة الوراثية Genetic Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Conservation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لا يمكن التحكم فيها ، وإن لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطاً صناعياً أو تجارياً أو سكنياً ، بل إن لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التى تطبع حياة أهلها بطابع خاص . أما بيرجس فقد حاول أن يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلاً هى بطبيعتها مئوى للجريمة والردة والأمراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الإيكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والإنسانية) لم يبدأ إلا فى الربع الثانى من هذا القرن لدرجة أنه يمكن الكلام من « المدرسة الإيكولوجية » . وليس معنى هذا أن الاهتمام بدراسة الظروف الإيكولوجية كان معدوماً لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما تقصده هو أن الدراسات الإيكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأمور أخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكاني، وبدأت تولي عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين أفراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ناز خلاف كبير بين العلماء حول ما إذا كان يمكن اعتبار « النسق الإيكولوجى » نسقاً قائماً بذاته ومتميزاً عن غيره من الأنساق كل التميز ، أو أنه يدخل مع غيره من الأنساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام أو البناء الاجتماعى Social Structure وكان أنصار تمايز النسق الإيكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على أن النسق الإيكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الإنسان والطبيعة بعكس أنساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الإنسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الإيكولوجيا البشرية فى الثلاثينات عن التمييز بين التفاعل الإيكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن - على ما ذكرنا فى أكثر من موضع من هذا المقال - هو أن ينظر الى العلاقة بين الإنسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وإن كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وغلب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

(٨) راجع فى ذلك كتابنا من : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى (الأنساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك

راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago

V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه ان التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يعيل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على اسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان والمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الانسان ، على اعتبار ان الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن ان تشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف : -

أولا : عناصر ومكونات النسق الإيكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيائية مثل الهواء والماء . (ومثل هذا ينطبق على الانساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى أو نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء او الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) - والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل افراد النوع الواحد او المجموعة الواحدة او بين الانواع او حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية او الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرا على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان او الحيوان او النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة - والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : واخيرا مشكلات التصنيف - ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الإيكولوجى تبعاً للخصائص الداعية لكل فئة من هذه الفئات . (٩)

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis” in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط اثبتت في الاصل في كتابات علماء الإيكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكننا تصدق بكل دقاتها وتفصيلها على مستوى العلاقات القائمة بين الانسان والمجتمع والبيئة ، بحيث ان أى عملية تبدأ في أى طرف من هذه الاطراف الثلاثة لا تلبث ان تنتقل الى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الامر ، في ذلك اكل التكامل او الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الانسان - المجتمع - البيئة) . وأبسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات او الحيوانات ومنها تلك التي تقتات على تلك النباتات ، إلى الانسان الذي كان هو السبب الاول في نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذى يبين مدى التكامل القائم داخل النسيج الإيكولوجى . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ في الاعتبار ان حركة هذه الجزيئات الفيزيائية او المادية D.D.T. تدفع الانسان الى التفكير في هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الانسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التي يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن القريب في الامر هو ان هذا التعديل او التغيير كان يحمل دائما في طياته كثيرا من المساوئ والشروء التي انعكست على حياة الانسان نفسه . فكانه يمكن القول ان الانسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لا يدري ، على تغيير البيئة بما يتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . - على الأقل - منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الانسان في الارض ، وان اتخذ هذا التعديل والتغيير اشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الانسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة أدت الى نتائج عكسية في كثير من الأحيان تمثلت في استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الارض (كما حدث في اراضى ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا في بلاد اليونان القديمة وفي إيران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى في جنوب أوروبا وشمال إفريقيا بحيث تحولت الى اراضى صحراوية مجربة اخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الاراضى الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الانسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء باحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل ان يزرع الارض بعد ان (يطهرها) من فطائها الأخضر الطبيعى . ثم اسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الامر في تدمير البيئة بسرعة وإلى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطي نميبا أكبر من الاهتمام للدور الذى لعبته التكنولوجيا الحديثة في خلق الازمة الإيكولوجية التي نعاني منها الآن ، والتي تتمثل في اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذى اشرنا اليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الأشياء المادية أو الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لانجاز الأعمال الصعبة أو لزيادة الإنتاج ، وإنما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الإنسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن أن ندخل ليس فقط الآلات والأجهزة التي نستعين بها في العمل والانتقال وانجاز الأعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التي تساعد في اتمام هذه الأنشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه في استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد أشكال أو صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة أخرى ، ولكن بعد أن تكون قد اتخذت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع أن بعض هذه المواد الخام تستخدم في صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، إلا أن الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغيرات والعمليات الطويلة المعقدة التي تفقد فيها خصائصها الأولى . ولقد كان الإنسان المبكر يكتفى في الأغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بذل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التي يستمدّها من قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام في صورتها الطبيعية الأولية في صنع أسلحته وأواني الفخارية وما إليها ، أن يصمد أمام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الإنسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التي دخل الإنسان معها في صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الإنسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما أصبحت الأدوات والآلات التي يستخدمها أكثر تعقيدا وتقدما ، كما أصبح الإنسان يستعين بمواد أخرى كيميائية أو يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتقنية هذه المواد الخام الطبيعية أو تحويلها الى مواد أخرى يستخدمها في حياته العملية كما هو الحال في صنع الصلب من خام الحديد بعد أن يقيمه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك في صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على أشياء أخرى كثيرة . وحين يضيق الإنسان بهذه الأدوات والمصنوعات فإنه (لا يلقي بها بعيدا) في حقيقة الأمر ، أو (ينيدها) تماما ، وإنما تعود هذه الأدوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة أخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الأرض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الإنسان ويلقيه فإنه إما أن يدفن في الأرض أو أنه يحرق لكي يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد في الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكان البيئة تسترد في آخر الأمر وبشكل ما كل ما تأخذ منها مثلما تستردنا نحن أيضا ، على ما يقول هاميلتون (صفحة ٢٠) .

والمهم هو أن التكنولوجيا تساعد الإنسان على البقاء والصمود في صراعه الابدئ مع الطبيعة. فلكي يتمكن الإنسان من الحصول على الطعام والدفع والمأوى (أو المأكل والملبس والسكن) فانه يتعين عليه ان (يرتب) بيئته بما يتفق مع اهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل في صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التي تعمل على هدم ما قام بترتيبه واعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الإنسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وان كان التقدم التكنولوجي الحديث والآلات والادوات المعقدة قد اعطته - كما قلنا - مزيدا من القوة التي لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو ان هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح ان البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الإنسان اضاف الى هذه التغيرات بتدخله في سير الطبيعة ، كما ان الذي يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التي احدثها الإنسان وبخاصة تلك التي لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك في انه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان اخطر هذه التغيرات هي تلك التي تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لافراق نفايات المصانع في البحر (١١) . والخطر من ذلك هو ان موارد المواد الخام لا يمكن ان تظل الى الابد ، بل ان بعضها بدأ يعاني بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمغالاة الإنسان في استخراجها من باطن الارض ، وهناك من العلماء من يقدر ان كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالي عام ٢٠٠٠ ما يعنى ان المجتمع الاساسى سوف يجد نفسه في مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة البيولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذى لم يكن الإنسان يتوقعه في بداية الثورة الصناعية او حتى في بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الإنسان نفسه انه في موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الاقل في الوقت الحالى . ذلك ان الاستمرار في احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وب نفس الطريقة التي تتبعها الآن يؤدي الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالإضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما ان هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدي الى ارتفاع درجة حرارة الارض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدي الى حدوث اضطرابات شديدة في المناخ ذاته . وإذا

(١١) من اهم ما يشغل بال كثير من العلماء الان مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة. فكل اشكال الطاقة المعروفة الآن تؤدي الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم اقترها سوءا في هذا الصدد . وربما كان اهم مصادر الطاقة التي لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لمعظم اشكال الطاقة الموجودة في الارض كما انها هي الطاقة الاساسية التي تحفظ الحياة بكل صورها واشكالها . واللاحظ هو ان استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتقدم التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية في استخدام الطاقة الأولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبترول والغاز من السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء . ومن المستوكف فيه ان هذه الزيادة يمكن ان تستمر بغير توقف .

حدد الإنسان من الناحية الأخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث وسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو أنه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع أن يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك أو حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، أو أن يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق إليها الحضارة الحديثة التي بدأت بالثورة الصناعية ، أو التفريعات الهائلة التي سوف تطرأ على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلاً المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الأكثر دفئاً ؟ وهل تفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد أن تتوقف الصناعة وتحول التجمعات البشرية الهائلة التي ترتبط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الأطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات أو افتراضات لا تستند الى دليل وإنما هي احتمالات يمكن أن تتحقق إذا زال الأساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . إلا أننا نجد في الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن أن تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبياً التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الأساسية للإنسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وأفضل الطرق لاستخدام الأرض وتطوير الزراعة وإنتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الإنفاق تعني ضمناً ان الجنس البشري أكثر اهتماماً بما قد يؤدي به وبالمجتمع وبالعالم كله بدلاً من أن يعطي المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر أن هناك من العلماء من يحاولون إعادة النظر في الموقف ، أو على الأقل تنبيه الإذهان الى ما ينطوي عليه من أخطار (١٣)، خاصة وأن الأوضاع في كثير من أنحاء العالم

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الأمر نظرة مؤلهاً للتشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الإنسان والبيئة وتغامر الأئمة الإيكولوجية . فلي فقرة طويلة بعنوان «الإنسان عدو نفسه " Man his own enemy " يقول ديفيد هاملتون - الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist - في كتابه الذي سبقته الإشارة إليه ، ان الإنسان لن يستطيع أن ينقل نفسه من نفسه حتى ولو افلح في التخلص من الآثار السيئة التي تنجم من التكنولوجيا . ذلك أن الإنسان في رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى الغناء من الجوع ، أو أنه قد يفسر الى أن يفسر كل هذا العدد المتزايد بالطراد في بيئة الأرض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والقتال من أجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الأمر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطبق الطبيعة دائماً ان تقوم بتحديد عدد أي جنس من الأجناس تبعاً لمساحة الأرض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وأن زيادة في العدد كان مصيرها دائماً الغناء بسبب نقص الطعام أو التنافس الطبيعي أو نتيجة لتدخل إحدى قوى البيئة الأخرى ، ومع أن الإنسان يعرف ذلك تماماً إلا أنه يتزايد بطريقة سنوية الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في القريب ، ولكنه يفضل تقدمه التكنولوجي استطاع أن يغير البيئة وأن يفسر في الأرض الى أعمال بعيدة جداً بحثاً عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئاً سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدفعهم خطر فقدان الطعام في وقت قريب . بل ←

تستدعي ضرورة الإسراع إلى اتخاذ الإجراءات بحفظ حياة الإنسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفي أن نذكر هنا أنه مع بداية القرن الحادي والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل أربعة أشخاص من سكان العالم في تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الأكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas . يقيم فيها المهاجرون - والنازحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضمنون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفي الوقت الحاضر مثلاً نجد أن ثلاثة أرباع السكان في مدينة كبرى مثل لكنا يعيشون في أكواخ واكشاك تنقصها كل أسباب الراحة الأساسية أو الأولية (المياه والمجاري) ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من أمطار غزيرة وترتفع المياه في الشوارع والطرق تجد الناس أنفسهم مضطربين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر إلى خوض هذه المياه التي تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل أنواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة في مدن الشرق الأوسط أفضل حالاً من هذا . وليس من شك في أن أي محاولة لتغيير هذه الأوضاع التي ينجم عنها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدي إلى إدخال تغييرات جوهرية جديدة في هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادئ التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار دائماً حين تدرس الانساق الإيكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الإنسان في محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول أن تفهم طبيعة التآزر الذي وضع الإنسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل أول مبدأ من هذه المبادئ هو تعقد العلاقات بين الإنسان والبيئة وتشابكها إلى أبعد الحدود . ويزيد من هذا التعقد تعرض هذه العلاقات دائماً للتغيير والتعديل والتحويل نتيجة للتقدم الثقافي والتكنولوجي الذي يحركه المجتمع . فليس من شك في أن مثل هذا التقدم التكنولوجي بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الإنسان في البيئة الطبيعية بعد أن يكون



أن الجنس البشري يعاني الآن فعلاً من نقص الطعام ، وسوف يعاني قريباً من النقص في أشياء أخرى مثل الماء الصالح للشرب والسكن بل والأرض التي يمكنه أن يستفيد منها في الوقت الحالي يشمل كل خمسة عشر شخصاً في المتوسط كيلو متراً مربعاً واحداً من سطح الأرض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد إلى أكثر من ثلاثين شخصاً لكل كيلو متر مربع . ولقد اختلف التقدم في مجال الطب عمل الطبيعة التي كانت تخلص على الأفراد الجنس البشري في الصالحين - كالأرقي وامجزة - فأطال الطب الحديث حياتهم لكن يزعجهم الأرض ويزعجهم الآخرون ويسهموا في استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالي في تلغاف الأزمة الإيكولوجية .

والعروف على أي حال أن سكان الأرض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريباً بحيث يتوقع أن يحصل هدمهم إلى سبعة آلاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وإن معظم الزيادة ستكون في الدول المتخلفة التي هي أقل قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من الناس . والظاهر أنه لن يكون أمام الجنس البشري إلا أن يختار بين العمل على ضبط التسل بكل الطرق بما فيها إبادة الأجهاس (كما يقول) أو يموت جوعاً (صفحات ٢٧٤ - ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخلق يمثل هذا التحكم ان يؤدي الى تغيرات جوهريّة في البناء الاجتماعي الكلي وليس في البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والبدا الثاني ، وهو امتداد للبدا الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التي يحدثها الانسان في كوكب الأرض الذي يعيش عليه هي ظواهر إيكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا في ضوء العلاقة الثلاثية القوية التي تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، او « المجتمع الانساني واثنا عليه البيئة » كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التي تؤلف النسق الإيكولوجي فان اثر البيئة الفيزيكية يكون اوضح في المجتمعات البسيطة والاقل تطورا منه في المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس في الفئة الاولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها في صورتها الاولى . فالتاخر التكنولوجي يقف عقبة في وجه الجهود التي قد يبذلها الناس في هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويرها بنفس الدرجة التي نجدها في المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجي السائد عندهم .

والبدا الثالث هو ان ندرك دائما في دراستنا الانساق الإيكولوجية ان الانسان يوجد دائما في الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنمضلا عن الانساق الإيكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون ان يتاثر بها او يتفاعل معها . بل ان تاثير (الانسان) على الانساق الفيزيكية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شيء الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التي تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعي يصدر من اعضاء المجتمع ككل يختلف في الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذي يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الإيكولوجي الطبيعي وان ندرسه في حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش في فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر او غير مباشر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك في ان دراسة المجتمع في ضوء النقاط السبع التي سبق ذكرها والتي حددها ريبلي Ripley وبوشنر Buechner تلقى كثيرا من الاضواء على الدور الذي يقوم به التخصصون في العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذي يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والبدا الرابع هو انه على الرغم من التسليم باثر البيئة في الحياة الاجتماعية في كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطا الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالدات وفي اتجاه مرسوم بالذات أيضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو أنها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في أى مجتمع من المجتمعات - أيا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع أو بداهته وتخلفه - بحيث يستطيع الناس ان يختاروا في الأغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس ادل على ذلك من أننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة في البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف في اساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن في الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون ان يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات او محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من انماط الحياة جنب الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر في نظر كثير من العلماء اول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تأخرا ، كما يمارسون في الوقت ذاته الزراعة بسل وايضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد في المجتمع الواحد ان الاوروبيين المستوطنين يمارسون انواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من أنهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه أننا يجب ان نأخذ البيئة الطبيعية او الظروف البيولوجية على أنها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف او الشروط الشاملة التى تتلائم على قيام نمط معين من انماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحتى ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والآخر ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالي على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت في المجتمع سواء اتخلت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، او شكل التحكم في الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها في صور واشكال جديدة ، فلا بد للعلم من ان يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السئية التى يخلفها تحكم الانسان في هذه الظروف والاضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان ننظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وإنما لا بد من ان تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل في تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية وما يترتب على ذلك من مرض او متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع في المستقبل ان لم يكن يعانى منها او من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن أزمة البيئة والإبعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط - في مختلف فروعهم - بالعمل على ثلاثى استفعال هذه الأزمة او استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

أهم المراجع

- Avril, R.; *Man and Environment*, Penguin, 1967.
- Buchanan, R.A.; *Technology and Social Progress*, Pergamon, Oxford 1966.
- Carson, Rachel, *Silent Spring*, Penguin, 1965.
- Drucker, P.F.; *The Age of Discontinuity*, Heineman, London, 1969.
- Galbraith, J.K.; *The Affluent Society*, Pelican, London, 1970.
- Hamilton, D.; *Technology, Man and Environment*, Faber, London 1943.
- Mumford, Lewis, *The City in History*, Pelican, 1966.
- Roszak, T., *The Making of a Counter-Culture*, Faber, London, 1940.
- Shanks, M.; *The Innovators*, Penguin, 1967.
- Sterland, E. G.; *Energy into Power*, aldus Books, London, 1967.
- Wagner, R.H.; *Environment and Man*, Norton, N.Y. 1971.
- Watt, K.F.; *Ecology and Resource Management*, N.Y. 1969.

وذلك بالإضافة إلى المقالات العددية القيمة التي يقدمها عدد خاص من مجلة Daedalus (وهي المجلة التي تصدرها الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم من America's Changing Environment خريف عام ١٩٦٧).

محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو ملئ بالاشعاعات تأتيها من علر ، وكان السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكننا لا نأبه لها ولا نتتبع أثرها ، ولعل أثرها حتم في تطور البشرية .

ومن يدري ، ربما كانت الجريمة من الاشعاعات التي تأخذها اجسامنا يوميا تؤثر علينا في نسلنا ، وهي تؤثر على آلات القياس في معاملنا فتدق في كل دقيقة جملة دقائق .

ولحكمة الهية قل تصادمها مع اجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره في اجسامنا ، وما اكثر الكربون في اجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ، ويعزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دمنا نأكل ونشرب وفيما نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكان كل جسم حي في الوجود يحمل معه ساعة دقاقة تدق دائما دون أن يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن في التحرك ساعة الوفاة . وبدل مقدار النقص في عدد الدقات على مضي الوقت بعد مفارقة الحياة ، وإذا اقلعت شجرة من أرضها فقد فارقت الحياة ، وإذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك أكثر من سؤال يحول بالخطر أرجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التي تغمر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتى النا وإبل من الاشعاعات الذرية بطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى النا من كل فج عميق . لا يحابى اتجاهها دون اتجاه ، فجميع الاتجاهات عنده سواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق في كل زمان وعلى كل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الأرضية جميعا ، وهم أشتات ، رؤوس نصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقى تتجه الى جنوب ، وأقدامهم جميعا تتجه الى مركز الكرة الأرضية يقيسون ويتفقون على سرعات هذه الاشعاعات وطاقاتها وكمالها من آثار كما وكيفا ، ويطلقون عليها اسم الاشعة الكونية .

والرأى السائد انها تأتي النا من اعماق الكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط نزع ما يعترض سبيلها . وفي عملية الاراحة تكون هناك ضحايا فتظهر اشعاعات ثانوية ، هذا او جاز ان نسمى الاشعاعات قبل التصادم مع ذرات الجو المحيط بالاشعاعات الابتدائية - وربما يصل النا من وقت لآخر بعض الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل النا في الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هي ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهي ذرات كاملة التاين ، والذرة بغير الكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

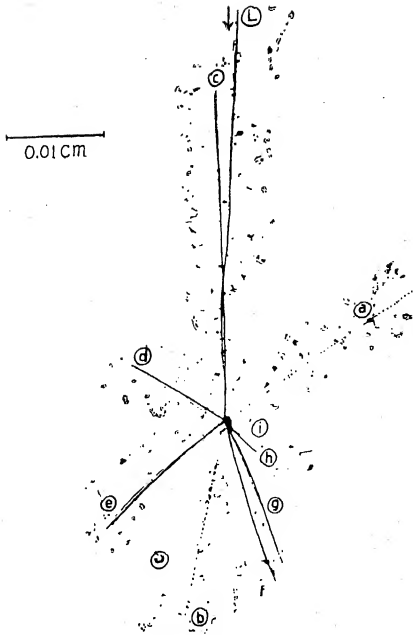
وأجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم ، ونوى ذرات اخرى خفيفة وقليلة ، ولعل اقلها نوى الحديد ، اجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات ، وان كان الاجماع على ان النصيب الاكبر لنوى الايدروجين ، او ما يسمى البروتونات ، فقد اختلفوا ، وقال فريق ان تسعين في المائة من المكونات هي البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا . ولكن لم يقل أحد ابدا انها اقل من سبعين في المائة من المكونات . واجمعوا ايضا على احتلال الهليوم المكان الثانى بعد الايدروجين ، فتراوحت نسبة نوى الهليوم او ما يسمى بجسيمات ألفا بين تسعة وعشرين في المائة وتسعة في المائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو اقل من واحد في المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ، ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلبات الفوتوغرافية لبحث مكونات الاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرى أثر مسار الجسيم بعد التحميض والتثبيت ، إذ نجد خطاً من النقاط السوداء تشي بمسار الجسيم في المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر أى ميكروسكوب . واستحدثت مستحلبات لهذا الغرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، أعني ينفصل من الذرة إلكترون فتصبح أيوناً ، وهذا بدوره يؤين ذرة أخرى ، وهكذا يحدث تفرغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم في الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانة قاعدتان ، ومادة القاعدة في حالتنا ليست نحاساً ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجسن ممدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة القفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميلر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية في العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضاً في الكشف خاصية أخرى ، حيث لا يسمع الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون في هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطاً من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها اخذنا صوراً فوتوغرافية (شكل ١٣ ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفي داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطاً بهواء أو بنغاز الأرجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من الزمان يمكن التحكم في سرعة الحركة حتى تؤدي الفرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعاً لاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الفرفة في مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

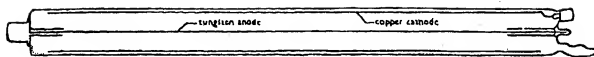
بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد انها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزترونات ، وهى الاלקترونات الموجبة ، وفوتونات وهى جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اقل من الالكترتون واخف من البروتون ، واشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما في الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل الناتج أيضاً بما في الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت في الجو تحوله الى كربون مشع والذى سبق ان تحدثنا عنه .



شكل (١)

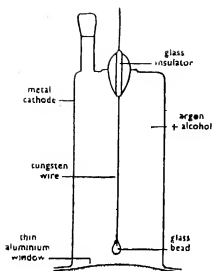
صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للاشعاعات الذرية
الخط a ، b مسار ميزونات باي ، والخط c مسار
بروتون .

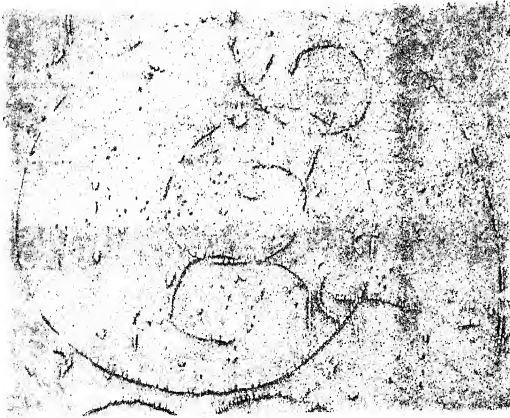
الإنسان بين الماء والبيئة



شكل (٢)

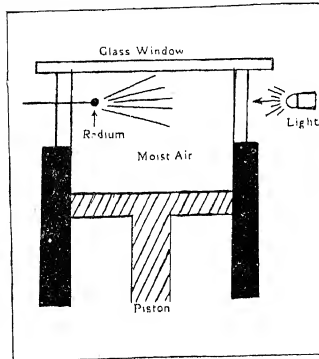
أنواع مختلفة من عدادات « جيجر وميلر » تملح
لاستعمالات مختلفة لقياس الإشعاعات





شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في غرفة مثيلة لفرقة ولسن والفرقة موضوعة في مجال مغناطيسي .



شكل (١٣)

صورة توضيحية لفرقة ولسن السحابية .

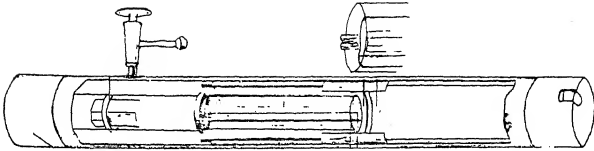
التاريخ والكربون المشع :

لسنا في حاجة الى بيان أهمية معرفة طريقة لتاريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الإنسان ويبحثه في عصور ما قبل التاريخ . ولعل أقدم طريقة لجأ اليها العلماء هي البحث عن الصخور التي بها يورانيوم ، واليورانيوم ماد مشعة تشع وتحلل حتى تتمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدي معرفة نسبة الرصاص الخامد الى اليورانيوم في جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور . وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الأعمار التي تربو على مائة ألف سنة ، اما بخصوص الأعمار التي تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، واعود فأقول ان جميع المواد الحية بها كميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وان هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكمية غير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك في الأجسام الحية ، ويتولد هذا الكربون المشع من تصادم يقع في الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الأشعة الكونية والازوت في الجو .

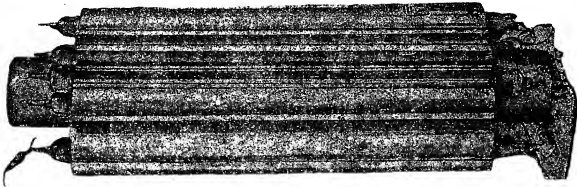
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائية عن الكربون العادي ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود في مادة حية كالنبات مثلا نجد انه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذه الكمية دائما نسبة ثابتة في جميع المواد الحية . وتتمد نصف كمية الكربون المشع في ٥٦٠٠ عام وتسمى هذه الاعوام بعمر النصف ، ونحتاج البقية الباقية الى ٥٦٠٠ عام اخرى ليتمد نصفها ، أي نصف التبقى ، وهكذا يكون التاريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربون المشع دون تعويض ، اذ ان الحياة قد توقفت ، وأصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نسبة الكربون المشع الى الكربون العادي تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الى نصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة او نسبة الحياة ان جاز هذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة في الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذا ان ١٥ ذرة مشعة تتمد نهائيا كل دقيقة في جرام واحد من الكربون .

واذا أرجعت هذه الطريقة عمر اثر من الأثر القديمة الى ٤٠٠٠ ر.م . عام فانا نقول ان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عملية القياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدتين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينشأ بها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذي يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلامسة مع بعضها (شكل ١٤ ب) وتوضع كلها في صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الأشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ، وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التي يسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدان المتسبب في العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت في احدى التجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات في الدقيقة ، لذا رؤى ان يستمر العد لعدة ساعات حتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ١٤)



(شكل ١٥ ب)

(أ) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلاصقة التي تحوط العداد الذي يحوى عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية في العشرين الف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ أثبت بواسطة الكربون المشع أن بدء الحياة الإنسانية في أمريكا الشمالية معاصر لبدنها في إنجلترا والدانمارك ، وذلك حوالى عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على أن هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وإن نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، إذ أن الانسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا أى اثر للانسان من قبل ، بدليل انه عثر على بقايا فحم في أحداكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى أن الانسان كان موجودا في تلك المنطقة قبل عصر الجليد الاخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت أن الانسان قد ظهر حول حوض البحر الابيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا أنك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقائق قلب الانسان ، فتبدأ الساعة في الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة . لو وجدت جثة محنطة سمعت دقائق الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت الى دقائق الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو أعدنا هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلا الجو بالإشعاعات أكثر تشغيلا الأفران اللرية أو ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه أحزمة مشعة حول الأرض لم يسبر غور اثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الأحزمة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الإشعاعات في الجو ، أي تلوث الجو بالإشعاعات وهي من مسببات تغير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبدأخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميلر » ودقت العدادات بما يدل على أن الاشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الأمريكي (المستكشف ١) وهو يدور في مدار حول الأرض وكان أبعد ارتفاع إليه هو ٢٥٥٥ كم وأقرب ارتفاع من الأرض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرا غريبا أثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم، إذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد، وعندما عاد القمر مرة أخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفضت العدادات وبدأت العد .

ذهب فان ألن الى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لأنها مرت في منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها في العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضاً ، لذا صم « فان ألن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الأشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومساريتها عدا ثم وضعها في القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الأهلجي ، حيث كان أكبر ارتفاع له عن الأرض ١٠٧٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وإيابا منطقتين حول الأرض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الأرضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وأمريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، اغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات اقل للحزام الداخلي . قلت اغلبها بروتونات اذ ان القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الأرضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا تختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد احدثت التفجيرات النووية احزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤ كم ، وبقي بعضها لبضعة ايام وبقي البعض الآخر لعدة اسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الأرضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة في حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزئيات ذراتها فلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقلة وعدم استقرار لو هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث ان تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزئيات أخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر في وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يرحف التفاعل زحفاسريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستمر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متعددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من قتل او قدح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتيبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا اقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها قلبية غير مكهربة « نيوترون » ان تنشط الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأنني بها تخرج من صلبها ما يزيد شتعالها فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنسوة على ما نعلم كرية الشكل او هي الكرة اقرب منها الى هيئة اخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوى تنافر ، وتربو قوى التجاذب على قوى التنافر حتى لا تتناثر .

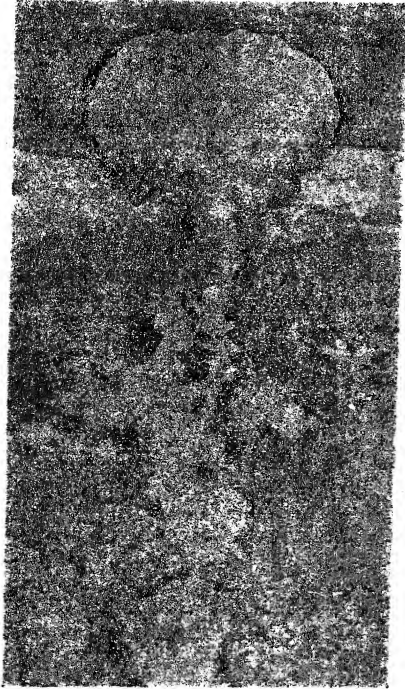
ولو كان في النية ان نجبر النواة لتتشطر وجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وفي هذه الحالة تكون قوى التنافر قدر قوى التجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هي في استقرار حرج في انتظار الضغط الذى يقصم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفت قوى التجاذب وفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقة لاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وهذه النواة هي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ، والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائه من النظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجه بقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج في درجات . وقد وجدنا من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم ان يبعث من المخلوط نيوترونات يمسك البطء منها بنوى اليورانيوم ٢٣٥ فتهيج بالمقدار الصحيح ، وتخرج عن اتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد في بعض الاحيان ان احدهما باريوم والاخر كربيثون، وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلق ايضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضعف البطء منها الاثر ثم يتضاعف مرة اخرى بهذا التضاعف ، وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاب بدا واشعل وللنار ان ترمى وتفليد بعضها ، وكلما ازدادات سريانا ازدادات اشتعلا ، والقنبلة الذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانية يوم ان القيت على هيروشيما : كرة من النار قطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منها ميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطع متناثرة في جميع الجهات من المواد المشعة، ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي اصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ، ومن بعد تصل في بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عن مخلفات المواد الانشطارية في القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع في الهواء الفلزات الساخنة الناتجة عن الانفجار في شكل عمود متعدد الالوان اولا ، ثم يأخذ لونه في البياض، ويرتفع العمود في هيئة دوامة من الفلزات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتار ، واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة او زهرة تقف على ساقها ، وفي أسفل العمود عند الارض سحب متكاثفة من الدخان والغبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الفلزات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلة مفتوحة ، ارتفاع العمود حوالي ٢٠ كم في الجو ، أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية على الميناء الياباني والمركز الصناعي المسمى ناجازاكي .

نعود ونسأل عن اثر الانفجار في اطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، اعني بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية ، وبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان او ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدأ بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، وبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل اللهب الحرارة وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد روي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانايب غاز قد انفجرت، واسلاك كهربائية وقد انصهرت، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق اقل شدة كل من كان على بعد اربعة كيلو مترات ، وبقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قاتمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر اقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها اشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطرق في الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الاولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وبنعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف او اكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام ولباسي التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة معينة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات . والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحددة للانفجار ، وتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها اقل من سرعة الضوء ، وهي اقل اثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي اكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز ياتي الانسان من مأمته . واطخر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بعبارة ادق اعمارها الاشعاعية ، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . وكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بان تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تسم ولا ترى ولا تحس الا بالآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيراً ليس المجال مجال التحدث عن لفحة الهواء الناتجة من القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعاً من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للأثار الضارة الناتجة عن الفبار الذري ، سواء في مكان الانفجار أو في الاماكن المجاورة أو في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي ان يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد ان اذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للأمراض ، وتجعله هدفاً لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقتصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلغ الاعصاب ، ويورث الابهاء الابناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بدأوا يفرعون من خطر الاشعاعات اذ رايناهم ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقاً عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر أدلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجوال المحيط .

وكما أن القنبلة الذرية رمز الفناء فهي أحياناً رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وإنشاء الطرق وغيرها ، وكأنا جعلنا من الهلاك نفعاً ومن النار زرعاً ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرناً ذرياً أو ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدينة والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية أو الافران الذرية عبارة عن تكوين لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلاً عند بناء هرم من اللبنات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب احمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنها في حالتنا ترص طبقة من قوالب الجرافيت بصناديق من الألومنيوم مملأ باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة أو على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى أبعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية وأخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، أممي طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلاً هندسياً مجسماً يوافق ما يقرره البحث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية أو الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهديء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الفساز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهديء غير الجرافيت ، ليكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالألمونيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بأنه يهديء النيوترونات بعد ٢٥ خطبة مع نواة

الايدروجين الثقيل ، في حين ان الجرافيت يهدى بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات اقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل في حالة الماء الثقيل منه في حالة الجرافيت . ويسمى القرن في هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدى يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيانه مستقل ، واحيانا نجعل الوقود والمهدى في امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا في النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة في ماء عادي ، والماء هنا هو المهدى ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الفني بالنظر ٢٣٥ ، ويسمى القرن في حالة ملح اليورانيوم المذاب بالقرن المتجانس . واذا نشط القرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالسيوم او البورون ، بل يمكن التحكم في التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخمد بواسطة القضبان في حالة القرن الجرافيتي اسرع منه في حالة قرن الماء الثقيل ، اذ عند اخمد قرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار في ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤثر الوصول الى الاخمد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب ان نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون في الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف القرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذي وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشيء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبتروك والكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذي هو النيوترون احد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة في الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق ان ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدى من سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطيء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطيء باليورانيوم ٢٣٥ احتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتنتشر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم في التفاعل ونسيطر عليه .

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدتها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، واودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا عقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى ايسر ، فالايديوجين بسيط لا مانع ان يعتقد ، واليورانيوم معقدا لا مانع ان يتحرر ، وهذا في تعقده وذاك في تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهى ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقل انشئ قصد الأبحاث العلمية ، وتخبر المواد فيه لتخرج مواد مشعة اصطناعيا ، ثم اصف مفاعلا بالماء العادى انشئ قصد توليد الكهرباء لاستخدامها صناعيا .

فرن ثرى بعائه الثقيل :

يعتاز الفرن التجريبي الذى رأيت به وجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢ر٢ طنا ، وقطر العمود ٢ر٢ سم وطوله ١ر٦ مترا ، والعمود ملف بفلاف من الالمنيوم سمكه مليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لفتح مثبت فى لوحة التوزيع تأخذ الاعمدة شكلا هندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة الفتاح . وبلغت الدقة درجة جعلت التحكم فى مواضع الاعمدة تاما ، فاللحزجة تصل الى ٠.١ مم .

تفمس الاعمدة فى الماء الثقيل البالغ قدره ٢م٥٠ والماء فى وعاء من الالمنيوم مغفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويعمل الماء الثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١ر١ جو .

وهناك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتجه الى قاعه قطرها ١٠ سم. وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخبر أى لَشْتَعُجْ وتصبح مادة مشعة ، واقرّب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لفتح معين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الاخلال باوضاع الاعمدة الاخرى .

وهناك أربعة قضبان حاكمة ، وهي مادة البورون وقضبا امان من الكاديوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ٥٠ متر ، يتحركان تلقائيا ، لو زاد الاشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ، وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلوقة الطاقة لا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصف ويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقد كان الفيض فى بدايته او فى الفرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

أكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠°م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨ سم^٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم فى المنتصف ١٤٠°م ، كما ان قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بتر من الجرافيت كعاكس ، ويوضع اعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصى .

وفى دائرة الفرن أربع مضخات . المضخة الأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهيليوم مرة أخرى الى الوعاء ، اذ ان الهيليوم يمر فى دائرة مغلقة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهيليوم مع ما تحلل من الماء الثقيل ، أعني مع غاز الاكسجين والايديوجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحد الاكسجين والايديوجين الثقيل مرة ثانية ليصبعا ماء ثقيلا ، ويعود الماء مع الهيليوم الى الفرن مرة ثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بنية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرة ثانية في دائرة مغلقة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها ماء بارد متحرك في دائرة اخرى بواسطة المضخة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مغلقة اذ يقذف ماؤها الى غير عودة وت سحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء في الساعة (شكل ٦)

يستخدم هذا المفاعل للبحث والتجريب لمعرفة اثر الاشعاعات على المواد ولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

محطة الكهرباء الذرية :

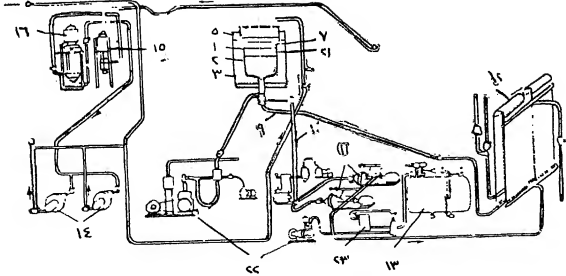
يتلخص عمل هذه المحطة الذرية في توليد حرارة نتيجة للانحطاط المتسلسل لقوى اليورانيوم . وتستخدم هذه الحرارة لتحويل الماء بخارا ، ويعمل البخار في ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطة التقليدية التي تستخدم الفحم وقودا هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد في حالتنا من الوقود الذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسم الثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخار المضغوط . اما القسم الاخير فهو التوربين التقليدى الذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سأكتفى بوصف الفرن الذرى ، اذ ان المتبادل الحرارى والتربين لا يختلفان عن مثيلهما في المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلقة من الداخل والخارج بمعدن الصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من اعلى الى جوف الانابيب ، حيث يخرج من اسفلها ليغمرها من الخارج من اسفل الى اعلى ليملا الوعاء الخارجى لانابيب اليورانيوم وعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعاء من الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٦٥ م محاط بمتر من الماء يليه ثلاثة امتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عند منتصفها من اليورانيوم الفنى بالنظر ٢٢٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبة اشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٢٥ م وقطرها الخارجى ١٢ سم . ويوزن اليورانيوم بأكمله نصف طن . نسبت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة من الجرافيت قطرها الداخلى ١٦ سم وقطرها الخارجى ٥٦ سم ، ويغطى سطحها الخارجى بالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلى عاريا ، أى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويمر في داخل الوعاء ويفسر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرج حيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه في درجة حرارة قدرها ١٩٠ م ٥ . وبأى الماء مضغوطا من بالون من الصلب على ارتفاع ٥٥ م عن الفرن ، ويحوى البالون انابيب طول كل منها ٥٥ م وقطرها الداخلى ٢٠ سم ، ويملا الربع الاعلى للانبوبة هواء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبل وصوله الى الفرن ، ثم يمر منه الى المتبادل الحرارى حيث يعود مرة اخرى في دائرة مغلقة .

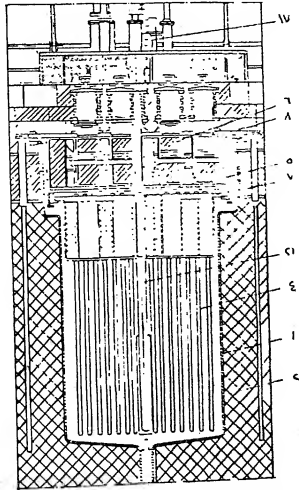
To tank



شكل (٦)

رسم توضيحي لفنر بما يلي :

- ١ - صهرج
- ٢ - عاكس من الجرافيت
- ٣ - صهرج خارجي من الصلب
- ٤ - اعمدة من اليورانيوم
- ٥ - فضاء واق من الرصاص
- ٦ - غشاء
- ٧ - لوح دوار
- ٨ - غلاف من صلب لا يعدا
- ٩ - الأنبوبة مضغط
- ١٠ - الأنبوبة صرف
- ١١ - مضخة
- ١٢ - متبادل حراري
- ١٣ - صهرج تفرزين
- ١٤ - مضاط غاز الهليوم
- ١٥ - مكثف
- ١٦ - جهاز ادماج (عكس التحليل)
- ١٧ - سحبان للقصبان الحاكمة
- ١٨ - درع جالي
- ١٩ - فتاة جانبية للتجارب
- ٢٠ - عمود حراري من الجرافيت
- ٢١ - فتاة رأسية للتجارب
- ٢٢ - مضخات تبريد
- ٢٣ - مضخة لزوت سائل



يتبخر ماء في دائرة أخرى تحت ضغط ١٢٥ جو ، وذلك عند المتبادل الحراري ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الأولى . وقد وجد أن البخار خلو من الإشعاعات . ويذهب البخار الى تربين من النوع التقليدي ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب الى المتبادل الحراري مرة أخرى ليعود سيرته الأولى بخاراً ليبدأ دورته من جديد . وحركة الماء في الدائرة الأولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار في الدائرة الثانية ٤٢ طن في الساعة ويستعمل في دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طن في الساعة ، ويدبرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثة آلاف دورة في الدقيقة .

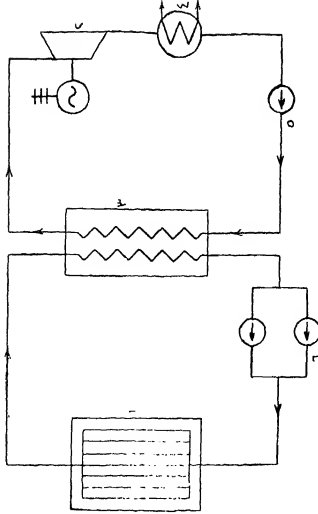
ويضبط الماء الداخل في كل أنبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتساوي درجات الحرارة في جميع الأنابيب ، وتضبط كل أنبوبة على حدة ومقدار ما تأخذ الأنبوبة من الماء في الساعة هو ٣ م٣ ، والتهوية لازمة لاذتفير الهواء في الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة في الساعة ، والقضبان الحاكمة في الفرن من كبريتيد البورون وكذلك قضيبا الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاءة قدرها ١٧ ٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من اللوة (شكل ٧) .

التسمم والمخلفات :

يتلقى اليورانيوم في الفرن اللدري ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الألومنيوم الذي يلف اليورانيوم ، وينشطر نوى اليورانيوم ٢٣٥ الى شطرين ، والنوى المتولدة نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكربتون والسترونشيوم والاكزيتون وغيرها . تتكون هذه العناصر في أنابيب اليورانيوم فتقتل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للأنابيب أنها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الأنابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضعة شهور من التشفيل ، ولا أقول لتفصل الأنابيب المشوهة وتعود سيرتها الأولى ، بل أقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة او ماسمي بالمخلفات الإشعاعية ، اذ هي مواد نشطة نشاطا إشعاعيا ، أقول هذا ولا ادخل في الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لغلاف الانسيوم لأنبوبة او أكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالواد الإشعاعية ، وهنا الإشكال الأكبر في كيفية التخلص منها ، هل نقذفها في أعماق البحار وقد اصاب الفزع الاسبان عندما اشيع ان غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم ندفنها في أعماق رسال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف أكبر من تلوث البيئة والجو بالإشعاعات ، وقداستأنسنا التفجيرات اللدرية ، ولكن من يدري فربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الإعرابي الذي استأنس ذئبا وبعد ان اطمأن اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخطبه قائلا « ومن أنباك ان أباك ذئب ؟ »

أقول هذا لباين ان الخير في استخدام الطاقة اللدرية في الأغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر على تلافيه والعمل على عدم إيقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقي البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمحلة كهربائية ذرية :

١ - المفاعل

٢ - التربين

٣ - التبادل الحرارى حيث يتولد البخار .

٤ - المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .

٥ - مضخة للدائرة الثانية .

٦ - مضختان للدائرة الاولى .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان في بداية وجوده على الارض شيئاً مذكوراً ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيراً بآتيه الحيوان بفريزته . ولعل اكبر دليل على مستوى التفكير الانساني في ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوارى سواة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رأى غراباً يهيل التراب على اخيه الغراب ...

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات ماحوله ويعمل في طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض ... ولعل افلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » في ذلك الوقت الى عدم دراية الانسان الاول بالزراعة ... ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية ، وتغيرت البيئة تغيراً كاملاً ، غيرها العلم ثم جاءت الحشرات ترمي ، واثى الجراد على الاخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن تلثمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشرية والاشعاعات الذرية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارىء ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان في ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصاً ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجيء ، فالحجرات المكيفة للهواء محاولة من هذا النوع ، واثى اشعر ان البيئة التي تقاس على الانسان تنافى والفطرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لا بد مما ليس منه بد ، فشخص ينتقل في الفضاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لا بد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد ان يفوس في البحر لا بد له ان يعد العدة ليتقى الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزم من محدد. اما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . ونستأصل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش في الجو الحار ؟ ... وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش في المناطق القطبية ؟ ... أعدت حجرات لتمثل هذه المناطق ، وأجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة يعتد بها ، وانتهى بعضها الى ان الانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه أينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم في الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد أكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وبأن ايضاً ان الاسكيمو لا يأكلون أكثر مما يأكل غيرهم ... ولكن العمل الشاق هو الذى يتطلب كميات أكبر من الطعام ... وبأن ايضاً ان الزيوت والدهون ليست اساس طعامهم ، فلو اتيج لهم طعام آخر لاكلوه ، ولكن المتحكم هو ما في متناول اليد من طعام ...

هناك حالات تاقلمت مع تغيرات تتناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله أن سوّى الإنسان حسب بيئته ، إذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذى يصل الى نصف لتر في ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل ووزنهما واحد وشكلنا احدهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة اسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو أكثر ، وفقدتها للحرارة اكبر ، وتبخّر العرق منها أكثر ، فكان الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة أقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم في تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتفتت البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويفضيق بهذا وذاك ويظل في صراع ، وسيظل في صراع أبدي حتى يحدث الله أمرا كان مفعولا .

الإنسان والعلم :

لعلّ تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان في صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفى نقيض . فالعلم يبنى ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تتلوث البيئة ونلجأ مرة أخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم لنا ناتجا نظفيا لا غبار عليه .

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تتشكل بأشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون في اثوابها الفول . فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة أخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المخفية قدر الطاقة المستحقة ، والفارق بينهما كالغارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقدود المخفية قدر النقود المستحقة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لامتحدت في الكم والعدد ايضا . وأسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشتعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه في مداخن المصانع وافران الخبز ، وفي عادم السيارات وفي غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبتروول وما اشبه . والطاقة الحرارية ايضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة أخرى . اذ تحول الى طاقة أخرى بمقدار وعلى شروط . فالآلات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لها مصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقدف بالاجزاء الباقية الى مستودع ، ولا تعمل الآلة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجتا الحرارة - درجة حرارة المصدر ودرجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية إعادة الحرارة المقلوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة أخرى ، ويستحيل عليها ايضا إعادة ما فقدته المصدر لتوأم من دخان وحبوبات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتي دور العلم الذي انتج الآلة التي افادت البيئة ربا وزرعا وحصادا ، او غزلا ونسجا ولبسا ، يأتي دور قى صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرعاها ويكلاها بمعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الذي انشأ الآلات التي افادت في تعمير الأرض باستحداث ادوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات اجهزة لمنع تلوث الجو الذي يستنشق هواءه واجهزة لمنع تلوث الأرض حيث يشرب ماؤها ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثيرا عند ازالة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذي يخرج من المداخن فنرى قبل تنقيته لينتشر في الجو نظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منها من غير سوء لا يثير أنفا ولا يؤذي صدرا .

السيارات والتلوث :

بحسب أضرار عادم السيارات في « لوس انجلوس » إحدى مدن الولايات المتحدة الأمريكية ووجد ان في المدينة وقتذاك ٣٠ مليون سيارة تستهلك في المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية من البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من أكاسيد الأزوت بالإضافة الى ٩٠٠ طن من أول أكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جو مدينة « لوس انجلوس » . ولكن ما اثر كل هذا على الانسان . أجريت أبحاث ووجد ان العين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات في العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥٠ جزء من مليون جزء من هواء المدينة ، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد أصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحلنا دمه على وجه التحديد نجد ان خمسة في المائة من هيموجلوبين دم كل فرد خمل وققد نشاطه ، وذلك عندما يصل أول أكسيد الكربون في جو المدينة الى ٣٠ جزءا من بليون جزء من هواء المدينة وبقي الأكسيد في الجو ثماني ساعات ، لذا كان حتما واجبا ان يحاول الباحث التخلص من التلوث كلية او ازالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعة السيارات ، وقد لاحظوا ان أكثر من ثلثي العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة أندر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا روى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنع التلوث او تقليلة ، ان يعاد احتراق العادم قبل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلق . والعادم عبارة عن غازات الأزوت والاكسجين وثنائي أكسيد الكربون وبخار الماء وأول أكسيد الكربون وكربوهيدرات وأكسيد الأزوت وأكسيد الكبريت .

وهناك طرق مختلفة استحدثت لمعالجة العادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بواسطة شعبة اشعال وينطق شكل (١٨) عن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشئ بالشئ وبذكر ، لذا اشير الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامل مساعد لتحترق الغازات غير كاملة الاحتراق في درجة حرارة اقل منها في الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تفيننا عن الشرح .

معييار التلوث :

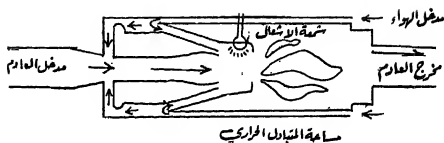
ترتاح النفس العامة الى الدقة في القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن الباحث الى ثلاثة مناسيب عيارية للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب الانذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلمة منسوب الاستعداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير في وظائف اعضاء الجسم . يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجيء حاد . ولواردنا دقة في القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
اول اكسيد الكربون	—	١٢٠	٢٤٠
اقليين	٠.٥	—	—
كبريتيد الهيدروجين	٠.١	٥	—
ثاني اكسيد الكبريت	١.٠	٥	١٠
الكاربوهيدرات	٠.١٥	—	—
ثاني اكسيد الازوت	٠.١٥	—	—
مؤكسد	٠.١٥	—	—
اوزون	٠.١٥	—	—
دخان	٠.١٥	—	—

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) . على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجين ، ومنسوب الاستعداد في حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما في الجدول (١) حيث لا اتفاق بين الباحث على رقم يعينه لذا جاء الجدول ادردها كاستان المعجوز .

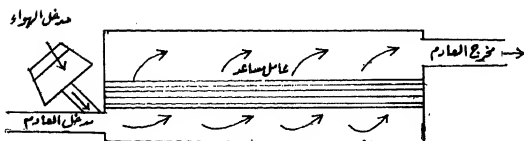
ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيد الكبريت في دخان المصانع ومحطات القوى ، وتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (١٨)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احدهما وترعرت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت في مراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوث مباشرة من الفلاية شكل (١٩) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الوقود ماء الفلاية وفي الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب) مأخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لا هو قائم من مصنع لتنقية ما هو خارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لإعادة تسخين الغاز الخارج .

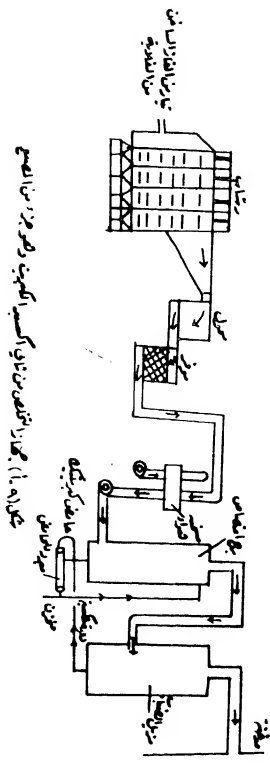
ووجد ان الطريقة الاولى تزيد ٩٠٪ من ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدي الى ازالة في حدود ٨٥٪ .

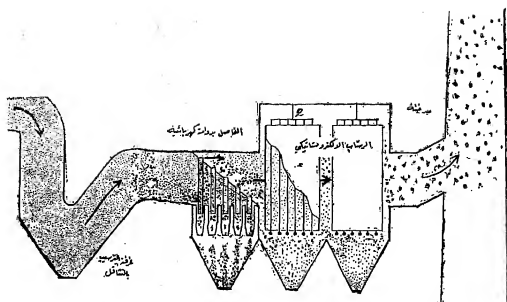
وفصل في كلتا الحالتين في الطريقة الاولى والطريقة الثانية يفصل الرماد والجيبات شكل (١٠) أولا بواسطة عملية الفصل الميكانيكي ثم الترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحلول في شكل (١٣ ، ب) حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد في رفع اكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبح بخار حامض كبريتيك ، حيث يبرد في برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهي ازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحواله الى سائل .

الانسان التهم

غريب امر الانسان يلقي التهمة على الآلة وهو التهم الاول المتسبب في التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التي يعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه من المهد الى اللحد .

دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ من الاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا في كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون . ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجه متنفسا ليعيش ويعيش ابناءؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهر نهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو في عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عملية عكسية لتنفس الانسان فحصوله العملية ظهور مادة محببة للحياة هي الاكسجين الذي يخرج الى الجو المحيط بديلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لونه الانسان اثناء تنفسه فهو مسئول أولا واخيرا من بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكن لا يزال يعترينا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي اكتماش الرقعة الخضراء من الارض ، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم الباحث في التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يسمج به ،





شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الافران وتناين ذرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف في هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الابحاث تحدثت عن كفاية العمال وتقول انها تقل ويسوء الاداء كلما كثر التلوث في الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه ونقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم في لندن لانه اعتبر ويحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

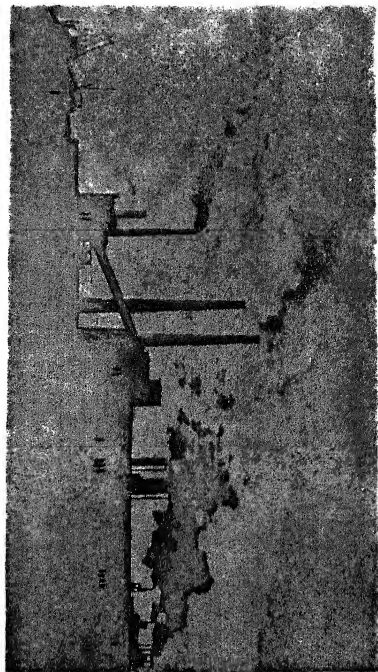
انواع التلوث

قسم التلوث الجوي الي نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبية من مركبات الكبريت الناتج عن احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكاربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو اخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني اترك الامر لاحساس القارئ وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخن وما يخرج منها ، ومن جهة اخرى لو نظرنا الى اثر حركة مرور السيارات في مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكاربوهيدرات واكاسيد الازوت في الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (ج) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (ا) ولكني ساكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي اخطر الفصيلتين .

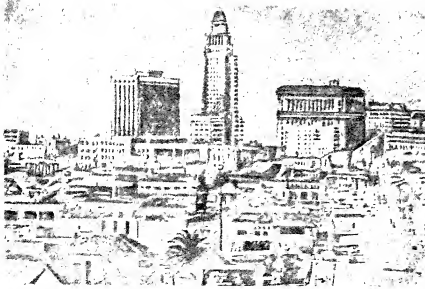
لندن والتلوث

اثبت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت في عام واحد نتيجة تلوث الجو أكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب في الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث في جوها الى ثلاثة اصناف : **جزيئات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** وبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسب اذ ين الهواء الجوي ١٠×١٥ طن ويصل مقدار التلوث الى ٨١٠ طن . وللعلم الانجليز طريقة في التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب - (١٠ - ٦م - ٢) وبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث في لندن في ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث في هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثنائي اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من الفبار والحبيبات الخشنة في السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر في جدول (٤) .

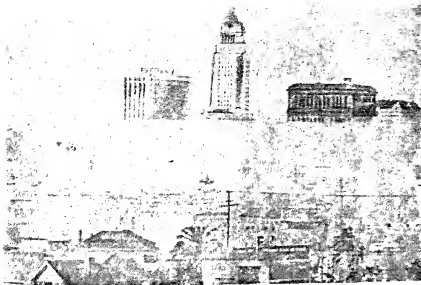


(شكل ١١)

منظر عام لمداخل الصانع وهي مستمد من مصادر التوت .



(شكل ١١)

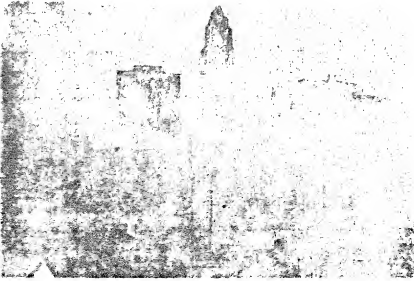


(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة نوس انجلوس .

(أ) في يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) في يوم حار ترتفع في الفجوات الملونة الى اعلى .



(شكل ١٢ ح)

(ج) في يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من أول أكسيد الكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات من حافلات الطريق . وهناك مقارنة بين التلوث في العالم ككل والتلوث في المناطق الأكثر تقدماً ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ° ٤٠ ° ٦٠ ° نراه في جدول (٧) ونلاحظ من هذا الجدول ان التلوث من ثاني أكسيد الكبريت من صنع الانسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

اصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقة جدا	جسيمات مرئية
المسوائت المنتشرة في انجلترا البعد النموذجي خواص	ثاني أكسيد الكبريت تقاس يوميا ١٠ - ٧ سم تختلط مع الهواء غير مرئية أكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ - ٤ سم تطفو في الهواء لا ترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وجسيمات خشنة تقاس شهريا ١٠ - ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحس في الانف والقصة الهوائية
المصدر	الوقود كل انشعاع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدامات المنزلية	كل ما يفضي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لها أهمية محلية	أكاسيد الازوت أول أكسيد الكربون في تراكبات واعدة المروود	رذاذ حامض كبريتيك ضباب دخان الديزل اللابخرة في الصناعة	الأتربة في الصناعة من المصنوعات من التخزين

جداول (٣)

دخان وثاني أكسيد الكبريت في ١١٠ طن

السنة	←		١٩٢٨	١٩٦٠	١٩٦٨
دخان	من الفحم	منازل	١٠٧٤	١٠٢١	٠٠٧٥
		قطارات	٠٠٢٦	٠٠٠٧	٠٠٠٩
		صناعات وغيرها	٠٠٧٥	٠٠١٩	٠٠٠٩
		مجموع	٢٠٧٥	١٠٤٧	٠٠٨٤
ثاني أكسيد الكبريت	من الفحم	منازل	١٠٢٣	٠٠٩٢	٠٠٦٠
		محطات قوى كهربائية	٠٠٤١	١٠٥٦	٢٠١١
		قطارات	٠٠٣٧	٠٠٣٦	٠٠٠١
		نقلات فحم المناجم	٠٠٣٢	٠٠١٤	٠٠٠٧
		صناعات وغيرها	١٠٣٥	١٠٢٢	٠٠٧٧
		افران كوك	٠٠٠٧	٠٠١١	٠٠٠٩
		صناعات الفاز	٠٠١٤	٠٠١٦	٠٠٠٧
		مجموع	٣٠٨١	٤٠٣٧	٣٠٧٢
	من الزيت	منازل		ضئيلة	٠٠٠١
		صناعات وسوق التجارة	٠٠٠٥	١٠١٧	٢٠٠١
		طرق وقاطرات	٠٠٠١	٠٠٠٥	٠٠٠٩
		بواخر داخلية	-	٠٠٠٤	٠٠٠٢
		مجموع	٠٠٠٦	١٠٢٦	٢٠١٣
	من الكوك	منازل ووقود بغير دخان	٠٠٠٦	٠٠١٠	٠٠١٤
		صناعات	٠٠١٨	٠٠٢٦	٠٠١٥
		مجموع	٠٠٢٤	٠٠٣٦	٠٠٢٩
		الكللي لثاني أكسيد الكبريت	٤٠١٩	٥٠٩٩	٦٠١٤

جدول (٤)

الغبار والحبيبات الخشنة في ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
موافد منزلية	٠.١٤٥	٠.١	٠.١٠
محطات قوى	٠.١٤٥	٠.٤	٠.٣٢
قطارات	٠.١٤٥	٠.١	—
فحم وكوك يستعمل في الصناعة	٢١٥	٠.٢	٠.١
المجموع	٦٥٠	٠.٨	٠.٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٠.٥	٠.٥	٠.٥
المجموع الكلي	١١٥	١.٣	١.١

جدول (٥)

اول اكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من الصناعة	٦٠
المنازل	٥٠
آلات بترولية	٦٠
آلات ديزل	٠.١
المجموع	١٧٢

جدول (٦)
التلوث من حافلات الطرق في ١١٠ طن
عام ١٩٦٨

نوع الآلة	آلات بالبترول	آلات بالبترول
أول أكسيد الكربون كربوهيدرات الدهايد أكاسيد الآزوت ثاني أكسيد الكبريت	٠.١٠ ٠.١٨ ٠.٠٣ ٠.٠٥ ٠.٠٣	٦.١ ٠.٣٠ ٠.٠١ ٠.٢١ ٠.٠٢
المجموع	٠.٣٦٣	٦.٦٤

جدول (٧)
التلوث الكلي في ١١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنع الانسان	العالم	مناطق متقدمة بين خطي عرض ٥٣.٠ ٥٩.٤
ثاني أكسيد الكربون	٥١.٠ × ٢	٤١.٠ × ٢	العالم	_____
أول أكسيد الكربون	٢١.٠ × ٢	٢٢.٠ × ٢	العالم	_____
ثاني أكسيد الكبريت	مهمل	٢١.٠ × ١	_____	مناطق متقدمة
أكاسيد الآزوت	٢١.٠ × ٢	٥.٠	_____	مناطق متقدمة
كربوهيدرات	٢١.٠ × ٣	٩.٠	العالم	_____
جسيمات	٢١.٠	٢١.٠	_____	مناطق متقدمة

التلوث في الميزان

تضاربت الآراء واصبحتنا في احتياج الى المزيد من الابحاث حتى نصل الى رأي حاسم عن مدى اثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتور **باتريك لوثي** مدير وحدة تلوث الهواء في مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويه دم اللذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلة وبغير افراط من اول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دم المعرضين لحركة المرور في لندن ولعد ساعات .

ومن الغريب اني قرأت تقريراً لرابطة المستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحاث اجريت في نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الذهني لاربعة من الشبان اثناء استنشاقهم هواء على علو ٣٧٥ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقرير عن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يرى فريق ان جملة جرعات صغيرة من اول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسعماً ، لان اثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريق آخر غير هذا الرأي ، وتسرب الشك ايضا الى ثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز في سبب موت آلاف في لندن سنة ١٩٥٢ وقد نسب السبب حينذاك الى الضباب المكثرت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة ١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط رغم تشابه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا انه قد صدر قانون انجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القرار وكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلاف الآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان اول اكسيد الكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماماً بالتلوث . وان انس لا أنسى رؤيتي من سنين مضت العديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحة كبيرة في ميناء بيريه باليونان ..

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية في اغلب بلاد العالم ، بل اصبحت ابحاث تلوث البيئة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيق للجمع لصالح الانسان والبشرية .

البَيئة والجَريمة

تشغل الجريمة في عصرنا الراهن - كما شغلت دوما في الأزمنة السالفة - بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفته خطورتها وتفاقمت جسامتها وزاد انتشارها بين افراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تبانت اتجاهاتها او اختلفت درجتها في التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، وكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقت مع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى في هذا الدول المتقدمة والآخرى النامية، لان الحال لا يتعلق بالتقدم او التخلف ، فإثر هذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور في ذاته يؤدي الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطي سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين في المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدانه في الجرائم التي برزت حديثا بشكل ملموس - لا سيما في اعقاب الحرب العالمية الثانية - وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة .

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنة وإنما قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما في الامر ان الجريمة تختلف في مفهومها وفي مدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينة وفي مكان معين . والعدوان هو الاساس في الجريمة ، بل هو الاساس في كل الافعال التي تلحق بالغير ضررا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الفرائز التي قضت حكمة الله سبحانه وتعالى إيجادها في الانسان ، تلك الفرائز التي لن تزول الا بفناء الانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه ان يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح . وفي سبيل البقاء ينشب العدوان الذي هو اساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الفريزة . واذا اردنا تقصى اسباب الجريمة والبواعث عليها لانهتينا معها الى الفرائز البدائية في الانسان . ولهذا فمن الملاحظ انه كلما تهذب غرائز الانسان قل عدوانه ، وتبعا لهذا التكمش نطاق الاجرام دون ان ينعدم .

واذا كانت الفرائز هي المحركة لكل عدوان فهي ايضا المحركة لكل دفاع في مواجهة العدوان ، ففريزة البقاء التي تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما كان في تصرفه من مساس بغيره هي بلذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان في هذا مساس بالمعنى . وهذا هو الاصل في نظرية الدفاع الشرعي ، التي تقرها التشريعات جميعا على اساس ان المحرك للدفاع المتمثل في اعتداء هو الفريزة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الانسان . ومتى كان الامر كذلك فالجريمة مرتبطة بالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة - على اية صورة كانت - غير مقبول .

والعدوان في الصورة التي عرضناها ، هو الذي يقع من فرد ، والدفاع الوجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعزل عن غيره انعزلا كاملا لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى ان الانسان وجد دائما في مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور العدوان - مع تطور المجتمعات - بدأت تتغير ، وانرها لم يعد قاصرا على من وجهت اليه افعاله ، بل أصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بان عليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لها كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيها فريزة المحافظة على بقائها - وهي ذات الفريزة التي دفعت الانسان للمحافظة على نفسه - ووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجهه اليها بطريق مباشر ام وجه الى احد افرادها فلحقها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذي يثير كثيرا من التساؤلات ، اولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة في هذا النطاق . وغاية البحث هي تعرف مدى العلاقة بين البيئة والجريمة وتأثير كل منهما في الآخر ، وقد مر ما تمثله البيئة في السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فإذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة في موطن هذا البحث :

الإنسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء في ذلك بارادته، كالأكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لارادته دخل في ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعنينا في هذا المقام النوع الأخير ولكن يهمنا بالدرجة الأولى النوع الأول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الأثر في المحيط الخارجي والتي قد تؤثر في الجماعة المنتمى إليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الإنسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات أو رغبات له ، يستوى في ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم أمرها ، أم الخافية الناشئة من انفعالات أو خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق في شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . وإذا كان الإنسان فردا في مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه في نواحيه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التغيير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لرد فعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند موافقتها لطبيعة تكوينه أو عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الإنسان تقسيما بسيطا يرتبط بعوقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، وأخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفّر منها . والنوع الأول من التصرفات ينطوي تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص - والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز - وهو الناشئ عن التكوين العضوى لجسم الإنسان . والفريق الآخر من التصرفات لارادة الإنسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل في هذه التصرفات قاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى أنه لا يتدخل في أمرها مادامت تتم في حدود النوااميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النوااميس والقواعد والنظم التي تضعها الجماعة ولا يقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل أنه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدي اليه من بقاءه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الإنسان بالواجبات التي تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمل الاساسية في بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخي بين أفرادها ، والتعاون الثمر الذى ينعكس اثره على امر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

(١) يرى بعض الباحثين أن الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الإجرامي يوجب العناية التامة بالظاهر الحقائق ، وبدلا من الاندفاع في سياسة عقابية يتعين النظر بعمق الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صفة اجتماعية وبيئية مؤثرة في السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون ماين ص ٩) .

والنوع الآخر من التصرفات يتعارض مع النوااميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضاد من الجماعة متنوع النوع والمقدار دفعا منها عن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالأسان خلق كل منهما وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل ما يهدد كيانها . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فى حركة غريزية لا ارادية لينتقى خطرا على وشك الوقوع به بتهده ، فالشان كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانها لدوء كل مامن شأنه أن يؤثر فى بقاءه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الإنسان ازاء أى خطر يتهده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أن تصرفه الغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحده اعتبارات عديدة - لعل اخصها درجة العدوان وكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودروته - اذا كان الأمر كذلك بالنسبة للأنسان فهو الحال ايضا بالنسبة الى المجتمع . فمضى كان كل خروج على نوااميسه وقواعده ونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الاثر يختلف من حالة الى اخرى وفقا لقدرة العدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحق بالجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابق كامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه واثره ، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمكن ضم بعض التصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقارب الذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مع الفكرة أتفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفرد التى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسام استنادا الى درجة رد الفعل الذى يقابل به المجتمع تلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجان جزاء تاديبى ، او قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضلا عن استهجان المجتمع للتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عن التصرف الذى يقع مخالفا لنوااميسه وقواعده ونظمه . فاذا وقعود الفعل عند مجرد الاستهجان اعتبر التصرف جريمة تاديبية ، اما ان وصل الحد الى أحد الجزاءات المنصوص عليها فى قانون العقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذا يتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقع منافية للمجتمع .

وبهذا بالقام الأول الجريمة الجنائية ، وهى النشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان او سلبا يقر له القانون عقوبة من بين العقوبات المقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما من شأنه أن يخل بأمنه ونظامه ، يستوى فى هذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، ام أن اثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قائمة بذاتها تدفع منها كل ما يهدد كيانها . وهو فى هذا السبيل ينلر بالعقاب كل من تسول له نفسه مقارفة مثل تلك الأمور ، فان أتى الفرد واحدا منها ، ورغم تحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوبات المقررة فى هذا الشأن - بالتصرف الذى يشكل جريمة جنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتأديبية ، بيد أن خطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقرير

أحدى العقوبات الجنائية . وبهذا ايضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا في التزام المشرع الجنائي والقاضي من بعده بقاعدة أن لا جريمة ولا عقوبة بغير نص في القانون . ومعنى هذا أنه ان انقضى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معيناً فعلاً معاقباً عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخدة الشخص جنائياً .

وليس بالضرورة أن تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية أو الخلقية، لأن هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين أو الأخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية في الدولة في وقت ما وظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة أو تبدلت الظروف التي استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم في ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على أن هذا القول ، وإن كان فيه جزء من الصحة فإنه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر أحد أن هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتاً لأركانها أو تحقيقاً لسياسة معينة تشدها . وهناك أيضاً من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وإن كان قد يفتقد بعض الأفراد الغاية من التحريم، كالجرائم التموينية أو جرائم الضرائب . ولكن إلى جوار هذا يوجد من الأفعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلاً عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وإن كان من بينها ما لا يعد جريمة أحياناً في قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الأخلاقية لأن نواحي المجتمع وتقاليده تأبأها . بل لقد ذهب البعض إلى اعتبار مثل هذه الأمثال جرائم طبيعية لأنها تأتي ضد الطبيعة الموجودة في المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره أثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، إذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجباً اجتماعياً ، وغيرها لا يرى في فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفاً من جانب الفرد في حرته الشخصية .

وبعينا في بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن اعضاء صفة الجريمة على نشاط معين أمر نسبي يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت إلى آخر ومن مكان إلى غيره . فمن المسلم به أن هناك من الأفعال ما يعد جريمة في دولة ما في حين أنه من الأفعال المباحة في دولة أخرى ، بل أنه في الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع في سياسته وينقله إلى قائمة الأفعال التي لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا ما بعد أن يعود إلى الجريمة مرة أخرى .

وتختلف التشريعات في تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائي فالجريمة تكون على نوع من اثنين إما جنائية أو جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثي للجرائم - الجنائية والجنحة والمخالفة - ومن بينها التشريع المصري . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لانهما البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكفئ القانون في الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائي في مرتكبها ، أى انه لا يتمثل فيه أو فيما وقع منه خطورة شديدة على المجتمع .

أما الجنايات والجنتح فانه وإن كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنتح اقل منها في هذا المقام ، إلا أن هذا لا ينفي أن اهتمامات البحث في عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الاسرار الحربية الى دولة معادية أشد خطورة في نظر المشرع من جريمة قتل تركب أخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فإن الباحث في عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الأخيرة وحدها . وإذا كانت الجنايات والجنتح لا تتساوى في أهميتها فإن هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التي لا يشعر مقارفها أحيانا بتأثير الاجرام حين يأتى أحد الافعال المكونة له سبب عدم ادراكه للفائدة التي يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ في اعتباره إلا القدر من المال الذي يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى منه مقابل محدد واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التي تحدد الجريمة التي تكون محلا للبحث ، ولا شك في أن الجريمة التي تثير الاهتمام تكون قد وصلت في المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن أن لها من العوامل ما يمتد جذوره في الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتداء اليها ، أى أن يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصالح لوقوع الجريمة ، وكان الجريمة المعنية أصبحت آفة المجتمع يستحق الجرى وراءه للقضاء عليها . ولذا فإن بعضا من الجرائم التي ترتكب بصفة عارضة تخرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهي جرائم - قلت ام كثرت - ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من أى فرد وفي أى وقت دون أن يجمعها شابط معين يمكن الاهتمام به أو البحث عن اسبابها للعمل على مكافحتها .

وإذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليدة حاجاته ، فإن تحديد الجريمة يمتد في بالدرجة التي وصلت اليها والتي تقاس باستنكار المجتمع لها - كله تقريبا وفي كل وقت - واحساسه انها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آلف البيان يوصل بالضرورة إلى أن تكون الجريمة المعنية موجودة في كل الدول ، بل هي قد توجد في دولة ولا تتوافر في غيرها . وعلى سبيل المثال إذا أردنا تطبيق المقياس السابق على الجريمة في مصر لوجدنا أن أخطرها جريمة القتل ، لا سيما ما كان منها متصلا بالثأر . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التي تنتشر في المجتمع بصورة ملمحة ، حتى حركت كثيرا من الأجهزة الباحثة وراءه . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك أحد في خطورة جرائم المواد المخدرة . وأخيرا تأخذ الجرائم التي تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التي تكون محلا للبحث ، لأنه كما يقال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعايته وتوثيره وحفظه للبلاد برجال المستقبل .

البيئة في موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة مادية نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع، وهو لا يقف منها عاجزا وإنما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . ورد فعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الاثر الظاهر لتصرف الانسان - أى الجريمة - ولا شك في انه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها، وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل في معرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فإن البحث في أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفي التخصصات . فلقد شارك في الدراسة والأبحاث فلاسفة وأطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعاً لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه في إبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال أرجع لومبروزو - الذى كان يعمل طبيباً - عامل الاجرام اساسا الى التكوين العضوى للفرد . وفضلا عن هذا فإن اختيار الانسان لطريق معين فى بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسر له الاستعانة بها ، وأقرب الأدوات اليه هو ما تمده به حياته العملية (٢) .

وإذا كان الانسان فردا فى مجتمع ، وكانت الجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما إذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) (٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة فى ارتباطها بالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن فى المجتمع نفسه، وكان ذلك فى قصته الشهيرة (Wopia) وهى مستوحاة من المدينة الفاضلة لافلاطون . ووصف توماس مور الظروف التى كانت تعيش فيها البجترات آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، وأشار الى وجوب تعرف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صور عوامل الاجرام ذكر الحروب المستمرة التى أسفرت عن المحاربين العاطلين . وقال أن العامل الأساسى يكمن فى ظروف الحالة الزراعية ، ذلك انه بعد إنتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية املاكهم الى مراعى للغنم ، وترتب على هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع فى هذه الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الثراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد إشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر منتسكيو أن المشرع الناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها أكثر منه بالعقاب عليها . وكتب روسو ان الفقر هو أهم الجرائم الكبيرة ، وأن المجرمين قلة فى ولاية

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بيناتل ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيماً حسناً . كما ذكر بكاديا أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفي كتابات بنشام نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو أن تمنع الجريمة لا أن يعاقب عليها . وعدد صورا من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمر والتي اعتبرها من الاسباب الهامة . وفي صدد الجرائم الاقتصادية بحث على معاناة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا اصبحوا مجرمين ، ولن يقدمهم عن هذا الطريق أى تهديد بالعقاب .

وبعد أن أرست الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة في الدراسات الاجتماعية ، وفي ضوءها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة في الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد أندريه جيرى في فرنسا (١٨٠٢ - ١٨٦٦) ما يسمى بالاحصاء الاخلاقي ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسكن من ناحية ، والاجرام من ناحية أخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة في فرنسا التي افصح منها ان بالمناطق الفنية اكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية - والذي ايدته فرى - حيث أكد ان الجرائم ضد الاشخاص تغلب في الاقاليم الجنوبية خلال أوقات الحر ، وأن الجرائم ضد المال تغلب في الاقاليم الشمالية أثناء فترات البرد (٥) .

وابان أولدف كاتليه (١٧٩٦ - ١٨٧٤) ثبات اية جريمة من عام الى آخر حتى في تفاصيلها . او طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التي وقعت في فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد في كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادي ، كالقتل الذي يحدث فجأة وبلاية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلية ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بان على كل مجتمع أن يعد نفسه على اساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث كاتليه أيضا بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة في الجريمة كالتهليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (١) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على اساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

(٥) ستيفانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، وأشار الى معارضة البعض لهذا الرأي حيث ان الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففي بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تعاملها الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين ان الظلام في ليالي الشتاء القويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع ايضا بوزا وبناتل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى انه لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صده على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء . وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشء من عدم استقرار الائتمان والاجور والأسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب ، ويؤدى تحسن الظروف الاقتصادية الى نقص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدى الى زيادة تلك الجرائم .

ومن أشهر المدارس في بحث عوامل الجريمة المدرسة الإيطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على ان الظواهر الاجتماعية - شأنها شأن الظواهر الطبيعية - تنشأ وتتابع وفقا لقواعد تحكمها وتربط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغي الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوى لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا في عديد من النقاط .

فلقد امتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد امتد بالظروف الاجتماعية ، وقال أن لكل جريمة أسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب ألا يؤخذ كل سبب فيها على افراد ، ومن بعد هذا امتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص اقل شراسة ، وتميزت بانواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

واعتمد فرى بالعوامل البيولوجية وأضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وانواع الجرائم المركبة . وقسم المجرمين الى خمسة انواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فرى منها تساؤل هو انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تعين مصدور الاجرام فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسعون في طريق الجريمة بينما لا يفسس غيرهم فيه ، والجيبس يخضعون لآثرات واحدة . وفي رايه ان الجريمة ظاهرة ذات اساس معقد بين عضوى ونفسى واجتماعى ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فرى عوامل الاجرام الى ثلاثة انواع اثربولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه المجرم ، أى السكان والانكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعى والمنظمات

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشريع الاجرامى اى انه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جارفالوان الجريمة نتاج هيبة شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها الشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقي العام الذي اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رايه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علائها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، ففرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير فى تقدمها شيئا لزيادة الاجرام ، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الايطالية انها حصرت اسباب الاجرام فى نوعين **اولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **وثانيهما** اسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التي يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا فى هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على اساس ان الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذي توجد فيه ، فالسلوك الاجرامى ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصى ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزءا من الوسط الاجتماعى الذي يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروها هو المجرم الذي ليست له اهمية الا من اليوم الذي يجد فيه التربة الصالحة لانباته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من العسير وضع تقسيم يحدد معالمها .

ومن اقارب هذه المدرسة لاكاساني (٨) الذي قال عبارته الشهيرة « ليس للجماعة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى ان حرارة الجو تؤدي الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدي الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريزى فى الانسان كالانتقام والطمع ، اما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاغتصاب وهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابريل تارد (٩) ان المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة اسباب نسيولوجية وطبيعية واجتماعية ، الا ان الاخرة هي الغالبة وذات الاثر الفعال فى

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجرد الإنسان الحي وإنما من شخصية الإنسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته في أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك في أن الاجرام كالشأن في كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة في التقليد ، وذلك في صور الصفة الخاصة بالصيغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخي وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كان يجري تقليد الطبقة الأرستقراطية ، أما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتل به . ويذهب تارد الى أن الفقر لا يؤدي وحده الى الجريمة ، وإنما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذي يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجد عند الفقير فإنه قد يتوافر لدى الفنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غيره من علماء مدرسة الوسط الاجتماعي في اعتبار الجريمة ولادة الظروف الاجتماعية واليها ترجع أسبابها . على أنه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية في المجتمع ، بل أنه يؤكد صفتها الاجتماعية العادية ، فهي موجودة في كل مجتمع انساني ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمع لا تحدث فيه يوميا انتهاكات لاختلافاته . ويؤدي رايه الى أنه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهي لا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافي الذي تنتمي اليه . وإنه لما كانت الجريمة ناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة في الجماعة فإن وجودها وعلاقتها بالهيكل الاجتماعي يحملان لها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فإنه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافة الغالبة في وقت ومكان محددين .

ويرى سدرلاند (١٠) - وهو من المدرسة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية - أن السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سدرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامي ، مبينا كيف تتم العملية التي تؤدي بشخص معين الى السلوك الاجرامي . وتتلخص في أن السلوك الاجرامي يُعَمَلُ ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع اشخاص آخرين في عملية اتصال ، وهو يحدث في نطاق جماعات الاشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجرامي يتضمن فن ارتكاب الجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجح له كفة الآراء التي تحيد انتهاك القوانين على كفة الآراء التي لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الاشخاص مجرمين فهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التي تقاوم الاجرام من جهة أخرى ، وأي فرد ينشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذج أخرى في صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر طول الحياة ، كما أن السلوك الانحراف الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر بدور طول الحياة . وتبدو أهمية الأسبقية من خلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختبار .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الأبحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طباعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من أساسه ، فإذا قيل أن التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، أو قبول الإعانة العامة ، أو احتراق التسول أو التشدد أو السرقة أو الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد التعطل طريقاً دون الآخر ؟ والجواب على هذا أنه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل أياً من هذه العوامل يظهر عندما تحسّن له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وإنما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة اسناد السلوك الإجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الإنسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الأنواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل اثر أكبر من غيره ، ولكن لن يتأثر منفرداً حتى يؤدى قطعاً الى سلوك معين . فإذا قلنا أن المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للأجرام فلما لا جدال فيه أن بعضاً ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، أى باختياره مؤثراً فى السلوك الإجرامى أو بغير اثر عليه . وإذا كان السلوك الإجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على أسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لا كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الإجرامى ، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات ، وعلى سبيل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يفصل بشخص الفاعل فلا شك أيضاً أنه يمكن إدراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تعاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسعاً أم نطاقاً ضيقاً ؟ أى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، أو المحيط العام الذى تجرى فيه حياته أم الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

(١١) لوردود إيست ص ٢١٩ .

(١٢) تشومب ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امرأة من متشجان حكم عليها بالسجن لمدة شهر وبدلاً من تحمل الحبس كتبت لطلبها الثلاثة وتمتعت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تعذيبها لمضى الشرف والهانة وقيمة الحياة . فإذا كتبت لطلب أن الانتحار سوف يدمر زوجها وذبح أولادها لكان الانتحار بدلاً من الهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التى حددت الطريقة .

(١٣) وقد استمر علم البيئة أساساً من علم الأحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة أن مختلف أنواع النباتات تنمو نحو التمام - كالشأن بالنسبة للمجتمعات البشرية - ولها بداية مؤقتة ثم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (يرى ص ٢٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفي عبارة أخرى هل يرد بالبيئة الدولة أو جزء منها أم المنطقة التي يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل في أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ ومما ينبغي التنويه اليه ابتداء من جميع الاتجاهات التي حاولت أن ترد الجريمة الى عوامل محددة لم تغفل وجود مساحة من اثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أي من تلك العوامل . فالعامل الجغرافي سواء تعلق بالشتاء أو الصيف لا يمكن نزعها من المجتمع الذي يعمل اثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع أننا في مجال هذه الدراسة نقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الى بيئة جغرافية وأخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة وأخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التي يعيش فيها الانسان وتعلق بالجو والفصول والرياح ، وأن اثرها بالنسبة الى الانسان ثانوي ، إلا أنه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق في الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، أي تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد في هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين اثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى أقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لاختيار الفرد منها وهي التي تتصل بالأسرة ، فالطفل ينبع المكان الذي يوجد فيه . **والقسم الثاني** هو البيئة المعارضة ومثالها المدرسة والصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، فحياة الانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقادمة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . وأخيراً **الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد في فترة المراهقة والبلوغ أو يرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل في هذا أيضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم اثرهم في السلوك الاجرامى وعلى وجه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفي سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التي تقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال إنما كان لابد وأن يوجد في جماعة معينة يعيش معها أو يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالباً ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقاً بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامى يعتبر نتيجة لمعليات انسانية ونفسية داخل الفرد فلا بد أن يكون لها جذورها في حياته السابقة ، وهذه

(١٤) راجع في هذا الصدد ستيفاني وآخرين ص ٩٢ وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ١٧ وما بعدها وهو يقول ان البيئة في المعنى الدارج لثيف الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن الشخصين يؤكّدون في تحديد البيئة على الدور الايجابي الذي يلعبه الوسط في صدد كل كائن يتحرك تحت سلطاته ، وقد ادخلهم الاجتماع الحديث في تعريفه للوسط عنصراً جديداً يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات ، ويلهب ارنست سيلج (ص ٦ و ١٨٦) الى أن الأسباب المباشرة للجريمة تتركز في عنصرين الاول البيئة والاخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتبطل تنفيذها ممكناً أو يمنع عن التنفيذ ، أما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فانها تتألف من مكونات شخصيته في الحياة .

الجلود تستوحى من السكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له في غيره . ويلزم أن يكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم أو النماذج السلوكية لترسخ في نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد في حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر في الإنسان فإنه يعتبر بيئة له ، على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دوما فلا يبرحه ، بل على العكس أن مقياسها هو درجة ما تتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة في إحدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار في نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سير الأمور الطبيعى في الحياة يمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليبس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذي قد يكون إجراميا .

وإذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فإننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهي الإحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول إلى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفي معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك في كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبدا يكون الاقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويه بما يوجه إلى الإحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر أرقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة في البيئة صورتي الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الأجرام وحجمه وعوامله وخطورته في المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على أساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة في المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة إجرامية عالية لا سيما في أطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداء بهذا الاتجاه فإن البيئة العربية سواء في جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة في الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فإن مصر ما تزال - رغم تقدم بعض الصناعات - تعتمد أساسا على الثروة الزراعية في حين أن الصناعات متقدمة في الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكان من الطبيعى أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

ويذهب بعض العلماء الى القول بان الفوارق بين الاجرام في الريف والاجرام في الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية في الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها في العلاقات بين الناس وبالتالي في الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا ان هذا التغيير يراد به ان يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج في مصر بالذات الى اجيال عدة. ويرجع هذا الى ان العماد الأساسي لغالبية الشعب في عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تفيها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسر تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لان المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآتيا نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين ان الجرائم الدموية التي يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت في الريف في العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

وبين الجدول التالي جنابات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها في محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلي :

السنة	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
المكان					
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحري	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٢٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن انه الى حوالي أربعين عاما مضت زادت جنابات القتل العمد والشروع فيه في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري ، رغم تدرجها الى خاصية النزول في كل من الوجهين البحري والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة ان تعداد سكان الوجه البحري يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تتبين من الجدول الى عادة الأثر التي ما تزال قائمة بين اهالي البلاد ، ويتضح هذا من الاحصاء الجنائي الذي يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنابات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ في بعض بلاد الحضر والريف - والذي يأتي بيانه - يتضح ان الجزء الأكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. وتتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة في البيئة .



عوامل طبيعة البيئة .

تقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقة معينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالى ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية في ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض من ناحية الياس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والأمطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية .

ولقد استلقت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة انظار الباحثين ، وقيل ان الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكم الانسان في ارادته لما يصنعه من ضيق في التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرد سريعة دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المألوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة في حدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحملة الانسان عادة فان اثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليها الخمول وقلة الحركة ، قليلا ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفي الجو البارد تنعكس الاية فتكون اعصاب الانسان اكثر هدوءا وتصرفاته اكثر اندفاعا ، بل ان البرد في حد ذاته ، اذا زامن المألوف ، يدفع الفرد الى الانزواء في الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعاً لذلك يقل الاحتكاك الذي قد يؤدي الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذي سقناه انما يخص الجرائم التي تمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الاية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهي تقل في الجو الحار وتزيد في الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل في شهور الصيف وتزيد في شهور الشتاء، ذلك ان حرارة الجو من شأنها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذي يجعل الظروف غير مواتية لارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . اما برودة الجو في الشتاء فان الليل واتكماش الناس طلبا للدفاء يتيح الفرصة للمجرمين - لا سيما اللصوص - لارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بان حرارة الجو او برودته عامل اساسي في الاجرام ، وانما قد تكون طرفا مساعدا له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدي الى الجريمة . فاذا كانت بعض الابحاث قد اثبتت زيادة الجرائم ضد الاشخاص في الصيف وزيادة الجرائم ضد الاموال في الشتاء بما يتفق مع اثر الحرارة في خط سير الجريمة ، فهناك من يقول بان الجرائم تزيد في الصيف لان الناس اكثر اتصالا في الصيف مع بعضهم ، الامر الذي يدعو لبحث ما اذا كانت الحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم يأتي بعد هذا البحث الاكراهية وهو قيام الصعوبة في وسيلة التغلب على هذا التأثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا ان جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف يعد حارا نسبيا في حين ان الشتاء متميز بالبرد نسبيا ، هذا فضلا عن ان الجو في بلاد الوجه

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نفعل في هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم للدورهم في الصيف والمبيت على اسطحهما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة في جرائم القتل اخذاً بالثار ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو اردنا ترجمة اثر حرارة الجو في ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات في مصر بالوجهين البحرى والقبلى من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائية ان جنابات القتل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة غالباً ما تقع في شهور الصيف ، كما ان نسبتها في محافظات الوجه القبلي اعلى منها في محافظات الوجه البحرى ، الا انه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الى حرارة الجو وحدها ، ذلك ان هناك من الزراعات خلال شهور يوليو واغسطس وسبتمبر ما يكون عالياً ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولا يجب ان ننسى عواقب النار وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل في المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثار هو الذى جعل جنابات القتل العمد تزيد في الوجه القبلي عنها في الوجه البحرى . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن ان يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو أو برودته ، ومما يستلفت النظر في الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية في الجو المعتدل .

ولعل أقل عوامل الطبيعة تأثيراً في وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث في اية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ومع هذا فان هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجاني لوقت ارتكابها ليلاً مما يساعده على اتمامها في الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعد عنائهم من العمل ، يعمل فيه المجرمون وهم في مأمن كبير من أعين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الامر وفقاً لموضوع الجريمة . فالجرائم التى يراد منها الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفاً خاصاً الا في صور مستثناة أبرزها القتل اخذاً بالثار أو انتقاماً ، ولهذا يستوى ان يقع في الليل أو في النهار . اما الجرائم التى يكون موضوعها الاعتداء على المال فان الجاني غالباً ما يتخذ من الليل ستاراً لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفاً مشدداً في تلك الجرائم .

وبين من الاحصائيات الجنائية في مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنابات القتل العمد والخطف تزيد نهاراً عنها ليلاً ، وأن جنابات السرقة وجنابات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلاً عنها نهاراً ، وهو امر ملاحظ بصفة مضطربة خلال الخمس سنوات السابقة . على ان هذا لا يقطع باثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الامر مغايراً لما تقدم في الثلاثينات بالنسبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلاً في السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنابات نهاراً ، ثم انه فضلاً عما تقدم فان النهار - ونقص به فترة انتشار الضوء - يطول كثيراً بالنسبة الى الليل - أى وقت الاظلام - خلال شهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغي ان يؤخذ في الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

وبعينا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة في المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر في الجانب الأكبر من اقتصادها على الإنتاج الزراعي، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة في مصر في ثلاث دورات رئيسية : الصيفي والقبلي والشتوي ، وتعتمد الأراضي الزراعية في ربحها على مياه النيل ، وإذا كان عماد الفلاح في حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى اثر الزراعة والمياه في حياة الفلاح . والزراعة في مصر قد تكون سببا مباشر للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهىء لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصرى يحرص على زراعته حرصه على حياته، وإى ضرر أو اذى يصيبها انما يصيبه في قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح تمثل في قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها والحياة التى تستخدم في ربحها . والرقعة الزراعية في مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منها يحرص ويتفانى في المحافظة عليه ، وإى مساس بالأرض التى يزرعها يدفع به الى حمايتها لدرجة ارتكاب اخطر الجرائم : ويتمثل ذلك المساس في صورة من اثنتين الأولى منهما محاولة من جانب المالك أو نحوه رفع يده عن أرضه لآى سبب من الأسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الأخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضي الزراعية ، وضم بعض الأرض الى الجزء من الأرض الذى يحوزه .

أما بالنسبة الى مياه الري فانه الى ما قبل اقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل . حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح رى أرضه في يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذى تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الري على البلاد في فترات محددة، في خلال تلك الفترات التى كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التزاحم بين الفلاحين حول أسقية الري ، ومن الطبيعى أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهام الذى قد يتطور الى معارك تنشأ عنها اخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائم لأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الإيجار أو المزارعة ، أو طرد مستأجر من أرضه ، أو توقيع حيازات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام أدوات الزراعة أو أدوات الري كآلات الميكانيكية أو أدوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التى تستخدم في الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالاضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهىء للجرائم، ففى شهور الصيف على وجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعداد لأنواع أخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

قد سبق القول بأن حرارة الجو في شهور الصيف من عوامل الإجرام فإن الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففي شهر مايو يكون حصد القمح ووضعه في الأجران تمهيدا لعملية فصل حبه عن قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئذ لارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منها انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيث يتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت في الأجران أثناء جمع المحاصيل . وفي شهر مايو أيضا تكون شجيرات القطن قد أخذت تكسو الأرض ويكون أشد ما يصيب الفلاح انلافها انتقاما . وفي أغسطس وسبتمبر يجنى القطن ويحصد الدرة ، مما يسفر عن ارتكاب أخطر جرائم السرقات بالنسبة إلى محصول القطن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجة للمقاومة . وفي فترات بلد البلدور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدي إلى أخطر الجرائم ، فبلد الدرة الشامي في سبتمبر وبلد القمح والفول والبرسيم في أكتوبر . ومما يلاحظ أيضا أن الدرة الصيفية خلال يونيو ويوليو وأغسطس تكون متكاثفة الأعواد طويلة السيقان ، ويقابلها في موسم الشتاء زراعة القصب الذي يفرس في مارس وأبريل ويحصد في ديسمبر في الوجه القبلي . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاء بها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما أن هذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالي صورة عن جنابات الحريق العمد خلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣

و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	إجمالي الجرائم	وقت الجريمة		الانتهام	أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا		١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٢٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	أبريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يوليو	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارس

وأعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمستغفلين بالأعمال الزراعية والصيد في البحر والبر وأعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم أصحاب الحرف والصناعة والعمال والمستغفلين في عملية الانتاج والفلة والعاملين ، والذين لم يصنفوا في مكان آخر .

يتضح من الجدول آلاف البيان أن صور جريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثاني أو الثالث ، وأن موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثاني ، وأن الجريمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، الأمر الذي يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وإنتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جنابة ائلاف المزروعات وفق الجدول التالي :

السنة	مجموع الجنائيات	وقت الجريمة		الانتماء		أعلى شهور السنة تنازليا		
		ليلا	نهارا	مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	-	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يوليو	أبريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم ائلاف المزروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم من المشتغلين بالأعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية ، والجزء الأكبر من جنابات ائلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادرا أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الأرض الزراعية ، وما يتركه من اثر في الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وأفرخ نوعا معينا من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقد تركزت جنابات الخطف في مصر في محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج وقتنا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف أفرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم في تلك الجرائم من البالغين ، وتتراوح الفدية للأفراج عن المخطوف بين مائة وألف جنيه . وقد ساعدت أنواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالمصبات الموسمية حيث توجد في مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واخفاء المجنى عليهم في تلك الزراعات ، كزراعات القصب في محافظة قنا وزراعات الدرة في محافظة أسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التي تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية في ارتكاب جرائم الخطف ، ويمتصمون بالجبال حيث يقيمون إقامة دائمة . وهي تتركز في محافظتي أسيوط وسوهاج . ويحول مكان إقامتهم

دون وصول رجال الشرطة اليهم، بسبب وجود المغارات والدروب التي يجعلونها ، والتي يعتصم بها المجرمون ويقيمون في أعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من امكانهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشق الاصلى في الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشق الثانى ، أى الجريمة حسبما وقعت في المحيط الخارجى، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى ان ظروف البيئة هي التي تهىء السلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجة انه يمكن القول بان تغير الظروف من شأنه ان يؤدي بدوره الى تغير السلوك الانسانى سواء في هذا اكان سلوكا حميدا او سلوكا غير قويم . والانسان في هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعت في الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، او لا تصادف هذه التربة فتتساقط معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملائمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة او مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

واعمال القاعدة آتفة البيان لا بد وان ينتهي بنا الى ان الانسان لو شاء له قدره ان يسلك سبيل الجريمة فان اختبار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذى يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالاعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون في نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال جرائم اطلاق المرووعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهبت جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته في غالب الاحيان سرقة مال مخدومه .

ومما يتصل بالبيئة في صدد تحديد السلوك الاجرامى الذى يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بهذا طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية ام صحراوية او مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم، عن امين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لقرهم . وقد لاحظنا ان جريمة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز في المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

(٢٠) ومن بين تلك الصناعات عصابة الخطف في اسبوط سنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الاممى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد الصميدى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (الرجع السابق ص ٢٩) .

(٢١) فعلى ما سبق القول ولت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف في الجبال عنها في السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيفاني وليغاسير ص ٨٠) .

وإذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون في وادى النيل - أى في الأرض الزراعية على شاطئى النيل - والجرائم التي ترتكب من بعض أفرادها إما أن تتسم بطابع الريف أو تكون من جرائم الحضر ، فإنه إلى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون في الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطئ البحيرات الواقعة في شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التي ترتكب فيها . وآية هذا دراسة عن سمات الجريمة في محافظة البحيرة وأخرى لسمات الجريمة في بحيرة المنزلة .

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بأنها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الأبيض المتوسط ، وأخرى زراعية تتصل بباقي الأراضي الزراعية الدنيا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية أخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الأراضي القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومريوط . ومن الطبيعي أن يترتب على هذه الطبيعة المختلفة في جغرافية الأرض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم عن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفة التي قامت في هذه المنطقة .

وعينينا في محافظة البحيرة الإقليم الصحراوي منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهم الفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون في مكان وإن كانوا يتمسكون دوماً بانتسابهم القبلي وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدمهم عن أجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلي والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقراء الحوادث في تلك البيئة الصحراوية (٢٣) أن جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها إلى السرقة أو النارا أو النزاع الطارىء أو النزاع على الأرض ، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الأراضي الصحراوية وزراعتها مما دعا إلى تهجير عديد من الأفراد وعمل الترحيل إليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وأدى هذا إلى ازدياد مستمر في معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى إلى الموت والذي ينشأ عنه عاهة مستديمة والسرقا بالاكراه والحرق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحا في جغرافية محافظة البحيرة هي جنابات سرقات الأسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنابات عام ١٩٧١ وأصبحت ١٥ جنابة عام ١٩٧٢ و ٢٠ جنابة عام ١٩٧٣ ثم نقصت إلى ٥ جنابات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم إلى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة في مناطق

(٢٢) عبد العزيز محمد القطني ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطني ص ٤١ .

غير أهله بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليها بالامكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها في توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو ان جغرافية المحافظة على وجه خاص في صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، وبين هذا يوضح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات في محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبني سويف والمنيا خلال عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

السنة	١٩٧٣	١٩٧٤
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بني سويف	٤١	٣٨
المنيا	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦٢

والمثال الثاني لآثر البيئة في السلوك الاجرامي يتضح من دراسة سمات الجريمة في بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التي تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل في حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمنياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة في الاراضي المحيطة بالبحيرة في حزام عريض يغطي الماء على شاطئ البحيرة ومثبتة في القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من انواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامي بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشأن بالنسبة لاسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضروري ان تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب اغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة في باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء المجرى عليه في الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتي لا يمكن حصرها او كشفها بسبب حجبها بالبحايش والنباتات المائية ، وتجعل من السير الوصول اليها . ولذلك السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المرسوقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخلقية حيث يسهل تهئية المكان لها في البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطي المخدرات ، وخطر الجرائم التي ترتكب

في البحيرة هي جرائم التهريب سواء كان موضوعها الأسلحة والدخائر أو المخدرات أو المحصولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن أبرز الجرائم كذلك ما يخالف أحكام قوانين الصيد وتراخيص الوحدات المائية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصفات القياس والطول واستعمال مركب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص. ومن أهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفة عصابات مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمة للبحيرة ، ثم إخفائها في الجزر داخل البحيرة حتى لا يسهل الوصول إليها . ويبين هذا من الجدول التالي الذى يبين جنح سرقة المواشى في مركز المنزلة بالنسبة الى جملة الجنح به خلال المدة من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشى	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافى لبحيرة المنزلة اثره في السلوك الاجرامى والحد من قدرة رجال الامن على مكافحته ، حيث يساعد هذا الموقع على صعوبة الوصول اليها وخاصة في فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية الى هناك ، وكثرة الأمطار والأحوال التى كثيرا ما تعرق عمل رجال الحفظ عن مطاردة المجرمين والقيام بالدوريات ، فضلا عن انعدام الوسائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائى ، الامر الذى يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد اسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتها الجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالى في معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ، وقد لا تفى بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذى لا يقف حائلا امام النزعات الاجرامية للفرد ، وآية هذا ان غالبية المحكوم عليهم في القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧) .

وتركزت عوامل الاجرام في بحيرة المنزلة حول عوامل ساعدت عليها البيئة الجغرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرة التى يقع بها اربعمائة وخمسون جزيرة أهلة

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢٨) للمرجع السابق ص ٦٢ .

بالسكان ، يتنافس الأهالي فيها على وضع اليد على تلك الجزر واستغلالها استغلالاً غير مشروع ، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه ، هذا بالإضافة إلى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة وإخفاء المروقات واختفاء الأشقياء .

ولا شك في أن الموقع الجغرافي لحدود الدولة يساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال في الجمهورية العربية الليبية تقع محافظة غريان في الجنوب الغربي من الجمهورية ، وتستترك في حدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيها جريمة التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعي . فاعتمد البعض إلى اتخاذ التجارة في السلع المهربة مورداً لهم ، خصوصاً بالنسبة إلى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس إلى آخره . وهم يستخدمون في ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب في المناطق الجبلية . ومن ناحية أخرى فإن توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢ ، بشأن دخول البلاد . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن منافذ الخروج أو الدخول إلى البلاد تكون محلاً لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقع جرائم جلب المواد المخدرة عن طريق الموانئ والمطارات (٢٦) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا في أكثر من مناسبة أن الإنسان كائن حي يتفاعل مع الوسط الذي يوجد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائماً أن كل مجموعة من الأفراد توجد في مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سلوك أفرادها بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر في نفوسهم - ومن قبلهم أصولهم - من مجابهة مختلف مشغول الحياة تصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها لتقائماً دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطريق الذي ينبغي سلوكه . ولا شك في اختلاف كل بيئة عن الأخرى في بعض ظروفها وتبعاً لطريق سلوكها ، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على أن هذا لا يمنع من التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد في السمات الأساسية لكل منها .

وإبرز أنواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس أثره على سمات الاجرام في الريف وفي المدن ، بسبب التقاليد الراسخة في الريف والصيغة المادية التي يتسم بها السلوك في المدن (٢٧) . هذا بالإضافة إلى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التي تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القسرية والمدنية أثرها في جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٢٦) منصور غيث قنديل ، وقد أورد أن جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ في طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفي بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٢٧) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن القصد بالبيئة في موطن البحث .

الثار المتأصلة في نفس أهل الريف ، وكذلك فيما يتسم به اجرام المرأة والأحداث في كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين في الغرب الى تأييد التفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضر سواء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابع الاجرام في الريف هو الاعتداء على الأشخاص في حين ان طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ، فضلاً عن الوسائل المستخدمة في طريقة تنفيذ الجريمة في كل من المنطقتين . ويقف بعض العلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة على ذلك (٢١)

ان الحياة في القرية المصرية تختلف عن الحياة في المدينة اختلافاً كلياً ويرجع هذا في أساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففي القرية المصرية يسيطر على العلاقات بين أفرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقة بين عائلاتها والمصالح المشتركة التي تجمعهم وطبيعة الحياة التي يعيشونها ، ولعلنا نلاحظ هذا في تضايف أبناء القرية نحو أى خطب يقع بواحد منهم . أما في المدينة فالأمر على خلاف ذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين أفرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلة الواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس في المدينة وهنت العلاقات والاتصالات . هذا من ناحية ، وإلى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام في التفرقة ، فلا شك ان نسبة الجهل التي تسود مجتمع القرية أكبر بكثير من نسبتها في المدينة ومن أجل هذا كانت هناك سمات تميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام في الريف تختلف عنه في المدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية في حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففي القرية نادراً ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادى ، وذلك بسبب التضامن بين أفرادها مما لا يجعل للحاجة الملحة وجوداً ، ولأن الفلاح بطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فان الاجرام في الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائماً الأشخاص كالقتل والضرب ، وهو وان وقع في بعض الأحوال على المال فلا يكون الفرض منه الكسب المادى . وفي المدينة - حيث لا روابط ولا تقاليد - يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وان اعوزه المال فقد يلجأ الى الجريمة وهدفه الحصول عليه وتدفعه الغريبات الشديدة في المدينة وسائر وسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

وإذا كانت عواصم المحافظات في مصر تدخل في حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلاد المركز فان الإحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام في الريف والمدن .

(٢١) ستيغاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لقياس التفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية المتحضرة ، وفواحي المدينة والمناطق القامية خارجها ، وتقسيمات المدينة في ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبناتل ص ٩٢ وما بعدها .

عدد جنائيات القتل والشروع فيه في بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
اسم الجهة							
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر أسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز أسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

وبين من هذا الجدول ان جنائيات القتل والشروع فيه هي في المراكز دائما - سواء في الوجه البحري ام في الوجه القبلي - وهي اقل منها في البنادر ، بل ان الحد الأدنى دائما في المراكز اقل من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر . ولم تنفر النتيجة بالنسبة الى الدراسة التي اجريت (٣٢) عن توزيع الجنائيات والجنح في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية سنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف نسمة من
السكان في جرائم الجنائيات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية في مصر عام ١٩٤٧

انواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١٢٨	١٧٥٠
ضرب افضى الى موت	٩٦	١٦١
ضرب نشأت منه عاهة	٧٥٠	٨٥٠
سرقه وشروع	٨٨٦	٦٢٠
حريق واتلاف وتسميم مواشى	٢٨٤	٩٢
نشق وهتك عرض	٣٧٢	٦٥
رشوة وتزوير	٦٣٤	١٦٥
عود	٨٧٠	١٤٧

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف من السكان
من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية
وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٣٨٦	٢٨٠
هتك مرض وفعل فاضح	٤٥٦	٠٣٧
سرقة	١٠٤٥٦	١٩٩٠٧
نصب وخيانة أمانة	١٣٩٢٦	٧٠٥٩
تسميم مواشي	٠٥٠	١١١
اتلاف مزروعات	١٩٤	١٧٤٣
تشرذ	١٥٤٧٢	١٥٥٨
رشوة	٤٤٦	٠٧٥

وهذا إضاميين من بعض الجنائيات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنائيات

نوع الجريمة	قتل	غرب	غرب	سرقة	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	غدرات
البندر والمركز	وشروع	لموت	للماعة	وشروع						
البندر	٦٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنح

الجريمة	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اتلاف مزروعات	تشرذ
البندر والمركز						
البندر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنائيات في البنادر والمراكز البيان التالي :

الجريمة	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمد
البندر أو المركز			
المراكز	١٢٤	١١	٧
البندر	٤٣	١١	٤

والبيانات آتفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغاب عليها جرائم الاعتداء على الاشخاص ، وأن سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة من المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٢) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين . لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنائيات لمجموع الجرائم المرتكبة من اهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجنى من اهل الريف اقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد النفس وهي الجرائم التي تنسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فجرائم القتل والضرب المفضى الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ في القطاع الحضري . ومعنى ذلك ان هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضري تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد النفس . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة اعلى منها في المناطق الريفية ٦٠ ٪ من العينة يقيمون في احياء شعبية . ٢٨٥ ٪ يقيمون في احياء متوسطة ، و ١١٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في احياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والكوجينة وغيرهم ممن تحتّم عليهم الإقامة في هذه الأحياء . وقد قسمت الأحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة في هذه الأحياء ومن الواضح ان الأمية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الأحياء الشعبية عن غيرها من الأحياء ، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . ان ٢٨٥ ٪ من مجموع افراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١٥ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى ان المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري . وتبين ان هذا التباين بالإضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد ادى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه ان تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين اعلى منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين ان الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالإضافة الى صعوبات كثيرة في الوطن الاصل ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع أسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الأحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى ان ٩٢ ٪ من مجموع مهاجري العينة قد أقاموا

وبين الجدول التالي ما يتميز به اجرام المدن الكبيرة من الطابع المادي عن غيره من المدن أو الريف . ويتضمن جبايات تزييف المسكوكات وتزوير الأوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضم محافظات الوجه البحرى فى مجموعة ومحافظات الوجه القبلى فى مجموعة أخرى .

هذا وتكشف الإحصائيات بسبب المادية التي تطفئ على حياة المدينة والإمكانات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد في جنابات الرشوة والاختلاس . وكذلك الشأن بالنسبة للجرائم التي تتعلق بالأداب العامة ، فالحية في المدينة كثيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم أكثر وقوعا عواما ، أما في الريف فنظرا للتقاليد الرميية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عوامس المحافظة ، وهو في الوجهة القليلة أقل عددا منه في الوجهة البحري ، كما يبين من الجدول التالي عن إحصاء الامن العام لسنة ١٩٥٢ .

1.2

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة في الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنابات القتل بكل محافظة مرتفعة في القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة في باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ في القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٢٣٪ والغربية ١٧٪ والدقهلية ٢٤٪ والقليوبية ٣٨٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٢٦٪ . وقد لوحظ ان اسوان ١٢٥٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنابات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنابات قتل الاطفال اثنان فقط .

ويتربط على التضامن الاسري الموجود في الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد في القرية الا نادرا ، وتتركز في المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفي الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد في المدن - لاسيما الكبيرة منها - فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما نقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	الجيزة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	اسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	اسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية في الريف يجعل انحراف الحدث وسيره في تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . وبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي :-

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام في مصر :

١ - ان محافظات المدن تتميز من غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية في جنابات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزوير المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ - في محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنابات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنابات القتل في محافظتي الشرقية والقليوبية وجنابات السرقة في محافظة الشرقية وحدها .

٣ - في محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنابات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام سنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل في الوجه القبلي فالحال لم يتغير ابدا الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام في الريف عنه في المدن ببلادنا ، لما هم مدون من بسط التقدم الحضاري في بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنابات القتل والشروع فيه لكل

عشرة آلاف نفس في السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،

١٩٣٣ في بعض مديريات مصر

اسم المديرية السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢٠٤	٢٦٠	٢٦٥
الجيزة	١٤٢	١٤٧	١٢٢
الغربية	١٤٨	١٦٨	١٥٩
المنوفية	١٢٣	١٣٥	١٤٦
الشرقية	١٠٧	١٤٠	١٧٧
الدقهلية	٨٧	٨٨	٨٣
بني سويف	٢٦٧	٣٤٤	٣٨٦
الفيوم	٣١٢	٣٦٢	٤٠٢
المنيا	٢٣٨	٢٥٩	٢٥٩
اسيوط	٤٤٣	٣٠٥	٣٥٥
جرجا	١٦٠	٢٠٢	٢٢٢
قنا	٨٨	٧٧	٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة أدى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادي ، فان هناك تفرقة اخرى مرتبطة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة في ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجري تنفيذها بوسائل

تتسم بالعنف والتسوة وتمثل انعكاسا لفريرة العدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف انواعها ، او بالآلات الحادة التي يستخدمها الفلاحون أساسا في أعمالهم اليومية كالفأس وما إليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلة دون أن يتنبه إليها المجرى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب في المدينة فلا تحتاج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاه المجرم الذي يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الأشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الاحصائيات الجنائية عن أن غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة النارية والآلات الحادة ، في حين أن جرائم القتل تنتشر في المدن والاماكن المزدحمة والسرقات من المساكن في غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالسرور والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالإضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى أنها لا تشعر بالآثم حين مقارنتها . ومن هذه الظاهرة ما يشاهد في تجارة المخدرات ، حيث يقوم أفراد جماعة معينة - وعلى ما هو معروف - باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبر الخروج عنها جرما في حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذي تراه في مواجهته .

على أن أخطر التقاليد الموجودة في البيئة المصرية هو ما كان متعلقا بالثأر (٢٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن أكثر الجرائم وقوعا في الريف هو ما كان موجها ضد الأشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضي الى الموت والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديرة . وتأتي بعد هذا جرائم أتلان المزروعات والحريق ولا تكون مبالين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الأساسي وراء الاجرام في الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفي قوة العقيدة . فأخذنا من الاحصائيات بكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نمنى بهذا أن الجهل يؤدي الى الاجرام ، وانما المراد هو أنه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح في الريف يعيش أسيرا للتقاليد والمعتقدات التي أصبحت راسخة في نفسه ولا قوة أعلى من القانون .

وفكرة الثأر تتمثل في أن الاعتداء الذي يقع على فرد في الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازي الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعي كذلك أن تقع إحدى جرائم القتل فيبلغ منها ولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٢٤) احمد أبو زيد - الثأر - دراسة انثروبولوجية بأحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلام الطرفين - أهل القتل وأهل القتال - يدري بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القتل تمنح الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القتال تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع أن الثار ما يزال متوارثاً في بعض العائلات من عشرات السنين .

والثار تقاليد المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الاخذ بالثار ، بل أن من يكون موضوعاً له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز أن يكون موضوعاً لها الأطفال ، وما كانت تقام المآثم الا اذا تم الاخذ بالثار ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٢٥) حكم فيه بالإدانة ، حيث لم يشاهد القتال أهدقت ارتكاب فعلته ، ولكن في اليوم التالي للجريمة اقيم المآثم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى رأسه ورفع القناع عن وجهه ، واذا درست المحكمة قانون الثار وفقاً للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجاني لفعلته .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثار قصص البطولة التي تحكى في مختلف المناسبات ، وتصور الامر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الاخذ بالثار قائماً مهما امتد الوقت ولولعدة سنوات . والاعتقاد السائد أن روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد أهل القتل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة أن تتدخل في الامر لان الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثار لدى الفلاحين ، أن وجد فريق من المجرمين الذي احترقوا الاجرام الانتقامي وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القتيل من يتمكن من الاخذ بالثار لصغر السن مثلاً ، فتلجأ الأسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يشير جدال اخطر انواع الاجرام ، ولا شك في أن الجهل هو الذي يوصل الى هذه الحالة حيث أبقي كثيراً من المعتقدات سائدة في اوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جزاء له الا القتل أما أحكام المحاكم دون الإعدام - ولو بالاشغال الشاقة المؤبدة - فانها لا ترضى لمشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية أخرى فإن استخدام الاشقياء يبعد عن أهل المجنى عليه من فرض الانهاك ، إذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفاً ، كما أن الاشقياء أنفسهم يحترفون اعداد ادلة النفي قبل اقدمهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا أن نسبة كبيرة من جنائيات القتل والشروع فيه ينتهي فيها الامر باصدار قرار بأن لا وجه لاقامة الدوى .

وقد غنيت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التي يكون الدافع اليها الثار ، فبمراجعة الجداول الخاصة ببواصت ارتكاب جنائيات القتل تبين أن الغالبية منها كما يلي : -

الانتقام والثار ، رفع العار ، استفساز ، نزاع على حد أرض . وإذا استعرضنا في ذاكرتنا تاريخ القضاء المصري لوجدنا أن هذه البواصت كانت غالبية دائماً . ويؤيد هذا أن جنائيات القتل

التي وقعت مع سبق الاصرار والترصد كانت اعلى مما وقع منها بدون سبق اصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطور في اساليب الحياة في مصر الا ان التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة في كثير من النواحي . واكثر من هذا ما زالت الوسائل المستعملة في جريمة القتل على ما هي عليه . الاسلحة النارية الآلات الحادة ، الخنق ، العصا الخ .

جدول خاص بالبواحد لجريمة القتل

السنة / الباعث	الثأر	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد أرض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام أحيانا مختلطا بالثأر .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر بدراسة لظاهرة الجريمة في قرية طهواي (٣٦) ، حيث تبين أن سكان القرية تتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان . ويعيش جميع افراد مجتمع الفجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشية ، والسرقة بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا من جيل ، ولا يخرجون من ذكر أنهم يحترفون السرقة ، وهم يحترفون السرقة دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التي يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقة بالتنشئة الاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقة كان نتيجة لضغط الأسر عليهم ، وأن ممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) من المبررات شخصيا أو في نطاق الأسرة ، ويتميز مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الأفراد ، حيث أنهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذا ما قبض على احدهم أو أودع السجن فانهم يقدمون له ولاسرته العون سواء كان في صورة عينية أو مالية .

البيئة واجرام المرأة :

انه وان كان اجرام المرأة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل - كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية - الا ان علاقة البيئة باجرام المرأة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم أن كثيراً من نشاط المرأة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظراً لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل ان طبيعة المرأة ووضعها فى الأسرة العربية يجعل اجرامها ودواما مما يتسم بالجبن والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الأمر فى كثير من وقائعه الى قيده ضد مجهول .

ووضع المرأة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم اجرامها أقل بكثير من حجم اجرام الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة أو كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا امر لا يختلف فيه الدول العربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ ان عدد المتهمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجال و ١١١ من النساء .

وإذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المرأة كائنات ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئة التى تعيش فيها ، فالمرأة أقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى ان حجم اجرام المرأة لا ينبغي ان يتعدى نصف حجم اجرام الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية أن الجرائم التى ترتكبها المرأة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل ان جريمة القتل غالباً ما يستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله سبحانه وتعالى المرأة لتكون اما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الخنان والرحمة والشفقة مما يمتشى مع رسالتها ، وهو ما يتناقى مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها أى معنى من هذه المعاني ، فان هي أقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان اجرامها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد أن الظروف الاجتماعية ومكانة المرأة من الأسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المرأة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينية والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمة تأمينا لمستقبلها .

والمرأة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء أكان أباً أو أخاً أو زوجاً أو أى عائل آخر ، بل أن كثيراً من الرجال يابون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد أدى هذا الى بعد المرأة عن الاحتكاك بالناس ، وأصبحت أكثر ميلاً للعزلة ، مما يعيدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى ان المرأة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتماداً كلياً . اما فى المدينة فانه وان كانت المرأة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس ، الا انها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل ان الملاحظ هو ان غالبية العظمى من النساء المجرمات من الأميات ، أى انه كلما تعلمت المرأة

وتتقفت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية في مايو ١٩٥٩ الذي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (٣٧) أن أغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشتغلن بأى مهنة أو عمل ، وأن هذا لا يخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجى فى المجتمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل إجرامها متميزاً عن إجرام الرجل، وأنه وإن كانت تنقصنا الإحصائيات الخاصة بالمرأة فإننا نحاول أن نحيط بصورته على قدر الإحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الإحصائيات هو أن نسبة الجنائيات التى تقع من المرأة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الأشخاص ، أى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المرأة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب افضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، أى أن جملة جرائم الاعتداء على الأشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنائيات . وإذا أردنا تحليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الأول منهما هو أن المرأة فى غالب الأحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها ، أما إجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى اتصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة أن فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والاخر يتمثل فى بائس المرأة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تركز له كل جهودها ، فإذا قام فى سبيله عائق فإنها تزيحه عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المرأة بالريف جعلت أخطر دوافعها للجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الفرية ، ذلك أنها بمجرد أن تنتقل الى منزل الزوجية ترى أنه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وأنها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فإن أى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقاءها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب أشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غير المرأة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لآى سبب من الاسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع أن تصب غضبها على زوجها لأنها فى قرارة نفسها تعتقد أنه يستعمل حقاً مشروعا له فضلا عن انها فى حقيقتها ليس بمقدورها أن توجه إجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المرأة الدخيلة على حياتها وتبقى صورها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنها بسبب عدم أنجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه إجرامها للصغير للتخلص منه ، وأحيانا قد تدفع المرأة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما أحست أنه قد ينصرف عنها الى الزواج من

أخرى . ويندر في مصر أن ترتكب المرأة جريمة القتل لأسباب عاطفية ، كصورة تخلى الشخص عنها وانصرفه الى غيرها لأن التقاليد ما زالت لا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الأسباب العاطفية ان دفعت الى المساس بالحياة فانما يكون هذا في صورة انتحار .

وإذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدها في ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المرأة لا تختلف من الرجل في هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المرأة فيها دورا هاما تحت تأثير عادة الثار ، سواء بنفسها أو بتلقيها اياها لأطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المرأة أحيانا الجريمة ضد النفس تجنباً للفضيحة في البيئة كما في حالة جريمتي الإجهاض وقتل المولودة حيث أن الحمل سفاحا يمثل عيبا خطيرا هو في الريف أشد منه في المدن ، حيث تعرف الفتاة أن جزاءها اذا ما كشفت أمرها لن يكون الا اذهاق روحها ، لا سيما وأن سبيل اخفاء أمرها ليس بالامر السهل حيث لا توجد أماكن لايواء اللقطاء ، كما هو الحال في المدن - وقد تقارف المرأة الجريمة قتلا دفاعا عن العرض وذلك أن تفريط المرأة عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الى ازالته الا بقتلها ، وقد تاصلت هذه التقاليد في نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أن الأم تغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الأم أمها أو الأخت أختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن في صدد بحث الجريمة وعلاقتها بالبيئة أن ننفلل اثر العامل الاقتصادي في هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتها تتلون ظروفها وقفا لسلوك أفرادها ووفقا لاقتصادياتها ، وأنه وإن كان العامل الاقتصادي من أدق وأهم ما تتصل به الظاهرة الإجرامية ، وهو في حاجة للدراسة مستفيضة مستقلة ، الا أننا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر في البيئة وقتيا في السلوك الإجرامى فلا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الأقل بالنسبة الى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادي صدها على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الدكاء ، وعدم الاستقرار الاقتصادي الناشئ عن عدم استقرار الائمان والاجور والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل إيجاد حل لها . فبينما تحديد المراد بالعوامل الاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الى الموضوع الذى تتعلق به أو بالنسبة الى وقت حدوثها ، وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبة الى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولة كلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتمد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلة مناسبة . ثم أخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفترات الإزمات وأوقات الرخاء (٢٨) وبالإضافة الى ما تقدم فإن جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الإحصائيات الجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، وأخصها جرائم دوى الياقات البيضاء أو جرائم الخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتعكس آثارها عليها .

ولقد أصبح الشائع ربط الجريمة من الناحية الاقتصادية بالفقر (٢٩) ، ولكن هل يؤدى الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصود بالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين من الطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقير هو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر ، فيكاد لا يوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعى الموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الإنسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ، وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . وإذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه من الفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فإذا قيل بأن الإنسان الفقير هو من لا يوجد لديه ما يفي باحتياجاته لكانت المسألة نسبة تختلف من حالة الى أخرى ، ومن ثم لا يمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الإجرامى . . . ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناك دليل على وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا أنه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأن مؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وإن كانوا لم يدخلوا السجن بعد فإنهم فى الطريق اليه ، حقيقة أن بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وإن لم يدخلوا السجن ؟

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالإجرام فى صلتها بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر أن يوصل الى عوامل أخرى كثيرة متداخلة فى التكوين الاجتماعى ، وهى التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائم الأموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات أكثر من الحاجات الاقتصادية التى تؤدى الى السلوك الإجرامى . والفقر فى المدينة الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الإيجار المنخفض ، حيث يعزل الناس الى درجة يعتقد بها عن النماذج المعادية للإجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذج السلوك الإجرامى . والفقر بوجه عام يعنى مركزا

(٢٨) راجع اثر الإزمات الاقتصادية والرواح الاقتصادي ستيغليز وآخرين ص ٨٧

(٢٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقة الاجتماعية والإجرام (جون كلارك وآخرين ص ٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام أو ما يخشى عليه من الضياع أما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة أفضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفًا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعنى ان الوالدين يبعدان عن المنزل خلال اغلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام ايضا ان الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولاً يمنحه فرصة التقدم الاقتصادي . وقد يصحب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المصاحبات .

وعرض برنس (٤٠) الى ان الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى انه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها اكبر وقوعا في اوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة اقل لديهم ؟ او ان هناك جرثومة اجرامية اسهل انتشارا في هذه الاوساط عن الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا؟ وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في اوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى ان الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه في الجماعات التارفة . وباختصار فان هذا يعنى انه اذا عرض فرد الى مؤثرات اكثر اجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون اكبر . ويرى برنس (٤١) ان اعتبار الجريمة اكثر وقوعا في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوته للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة اجريت سنة ١٩٦٧ ثبت ان المذنبين الصفار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وان الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى اخرى . ومع هذا فالتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهور الجريمة ومداه في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي اجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة - رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات - قدوصلت الى نتائج متضاربة . ففي احدى الدراسات وجد ان معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع انهم من أسر كانت في فقر اشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف ... وفي دراسة اخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد اشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية وفي إنجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

في المجتمع المصري - لاسيما المجتمع الريفي- لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة في هذه الحالة (٤٢) . وفي اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر أو غيرها . ولقد ثبت في دراسة بأمريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون في فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة في مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في مصر اذ جاء به انه من المؤكد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك في توجيه الحدث نحو السوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشي للأسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخذ به الأسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه أسرة الحدث بحكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي اجريت في هذا المجال . ففي دراسة عن اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط افراد مجموعة الاحداث جامعي الانقلاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للأسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للانفاق على الأسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كان متوسط الانسبة منخفضا في المجموعة الاولى عنها في المجموعة الثانية ، وفي بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة في مستوى منخفض جدا .

ولا بد لنا من التسليم بان للعوامل الاقتصادية اثرها في الظاهرة الاجرامية سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثير سبب الاجرام بالعوامل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولا نهامتشابكة يؤثر بعضها في البعض الاخر ، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لها . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قد تؤثر بدورها في العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهيئ لتأثيره في ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهوامر ملحوظ في حياتنا العادية . وقد يكون للجو

(٢٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٢٣) اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث

(٢٤) السرقة عند الاحداث

(٢٥) ستيغاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا في التفاه السوك الاجرامي او وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمل المناسب لامكانيات الشخص ويكون متوافرا معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له على ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من اثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان قفرت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض وييسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بان للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفع الفقر لارتكاب بعض الجرائم كالسرقة ، نرى الثروة - على الاخص الفجائية - تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي القلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصادية كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألة ترجع الى الاستعداد الشخصي للفرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحدث امر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتمد له المؤتمرات والحلقات الدراسية من فترة الى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكرة يخرج الى الحياة المليئة بالتناقضات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على اية صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان اخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للاحداث يتمثل في جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدأت في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه اشد انقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحياة في القرية المصرية تبعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنتفي في القرية ، نظرا للترابط العالي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحداث في الريف يجري نظرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليد مرمية ،

(٤٦) بين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالآتي : السرقة ، وكذب المواصفات بدون اجرة ، الاتلاف ، القتل والاسباب الخطا ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنح .

ومن ثم لا يدرك شيء من أمر الجريمة . والامر الآخر هو ان الارقام المظلمة في الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فاللاحظ في البيئة المصرية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورافة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشئ عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث في حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد ينتقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو في كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة اخطر الادوار في تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وبنماذجها السلوكية ، سواء اكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فكل اسرة تقاليدها وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها في مراحلها ، الامر الذي قد تختلف فيه اسرة عن اخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية في المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان في القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل في حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها ، وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للجرائم فان الحدث سوف يقتدي بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع في ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، اى منغمسا في الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة لل صغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي في ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

(٤٧) داجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الاب و الام يكافيه الصغير او يعاقبه حسب ما يرى في تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير ابهما يصرف النظر عن المقاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه في مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والده حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشأ الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البني قد تقوم بتربية صغيرها في وسط يبعد عما هي منه ، وتفرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي اول مؤسسة لميافضة السلوك الاجتماعي ، من والده يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه في الحياة ، فلذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٢٠) .

وللقواعد السلوكية في تربية الصغير انعميق في سلوكه واحتمال او عدم احتمال انحرافه .
اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربية الصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن
السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهو الذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا
الى قلة الكتب التي تتناول اسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع
ما جاء بها ، والتعرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن اخطر العوامل المؤثرة في
سلوك الصغير هو جهل أحد الوالدين بان من شأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف
الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصل الحال
الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاي سبب كان ، لان التفاضلي عن
اخطاء الصغير او التهوين من امرها قد يكون من اثره استمرار الصغير في سلوك يؤدي الى
انحرافه . وقد يكون الاهمال بدوره من عوامل الانحراف ، لان معناه افتقاد الصغير للرعاية
والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك ، يستوي في هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما
يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفي بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم
الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ، وهو شعور اذا عززته عوامل اخرى قد يؤدي
بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولاشك في ان القدرة الاقتصادية
للالسرة تكون سعيًا في تحديد كثير من العوامل المؤثرة والتي قد تؤدي الى اجرام الاحداث (٤٩) .
واول ما يتاثر بالظروف الاقتصادية هو المسكن الذي يقيم فيه الحدث ، ذلك ان رب البيت
يتخير المكان في الحي الذي يشاء مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية في تحديد
مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية اثاثه واتساعه وكونه صحيا من عدمه ، ولهذا اكبر
الاثار في استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهروب منه الى الطريق لا سيما في اوقات
الغراغ . ولعلنا نلاحظ هذا في انطلاق الاحداث في كثير من الاحيان الى الشوارع في تجمعات لقتل
الوقت وهي في ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم
السرقه عند الاحداث (٥٠) ان حالة اسر الاحداث المهنية في مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الاب والام لها اثرها الكبير في سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل
بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره في صورة صريحة فينعكس هذا في
صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقد يرجع انتفاء الهدوء في المنزل الى ضعف احب
الزوجين ازاء الآخر ، على ان أحد الطرفين - لاسيما اذا كان الاب - يعطي امثلة للأولاد فتطبعهم
بأحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو امر لا تحمد عواقبه . ومن الأمور الملحوظة في حياتنا

ان ضرورات الحياة اضطرت كلا من الاب والام الى الانطلاق في سبيل الحياة كسبا للعيش .
ويتربط على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الابرية له ، ويترك في بعض الاحيان في مجتمع الطريق
لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت او
الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف ان ما يؤثر في سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما
عن وفاة أحد الوالدين أو هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل
للأب أو الأم .

وللتعليم اثره العميق في الارتفاع بالمستوى الفكري والثقافي للانسان ويساعد على تكوين
شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتدل الاحصائيات الجنائية سواء في مصر أم في
الخارج على ان النسبة الغالبة من المجرمين ساجداناً وبالغين — هي اللاميين ولن لا يحسنون
القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادى للجرام . والمدرسة من أولى
الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل في خارج منزله في السنوات الاولى من حياته ، واذا كان
الصغير يجد في المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج
عديدة متألفة أو متنافرة ، وهو في حد ذاته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار
بعضها سواء بمجرد دافع التقليد أو انسياقاً في تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره في
عملية الاختيار (٥١) . وتأتي اثر هذا اهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت
والمدرسة في تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده أو على المدرسة
وحدها أمر غير مقبول ، وانما الخير في المعاونة بينهما في تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل ان
تؤدي الى انحرافه والعمل معا على ابعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما في الاسرة التي تحتاج اقتصاديا
الى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة في المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر وبلتحق
بأحد الاعمال ، وفي العمل يلتقي الحدث بأفراد مديدين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف
مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالأخير يحوي الحسن الى جوار السوء ، واذا كانت المدرسة
تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني الا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك الا ما
يؤثر في سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها اثر كبير في
النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء كانت اجرامية أو معادية للجرام ، وقد تفرض
ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بأفراد معينين لاختيار لهم في انتقائهم . ومن هذا قد تبدأ
بلدرة الجريمة في الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثراً بفريرة الجماعة دون ان توجد نماذج اخرى
معادية للجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطا يعمل اما للخير او للشر ، سلوك الفرد (برنيس ص ٤٠)

وأخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا نيعا يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الفريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه او يكبره او يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيا له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة امر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من اثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بان هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقا لاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، اما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كاد مغاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمشكلات الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فيقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام ؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرا على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفترق الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . واكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

صامتة فيها عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحوي دراسة عنها وتقليلًا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية - لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام - لوجدنا ان الجرائم - وعلى الاخص الخطيرة منها - تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا ام يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرأ على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحققة لآثار التحول يجب ان تبدأ بالريف أولا .

والبحث فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصري ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذي عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الرأي لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادي في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام من الحضر والارقام من الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضري وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددًا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المضمون الاجتماعي وراء هذه الارقام ، وهو مضمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقراها المؤتمر ما يأتي (٥٢) :

١ - ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادي ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى تقصن الجريمة . وتعبر الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادي فحسب .

٢ - الاجرام الذى قد ينشأ عن التفيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التي لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ - قد ظن خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقرر عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من اسباب الاجرام ، والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شأنه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق ايضا بالنسبة الى ظاهري التحضر والتصنيع .

٤ - ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو امر وان كان من الممكن تبريره الا ان الحكمة تقتضى ايضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار اثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التي تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضري .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة التحضر والجريمة فى مصر (٥٤) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لماتوافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التيوب والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهي من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة ان جرائم الجنائيات والجنح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنائيات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشي فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . اما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنح تزيد الجنح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشي واغلاف المزروعات . اما الجنح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرد ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

وفي محاولة معرفة اتجاه الجريمة في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الآتي :

١ - ان جرائم الجنايات بصفة عامة اخذت في الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات في المناطق غير الحضرية اكبر من نسبة انخفاضها في المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ - بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة في الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذي زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ - كانت جرائم الجنايات بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق الحضرية عنها في المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

٤ - جرائم الجنح بصفة عامة اخذت في الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين ان الجنح بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

والذي يمكن استخلاصه من هذه الدراسة ان الجرائم التي يمكن ان يطلق عليها الجرائم الانتقامية - لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص - تغلب دائما في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب في المناطق الحضرية عنها في المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ ايضا ان مختلف انواع الجرائم - الجنايات والجنح - تتجه دائما نحو الارتفاع. هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن اثر التحول الذي حدث في المجمع على سير الاجرام ، لانها اهتمت على احصائيات وزارة العدل التي لم تنفي جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة اخرى عن ظاهرة الجريمة في اسوان (٥) وذلك في المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤. وقد جاء في مقدمة هذه الدراسة ان مجتمع اسوان كان - الى حين تنفيذ مشروع السد العالي - مجتمعا محتفظا باصالته الريفية وبالعلاقات الاجتماعية التي تنمو في كل مجتمع زراعي ، وقد تروى على تنفيذ مشروع السد العالي ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

العالي ، وقيام بعض الصناعات التي يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون أساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم وإخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والإخلاقيات والعادات الاجتماعية التي تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وأنه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع أسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالي الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التى يتسم بها هذا النوع من المجتمعات ، ومن الظواهر التى تآثرت تأثيرا كبيرا بالتغيير الجذرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التى وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

الجرمة السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣
١٩٦٠	١٠	١	—	٢	٢٥	٣٩
١٩٦١	٥	٢	—	—	٢٧	٣٤
١٩٦٢	٥	١٠	—	١	٢٠	٢٧
١٩٦٣	٤	٢	—	١	٣٩	٤٦
١٩٦٤	١٤	٣	١	—	١٥	٦٦

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٣١٩ ٪ ، ٢٧٢ ٪ ، ٢٥٥ ٪ ، ٣٢٣ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

الجرمة السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٢٨	٩	١٢	—	١٧
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢
١٩٧١	١١	١١	١	١
١٩٧٤	٧	٤	—	١

فهل يمكن ان نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، فى رأينا أنه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالقياس الى عدد السكان في محافظة اسوان الذي تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدي الى الانخفاض في نسبة الاجرام لا في زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثاني حيث تكاد تكون جنائيات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع في سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الامر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعي عليها ؟ والامر لا يختلف بالنسبة الى الجنع حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الامر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضاري وله اثر بالغ في سلوك الفرد على اية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هوائر اجهزة الثقافة والترفيه في الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذي يعيش فيه الفرد ويتأثر به (٥٦) . فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا في الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج سالحة كان لهذا اثر على المستوى السلوكي ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يثير الفرائز الكامنة في الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامي . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام في نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادي دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين في صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهروب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامي .

ونستطيع القول بان الآثار الخطيرة التي ظهرت لوسائل الاعلام في بعض البلاد الاجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التي ينشرها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التي اعترف فيها المهتمون بانهم رسموا طريقهم في ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه في بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التي اجريت قديما وحديثا بيان تأثير ادوات الاعلام في السلوك الاجرامي لا سيما بالنسبة الى الاحداث .

خاتمة :

رابنا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدي الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورية فهي في ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الامر تحديد الجريمة التي نستحث الباحث على الاهتمام بها

ومتابعيتها وتقصي عواملها وتبني آثارها ، ثم لزم تبعاً لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن أي حدود لمعنى البيئة اتسعت أم ضاقت - لابد وأن يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على أية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا أن كل ما يراه العلماء عاملاً من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب أو بعيد ، واقتضانا هذا أن نتناول تلك العوامل واحداً بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من اثر في السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك في أن كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلاً وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ، ولكننا اردنا في هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين ان يكون في اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .



المراجع

أولا - اللغة العربية :

- ١ - احمد ابو زيد الثار ، دراسة انثروبولوجية بأحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٦٥ .
المجلة الجنائية القسومية ، نوفمبر ١٩٦٢ .
- ٢ - احمد على الجندوب - دراسة للقاهرة الجريمة في قرية طهواى - المجلة الجنائية القومية - يولية ١٩٧٣ .
- ٣ - احمد محمد خليفه - الوفاية من الجريمة الناشئة عن التفرج الاجتماعى المصاحب للتنمية الاقتصادية في البلاد الاقل نموا - المجلة الجنائية القومية . مارس ١٩٦١ .
- ٤ - حسن المرصفارى - الاجرام والمقاب في مصر - الاسكندرية - ١٩٧٢ .
- ٥ - حسن المرصفارى ومحمود السباعى - مبادئ علم الاجرام ، مترجم (سفلاندو كريس) القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦ - ذكريا طه - جريمة الخطف في جمهورية مصر العربية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧ - سمير الجوزرى - النزلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى - المجلة الجنائية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .
- ٨ - سيد عويس - حجم مشكلة جناح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة - المجلة الجنائية القومية - يولية ١٩٦٥ .
- ٩ - سيد عويس ، شهيرة الباز - ظاهرة الجريمة في محافظة أسوان - المجلة الجنائية القومية - يوليو ١٩٦٦ .
- ١٠ - عبد العزيز محمد القطنى - سمات الجريمة في محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ١١ - محمد البسابلى - الاجرام في مصر - اسبابه وطرق علاجه - القاهرة ١٩٤١
- ١٢ - محمد خيرى محمد على - الريف والحضر وظاهرة الجريمة - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٣ - محمود عبد الرزاق عبد العال - نوعية الجريمة في بحيرة المنزلة - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٤ - منصور غيث قنديل - الامن العام في الجمهورية الليبية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٥ - الأمم المتحدة - دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الأوسط) ١٩٦٦ .
- ١٦ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصرى - المجلة الجنائية القومية - مارس ١٩٥٩ .
- ١٧ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - السرقة عند الاحداث - من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .
- ١٨ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - العوامل الاجتماعية في تشرذم الاحداث ، المجلة الجنائية القومية - نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانياً - اللغة الأجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminalité actuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Structure, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et science pénitentiaire 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Saitz & Norman Johnston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

★ ★ ★

محمد عبد الرحمن الشرنوبى *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتفريعات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال أحد ان جنسا واحدا من اجناس الكائنات الحية العديدة التى تحيا حياة الارض ، يمكن ان يعمل بجد - سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد - على دمار هذا الكوكب أو تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت فى صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذى يطوف اجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التى ضوعفت فتضاعفت المخاطر التى تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت فى هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الاداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الأدوات التي استخدمها الإنسان آنذاك في تكوين أسرة مدربة تدريبا رافيا على مطاردة الحيوانات والإيقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الإنسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أى نوع من أنواع الكائنات الأخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماما مع مسيرة التاريخ الإنسانى الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الإنسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من أهم الأحداث التي عاصرت خروج الإنسان من أسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادئ مع عناصرها . فليس هناك أى كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الإنسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة - النار - ازداد استخدامه لها ، فأحدث بذلك الكثير جدا من التأثيرات الإيكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الإنسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعىا للمبادئ الإيكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، إلا أن إثبات ذلك يعتبر أمرا عسيرا ، وأن كان من الثابت أن ذلك الإنسان لم يكن يعيز - كما يفعل إنسان العصر - بين ذاته كائنسان ، وبين العالم الطبيعى المحيط به .

لقد أطلق علماء الأنثروبولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجري الحديث Neolithic Revolution ، رغم أن اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماما مع التغيرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في أزمنة متباعدة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي أجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الإنسان آنذاك رغم اعداده البسيطة - أن يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الإنسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير أدوات صيده وأساليب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفا في ذلك الى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات الى الشراك المختلفة والسلي الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلّة اعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الإنسان في البيئة تأثيرا محليا ومؤقتا . فالأرض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الإنسان يعود اليها ليمارس نشاطه من جديد وكأنها أرض جديدة حل بها .

(١) Marston Bates : „The Human Ecosystem", Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) (محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ٥٥ . - ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجري الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجري الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجري الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع في غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجري الحديث في البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب في ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية في قرى اكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع قوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطمي لصناعة الاواني ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذي استلزم تمهيد بعض الطرق لتيسر الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقي لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرتنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شيء ينبغي اخضاعه لكافة متطلباتنا في الوقت الحالي ، وليس شيئا ينبغي ان نتعايش معه في وفاق .

وحينما بدا الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذي يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التي سبق ان تعايش معها وفي ظلها ، بل قدسها وعيها احيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتعادي في استغلال الارض والغابات ومصادد الاسماك في البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، في الوقت الذي استأصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني **جوردن تشيلد** Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجري الحديث انحصر في حدود ثورتين : الاولى هي الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل في الامكان ظهور المدن والتخصص في العمل

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon ان حضارة العصر الحجري الحديث اكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباين بينهما ربما يكون من اصعب المشاكل في العالم . (راجع : Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والعارف . اما الثانية فهي الثورة الصناعية Industrial Revolution ، والتي قامت على اساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وأن كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسمها بالثورة العلمية Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التي جاءت من اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التي اتاحت للانسان زيادة درامية محزنة في الطاقة خلال هذا القرن بما في ذلك الطاقة النووية الرهيبة، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الأخيرة بالذات ، سببا رئيسيا في تلك التفريعات الإيكولوجية على نطاق عالمي أكثر من أي تفريعات أخرى .



ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشمل على كافة المجتمعات التي تزخر بها بيئة هذا الكوكب في حياة ذات نظم وقوانين محكمة إيماءا لحكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « أغلفة » الكرة الأرضية الأخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثل وحدة واحدة مترابطة أثبتت الثورة العلمية المعاصرة أن له تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (٤)

وأهمية هذا الغلاف تتمثل في أن الانسان ، وهو أحد عناصره الرئيسية ، قد أصبح يدرك جيدا الآن أن هناك نوعا من « التكافل » الفريزي بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذي لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم أنه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الأنواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التي تتكوّن الغلاف الحيوى توضح وحدة حقيقية بالفعل . فالحياة في كل موقع منظمة وقائمة على مبادئ أساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الاحياء جميعا - من نباتات وحيوانات وكائنات أخرى - والتي تعيش في منطقة ما ، وتكون مجتمعا بيولوجيا مميزا ، مترابط فيما بينها في شبكة من العلاقات المتقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديه لأفراد المجموعات الأخرى . ويميز علماء الأيكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

(٤) أغلفة الأرض تبدأ حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere بحيث بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، ويمكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه أطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وإيونوسفير Inosphere وتلاصقان الغلاف الحيوى Biosphere قد سقط من هذه التسميات في شتى الدراسات رغم أهميته وارتباطه بالأغلفة الأخرى .

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحلات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها في تحليل الاحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « مع العناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجى Ecosystem . ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتمثل هذه العلاقات الوظيفية في سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تمثل كذلك في الطرق والمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة في ذلك النظام البيئي او ذاك .

ولا شك ان الالام بظروف هذه العلاقات والوظائف امر حيوى للغاية لفهم الآثار التي يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى من اجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الاحياء . واذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي عن غير قصد ، فليس اقل من ان تنصرف بنفس المنطق ، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالته ينبغي الا نظل على اسرافنا في اتلاف البيئة وتلوئها والعبث بقوانينها الازلية ، مهما كانت الغاية : استثمارا او استغلالا او تراء او رفاها . ان كل ما يلحق بزيادة السكان او بالتوردة التكنولوجية كعوامل ساهمت في تلف البيئة لا بد ان يوضع تحت المهرج ، ولا شك ان الادراك الواسع للانسانية ، والذي لن يتحقق في عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقة اللازمة لبقاء الانسان مع الطرف الاخر . . . البيئة .



انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٤.٣ بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الاعداد الهائلة تكاد تقف على حافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلال البليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الاتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهة بقارات بأكملها) قد هددت او عرضت الحياة على سطح الارض للبقاء ، مثلما تفعل الآن ظاهرة الانفجار السكاني الذي نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعة من الدول ونمو سكان مجموعة اخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة في تزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتعرض لشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة اخرى بمعدلات اقل فلا تتعرض لثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ، نستطيع على اساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انه من المعتقد ان جملة عدد السكان في زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت اعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة في عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة في عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت اعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون في عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة اعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثاني خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان في عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط . (٥) . ويعنى هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالى ٢٠ نسمة لكل الف من السكان . وبلاحظانه باضافة ٢٠ نسمة لكل الف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو رأس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، أى كما يربح المال من ذاته ربحا معينا ، ثم يربح هذا الربح ربحا آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاما وليس ٥٠ عاما . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم في فترة اقصر (٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** اول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان في عام (١٧٩٨) اى في الوقت الذى كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا ايكولوجيا سليما . فقد اعتقد ان السكان من البشر يملكون قدرة حيوية لمضاعفة اعدادهم كل ربع قرن ، في الوقت الذى لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا في هذه الزيادة ، فان اعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية ، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه **Dismal Thorem** هى بؤس الانسان . (٧)

ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها اكثر من مرة ، ففى ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت في مجاعة كبيرة عام

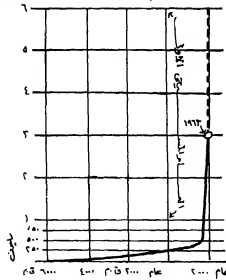
(٥) محمد عبد الرحمن الترنوبي : « المشكلة السكانية في الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم التالي للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية - العدد الاول - ١٩٧٦ - الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

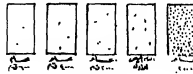
(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23

بهمة العصر : بين البقاء والفتاد

السكان بالليسين



تضخم السكان (دسته بزرگ)



النمو السكاني الخطير

شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدرجية في أعداد السكان منذ آلاف السنين حتى حدوث الانفجار السكاني الهائل في الوقت الحاضر والمتنظر عام ٢٠٠٠. لو ظلت الزيادة الطبيعية الحالية على ما هي عليه . ففي خلال القرن الماضي تضاعف عدد السكان في العالم ، وفي مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة أخرى حتى وصل إلى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير أصبحت كثافة السكان العامة في العالم ١٢٥ نسمة في الميل المربع مقابل ٦ نسمة في العام المسيحي الأول . والحالة فيما لذلك لا تبشر بالخير ، فالأراضي التي يكن زراعتها على سطح الكرة الأرضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما أن معظم أراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التي يتركز فيها نصف سكان العالم . .

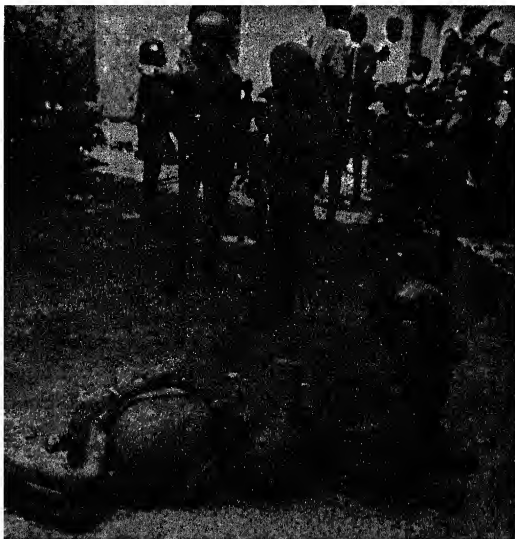
١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة في الهند في الآونة الأخيرة ، الى عجز البيئة من مسايرة النمو السكاني هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعاً وبسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرئ واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال أكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع . (٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بان المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هى التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها فى الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الدهول الشعب الأمريكى الذى يقود ووجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء فى الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة فى قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيراً . فلا أحد يدري تماماً الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه « سعة حمل » Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان فى المستقبل سوف يزيد من التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الاحياء الاخرى . فهى فى غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهداً جهيداً من اجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الإنسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الامراض حتى لا تتعرض أعداد السكان الى تقلبات عنيفة كذلك التى حدثت فى العصور الوسطى ، عندما ادى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملاً من عوامل التحكم فى اعداد البشرية . والانسان يحاول دائماً القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الأقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامداد اعداده المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم فى الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء فى البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهى على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة .. ومجرد أمل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجاً للتحكم فى اعداد البشرية .

بيئة المر: بين البقاء والقتل



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعاً أو بسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يومياً ، ان اكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة من وكالات الأنباء من الفليمبيافرا خلال المجاعة التي حلت به أخيراً) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفرع امام هذا التزايد الفريد ، وبديهي اننا في ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة في تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة (٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه تلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والاخر ايكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضاري وغيره تاريخي ووراثي وهكذا . وليست هذه العوامل ثورة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة من هذه الزيادة والتي انعكست على ذلك التلف الذي اصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيثة ولا هي خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت في حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلمية الحديثة ، في التدهور العام الذي اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك ان اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية في النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء في الوجود تقريبا الان . فقد لوثنا مياهنا وارضا وهوائنا وحياتنا مدنتنا وهددها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القلبي» (١٠) الذي لوث كل شيء حوله ؟ ونجح في استعلاء الطبيعة ثقة منه في قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي في ذلك بغير حساب من الطرف الآخر ؟



مظاهر التلف البيئي :

في القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزي **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن مأساة عصره آنذاك بحسه المزهق تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل في عالم المحيط به ، والذي غيرته يد الانسان فيقول :

Nature's polluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A (٩)
Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Conditions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Joseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصریح من United Press International في كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ - ١٢٢) انظر المرجع .

هكذا . . كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الإنسان أصبح يعبث فيها فسادا ، في كل ركن من أركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن أن نتصور آيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له أن يعيش حياة الربع الآخر من القرن العشرين ؟ أننا نعيش الآن عصرا يحاول الإنسان فيه جاهدا أن يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا أن تتوالى « الصرعات » المخيبة للأمال في كثير من أركان العالم الغربي المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . أنهم يتوقون توقا شديدا الآن إلى الماضي البدائي البسيط ، أو يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة أو نائية منعزلة ، ما زالت ترتبط في توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش أفرادها في صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب كالذهب البوذي يصون الحيوانات ولا يقدم على إيذاها بأى صورة من الصور ، لأن « بوذا » كان يحترم كافة أشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الأراضي المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رالمة من الأرض التي تحتضن فعلا الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنفها . بل أن مذهب اليانية Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة أشكال الحياة بما فيها الحشرات ، إلى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكسنة) صغيرة معه دائما لأزاحه ما يصادفه من حشرات خشية أن يدهمها صدفة . أن هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخربة البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا القرآن ترتفع في المخازن وأصروا على ترك المياه لها لئى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الإنسانى الدكتور ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer نداهه إلى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر أن الخطأ الأكبر الذى ارتكبه كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الإنسان بالإنسان .

فالى أين ذهب ذلك الإنسان في تماديه وتحديه للروابط والنظم الإيكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ أن الحقائق كلها تشير إلى أن حالة الإنسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك .

مشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماء المتخصصون وخبراء الشؤون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival
The Rap of the Earth
Our Plundered Planet
The Geography of Hunger
The Limits of the Earth
The Prevalence of People
Man Versus Nature
The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة في البيئة الطبيعية ذاتها - كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغييرات التي تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان في حالات كثيرة مزق فرص التجديد هذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا في هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلات طفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقي سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدا في تغيير البيئة تغيرا فيزيائيا . فقد جاهد ضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيوانات جعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها في بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاء نفسه ، والبقرة التي تهجر السهول تقع فريسة في وقت قصير للحيوانات المفترسة خارج السهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صفاره الى مصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدما في عصره الصناعي ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محل النظام الطبيعي ، ولقد اركبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسع عشر خطا فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة في ذلك الحين ، وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل في نهب موارد الثروة الطبيعية في العالم . ولقد ترتب عليها تغييرات خطيرة في مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلق الانسان صحارى جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة في جنوب شرق تينسى Tennessee بسبب مناجم النحاس ، وصحراء سدبرى Sudbury في انتاريو بسبب دخان النيكل . وفي سميته لتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدثت السدود التي تقام عبر الأنهار ، ففسدت نظام الصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية رأسا على عقب ، بالإضافة الى العديد من مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة المواد الرخيصة حقاً ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاد موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للأجيال القادمة . فنحن الآن « نسرق » حق الأجيال القادمة ليس فقط في الأخشاب والفحم ، بل ايضاً في ضرورياتهم الأساسية في الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم في حاجة ماسة لحركة « صيانة » تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .



ماذا عن المياه :

لم تنشأ الحضارات وتنمو وتغطي بسخاء الامع وفرة المياه ، وما توارت عبر سطور التاريخ الآثار الجفاف ، او على الأقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكم من حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه في كل اجزاء العالم : غرب امريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق أنهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه النينابيع في آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيداً عنها . وحديثاً اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيداً وهناك ستكلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو أكثر اهمية من الأكسجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للأكسجين في الهواء الذي نحيا به ونتنفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارض انما نشأت اصلاً في البحار القديمة او الاولى Primitive Seas قبل ان يكون هناك اي اثر للأكسجين في الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان - عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والأكسجين في الهواء . ويأتي ٧٠٪ من الأكسجين كما يقول كول Dr. Lamom Colo من النباتات الدقيقة الخضراء في البحار التي تستهلك - شأنها في ذلك شأن نباتات الارض - غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتهدف بالأكسجين كناتج اشبّه ما يكون بنفاثة له . (١٢)

توفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر في احواض البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

الارضية ، اما الباقي فيتمثل في المياه المجمدة بصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ ألف ميل مكعب تصبح ميلها عذبة كل عام ، بالإضافة الى ١٥ ألف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الأرض بعيدا من البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ ألف ميل مكعب تتحرك منذ الازل في حركة سرمدية رائعة بين السماء والأرض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، وإذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب بأقدامه على سطح الأرض عامة أو يضرب بجذوره في تربتها ، إلا أنه لكائنات أخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . فعادى أعد لها الإنسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه أنهار الأرض وبحيراتها . لا شك أن الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالإنسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لا يتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما أحدثه الإنسان لآلاف وتلويث هذه المصادر تنعقد صورته ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات السماد الكيميائية وروث الحيوانات والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والأملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع والمنظفات ومبيدات الأعشاب والمبيدات الحشرية ، بالإضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع النووية ومولدات الطاقة . أن كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة أن الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الإحصاءات ، وإنما تستعمل كصندوق قمامة للنفايات ، حتى أصبحت أنهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد أشاد دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg ورئيس لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، أن نظم الأنهار الإثنى والعشرين في الولايات المتحدة الأمريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (أي ستموت) في نهاية هذا القرن إذا استمر التلوث على معدلاته الحالية . إذ يتسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتأثير المواد الصناعية المخلفة ، والتي يلقي بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاد الأكسجين من المياه والتضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد ..

وليس غريبا أن نتحدث عن تلوث المحيطات. فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة الـ D.D.T بتراكوزات مختلفة في الكائنات البحرية في كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الأكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربرة في كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « توري كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطئ الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة في تدفق ١٢٠ ألف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطئ الانجليزية القريبة والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز اتفاق ٢٠ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه أسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل في قاع المحيط محدثة خلايا بيولوجيا محققا كونها سوما خائفة وقاتلة لكثير من الالحاء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندينا في انصباب من تلوث المياه ، وبدأت اضرار الاسماك تموت في انهارها وبحيراتها بتأثير لقاء النفايات البشيرة فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد البارياتيون في الدانمارك الاسماك على شواطئ البحر ، وألقت بجثتها على الشاطئ على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق ألمانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه في سخيرة مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما في اليابان فقد ظهرت اعراض ارتخاء في عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف في المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بغيوبة ووفاة ذلك في خليج « ميناماتا » بتأثير لقاء أحد مصانع الزئبق بمخلفاته في ذلك الخليج : مرض ميناماتا!! وفي السويد حرم صيد الاسماك في اربعين نهرا وبحيرة لتترك مركبات الزئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدي قد اخذت تنفش بدرجة مزعجة حقا في كثير من الدول الاوروبية والامريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بغير ورسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما في الوادي الاوسط بكاليفورنيا فان الاطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المثلني فقط . ولقد اضطرت مدينة الجن Elgin بمنيسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد في المحصولات الزراعية ، والنترات في حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا في الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نترات (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملوثة (الحاملة للاكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الاصابة بمرض الميثيموجلوبينيميا ، واهم اعراض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الغلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكرياً في كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن في تلك الوقفة لا بد ان تؤمن بان تلوث الهواء في المناطق الصناعية ليس قصراً عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالاً وجنوباً . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض في حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة في الرياح السطحية . كما تفدي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن في نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذلك في دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظواهر المحلية كسلاسل المرتفعات والمنخفضات المائية الكبرى ، بالإضافة الى التغيرات الموسمية لموقع الشمس في حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أو حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقاً . ويعتبر تلوث الهواء من اقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ولمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا أو يهيج رئتنا ، ويشعر سكان المدن - والمدن الصناعية بصفة خاصة - بوطة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سرعاً ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكثيب المظلم بتأثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥ ٪ في نيويورك و ٤٠ ٪ في شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من أول أكسيد الكربون نفثتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة في الولايات المتحدة ، غير ملايين أخرى من أكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع اثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ منه من كوارث أودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحداً بالدخان ، ونفس الظاهرة تكرر في وادي الجيز ببلجيكا وبأريكا في المكسيك ، آلاف التقارير العلنية الرسمية وغير الرسمية مع آلاف أخرى سريّة مرفوعة الى المستويات العليا في الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات في الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل في العطاء السلبي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء بأول أكسيد الكربون - وهو امر قائم ما بقيت السيارة والطائرة وإية آلة في اي مصنع ومزرعة - يعمل على اتحد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين

الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين اقوى من اتحاد الاكسوجين .
ويسبب اول اكسيد الكربون اختناقاً وتسمماً لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن
البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism)
- او مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازم في الخلايا، وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين
فان القلب يرفع معدل خفقانه وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذاك يتسببان في
توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز اول
اكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة
١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءاً من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتردحم
الشوارع بوسائل النقل المختلفة في اوقات اللدوة ، فان محتوى الهواء من اول اكسيد
الكربون يبلغ ٤٠ جزءاً في المليون . لذلك كثيراً ما يصاب سكان المناطق الزحمة بالمرور باعراض
التسمم الحاد ، والصداغ ، وضعف الرؤية ، ونقص في تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير
من الالام الباطنية ، وفي الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بنقصان للوعي ،
ووفاة احياناً .

وهناك غازات اخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولاً عن
زيادة معدلات الإصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، أما تلوث
الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من اهم مضاعفاته الإصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى
الوفاة . كما ان هناك غازات اخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واکاسيد النيتروجين وغيرها
كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل
المثال ان انبعاث غاز ثاني اكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠
مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترثف بالنسبة لأكاسيد النيتروجين من ١١
الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتأثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم
الى الهواء ، والذي يقدر باربعة اضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع (١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى
الآن ، كما ان تركيز هذه المراتب الملوثة للهواء يختلف اختلافاً جغرافياً ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

(١٥) هناك ملوثات اخرى للهواء ولكن لادخل لتاسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين
المتصا من البراكين واکاسيد النيتروجين الناتجة من التفريغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج
من تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الاوزون المتخلف صولياً
في الهواء الجوي ، او بسبب التفريغ الكهربائي في السحب ، وتسايف الهواء المتخلف من احتراق الشهب والنيازك نتيجة
لاحتكاكها بطبقات الجو ، والاملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والمواسف والاشعاعات الشمسية على المحيطات
والبحار والبحيرات الملحة ، والارتية التي تثيرها الرياح والمواسف او تأتي بها الجهات الجوية وتيارات الحمل
الحرارية من التربة الملحة ، وحبوبات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة في الهواء منبثة من التربة او لتفتن
الهواء والطيور الميتة والغضلات الادمة ، واخيراً المواد ذات النشاط الاشعاعي كتلك الموجودة في بعض تربات وصخور
القرية الارضية او الناتجة من بعض الغازات الجوية بفعل الاشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات اضرار جسيمة
لان معظم اوان الحياة قد تاقلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٤)

تلقي الطائرات بمشآت الاطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائل النقل الاخرى على الارض في تلوث الهواء .

ليس قصراً على مكان ، ولكنه أكثر تركيزاً في مكان عن مكان آخر . كذلك فإن وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال في كثير من المناطق غير كافية بالمرة ، كما أن التسجيل لهذه الظواهر ولفترة دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل أخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاق على سبيل المثال ، وعلى السكان في مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السن والاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فإن البحث العلمي في حد ذاته معقد للغاية في موضوع كهذا ، لان عنصراً واحداً من عناصر التلوث قد لا يعطى مردوداً سيئاً ، او بسبب مشكلة في حد ذاته لو وضع تحت الاختبار كعنصر مستقل ، في حين انه لو ارتبط بعناصر أخرى لا يعطى مردوداً في غاية الخطورة ، ولهدد حياة الأفراد والمنشآت في منطقة ما . لذلك كان عزل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزاً عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .



التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيداً من الكم الحضاري الماضي الذي - من المفروض - ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي يسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة القت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت في شكل غازات او نفايات صلبة او نصف صلبة او سائله ، الى الهواء او على الارض او في المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة ، وهي حينما لا تجد في هذه النواتج الثانوية قدراً من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن اهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد عولجت قبل القائها خارج المصانع . وليس من المعقول ان تظل هذه النفايات يجرأ المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلتقى قريباً منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقى بها في الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتتحمل اليها متاعبها وشرورها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعاً كبيراً بين صناديق مهشمة والآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية أخرى تتخلف عن المواد الصنعة ، كفضول الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الأماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الإنسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تنور النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان. ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بفبار احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبريتيك بكفر الزيات ، او بفبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي ياتي على الثبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمعمرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقي به مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، ومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع التسيج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلبية ولاملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلبية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالإضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخضبات الزراعية الكيماوية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تسبب في كثير من المشكلات المتعلقة بالالاحة والانتقال في هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النتترات في هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها في كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنتقل الى الهواء قبل ان تترسب على الارض او في المياه . ولا تكاد تخلو أي عملية صناعية من مواد غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف بـ « البقال » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للأمطار او تصلها المياه من أي مصدر لفترة طويلة - تعمل - بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة - على تلوث المياه الجوفية . وفي دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج امر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و ٣٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي في حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (!!) .



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالنواتج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت التصاعد يقتل الحياة في الاشجار على طريق القاهرة - حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

أخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الأعشاب :

امدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة من المركبات الكيميائية التي أسرفنا في استخدامها أبها اسراف ، حتى أننا أصبحنا نعدل على تدمير ذاتنا بخلى حشيشة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكلور والرصاص والزرنيق والفلوريدات، وهذه تصل إلينا في مجموعها كملوّثات للبيئة ، ومن هذه المواد تلك المادة التي اصطلح على تسميتها Decoloro-dephenyl Trichlorethane ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهى أخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل إلى مفعولها العالم السويسرى بول مولر فنشطت مصانعها الضخمة في إنتاج العديد من الأنواع والمشتقات . ولقد أسرف الإنسان في استخدام هذه المنتجات منذ أواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تراكيز قد تبلغ ١٢ جزءا في المليون في الدهون البشرية ، وأكثر من خمسة أجزاء في المليون في لبن الأمهات، رغم أن التراكيز العادية تتراوح بين (٠.٥ - ٢٦) جزءا في المليون ، ويحتوى لبن الأمهات في كافة الدول الآن على تراكيز تختلف باختلاف استخدام هذه المادة في المنتجات الزراعية التى تستخدمها (١٧) . كلى تتركز في اللبن الإبتار لدرجة أصبح معها ما يصل إلى الأطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية .

ولا شك أن مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد أصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد أنها تستخدم وتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالأسراف فيها في إبادة حشرات الزراعة أمر مقبول إلى حد ما ، ولكن أن يقوم بعض الجهلاء من أصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الأرفف جنباً إلى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الأمور الغريبة التى تضاعف من أحكام الحصار حولنا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب أو تداول هذه المبيدات فقد أصبح من الصعب تقدير مدى التأثير الذى تحدثه هذه الملوّثات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان أى منطقة أن يدركوا آثار ما يمكن أن تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم في كثير من الأحيان، أن يدركوا مقدار التغيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التى تحدث نفس الأثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التى أجريت على الحيوانات أدلة قاطعة على خطورة تأثير تراكيز هذه المواد في جسم الأحياء . فقد دلت الدراسات على أن الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T. تتسبب في الإصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفي حالة وجود نسبة تركز تبلغ ١٠ أجزاء في المليون يحدث تنشيط

(١٦) هناك مواد أخرى هيدروكربونية مثل الـ Aldrin والـ Dieldrin و كلوريد البترول المنداسى قد وجدت بتركيزات مختلفة في لبن الأمهات .



شكل رقم (٦)

تفذية الحاصلات الزراعية الفدالية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية
بعد العودة الى المنزل كتناول الطعام ؟

لانزيمات معينة في الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذي يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير ، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقير مفعولها . ويذكر ريتشارد ويلك Richard M. Welch أحد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلمية الأمريكية ان مادة الـ D.D.T. تسبب في زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاج هرمونات الجنس (الايستروجين) لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة الـ د.د.ت تؤثر في هرمونات الجنس عند افتران والطيور ، الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية في الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيرات ان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثل الـ D.D.E. و الـ D.D.D. توجد بتركيزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا في وفاة بعض المرضى . ويذكر ستيبنالك Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة الـ د.د.ت « عبارة عن سم عصبى من التعذر التخلص منه أو شفاء المصاب به » (١٧) .

إن تأثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه في النباتات التي تقاوم آفاتنا من أجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته في مكافحة البعوض ، ولقد أثر ذلك في اختفاء هذه الحشرة فعلا في بحيرة كليز بكاليفورنيا الذي كان يتكاثر فيها لتلوثها بالنفايات ادمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسبب في اختفاء اسراب من الطيور كانت تتغذى على اسماك هذه البحيرات بعد ان ثبت وجود تركيزات شديدة في انسجة الطيور الميتة من هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الأمريكية بيانا أعلنت فيه ان هذه المبيدات قد ابادت ٣٢٪ من اسماك المياه العذبة في كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورة من ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التي اكتسبت مناعة ضده ، حتى اننا أصبحنا في انتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من امورنا وبشمجيعنا . ويقول إيرلش ان الزراعة الحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكولوجي فوجت William Vogt في كتابه « الطريق الى البقاء » ان ١٠٪ من النباتات الزراعية في الولايات المتحدة تنلف كل عام ، وأن الأمل ضعيف في استمرارنا على معدلات ما تلقى به من اطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضى الزراعية ، وان الفئان الواحد من الاراضى القريب من مستنقعات مصب لونغ آيلاند بالولايات المتحدة والتي تم رشها بمادة الـ د.د.ت منذ ربع قرن ، يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

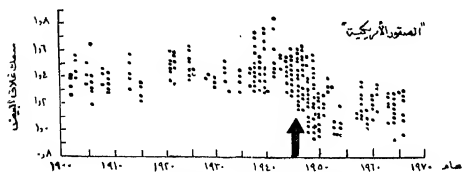
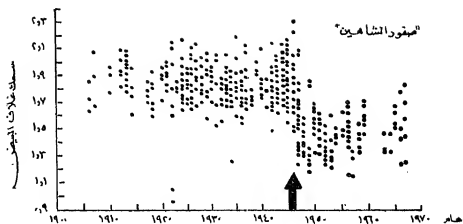
وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجة خطيرة في مقدرة الطيور على انتاج (البيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها في افلفة رقيقة للغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد أجريت التجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد في سُمك قشر البيض في الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهى الفترة التي

انتشر فيها استخدام مادة الـ D.D.T. كذلك فإن أسماك السلّمون في بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركيزات منها في عينة اخذت من أسراب هذه الاسماك والتي ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صفار السلّمون) في عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذه المادة . وحدث نفس الشيء لبعض الاسماك البحرية التى تصدر مثل التونا والمكاريل والقُد . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم الإيكولوجية واختزالها، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فالآفة أو الحشرة التى تبدو في بادئ الأمر وقد وقعت تحت تأثير هذه المبيدات أو حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد أكبر بكثير من ذى قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين في وادى كانيت الساحلى في بربو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتار عام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خيّل اليهم ان مزيدا من هذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادى كله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الاشجار لكى يتمكنوا من رش المبيد بالطائرات فماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كما اختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات، وكانوا يقومون باستخدام هذا المبيد في فترة مبكرة عن فترة رشه في العام الأسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض لمحصولاتهم من الآفات، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها في عام ١٩٥٤ عندما فشلت في القضاء على دودة ورق الطياق . وبلغ البلاء أقصاه من دودة القطن في موسم عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عندما ظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل في هذا الوادى ، بالإضافة الى زيادة في مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك في الموسم المشار اليه الى ٣٣٢ كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلة التى استخدمت من المبيدات ، وبالتالي حلت كارثة بالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن عندما اعطت نتائج عكسية تماما .

وتحدث هذه المبيدات تأثيرات أخرى على التربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الإيكولوجي للحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضى هذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسؤولة عن تحويل النيتروجين الى صورة ملائمة لتناول النبات له ، وهى مسؤولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية ولازمة للنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل أو التلف الذى تتعرض له بعض الدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون في الطبيعة . . انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره . . اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات . . (انظر الشكل رقم ٨) .

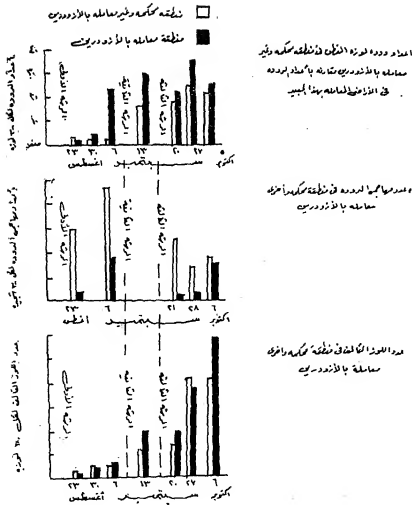
بيئة العمر : بين البناء والفتاة



(مكتبة المبررات علمي التطوير الجاد)

الفتيات التي تقرأ على مسدأ غامض، بعد المستور (في بريطانيا) وتكثر اشغالهم
السبب في ذلك فترة المستور الذي لا يراه الله د. د. د. د.

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التي اجريت لاستعمال سادة الآزودرين المبينة لفودة لوزة القطن على ان لهذه المادة فاعلية وتأثير واضح على مهاجمة هذه الدودة اكثر من فاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثم قلما ازداد استعمال الآزودين كمبيد حشري ازاد تلف الحصول .

اما مبيدات الأعشاب Herbicides فقدزاد استخدامها في السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعية الميكانيكية والأيدى العاملة ، وذلك للمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية ، وارتفع معدل استخدامها حتى عن معدل استخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تأثيرها على قتل النباتات إما عن طريق التفريز التي تحدثها في خلال هذه النباتات فتتموت وتسقط أوراقها ، أو عن طريق حرمانها من مقومات اتمام حصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموت أيضا . ومن أهم هذه المبيدات مادة (2-4-D) ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الأمريكية المسلحة في فيتنام لإبادة الأعشاب التي كان يلجأ إليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقها أو هوى في طريقها الى الموت . وينبغي أن نلاحظ أن ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمل على انقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الغطاءات النباتية .



مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الى عالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization ولقد قام كنجزلي ديفز بإجراء عدة دراسات خاصة باتجاهات التحضر واستقطاته ، وتوصل الى أن نصف سكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو التحضر على ما كان عليه عام ١٩٥٠ . أما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فإن سكان العالم كافة سيكونون سكان مدن ، بل أن حوالي نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفي عام ٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع في ضوء هذه التوقعات أن يصبح تعداد أكبر مدينة في العالم ١٣٤ بليون نسمة . (١٨)

قد تكون هذه الأرقام مزعجة في الواقع ومثيرة . لكن الأكثر إزعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل في ضوء ما هي عليه مدن العالم . لقد قد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد في الواقع . ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة عدة دراسات حول ما يعرف بالتلوث الضوضائي Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الأخلاقية التي انحدر بها بعض سكان هذه المدن فأضفت على المدينة ستارا كثيبا من الحياة ، وأصبح السكان في كثير من المدن الكبرى اليوم في حالة قلق دائم ، مع تزايد الجريمة وتشويه حياة المدن بالاصوات المزعجة لوسائل النقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذي يعم المرافق العامة فيها .

اما عن الضوضاء ، فما أقبح ان يمسق سكان المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مفادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت في الشعورين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعاً لذلك بين صوت التنفس العادي وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل أى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريباً منه عند الإطلاق .

وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة نقداً مؤقتاً لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء أقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملاً هاماً من عوامل الإصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التى أجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تأثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

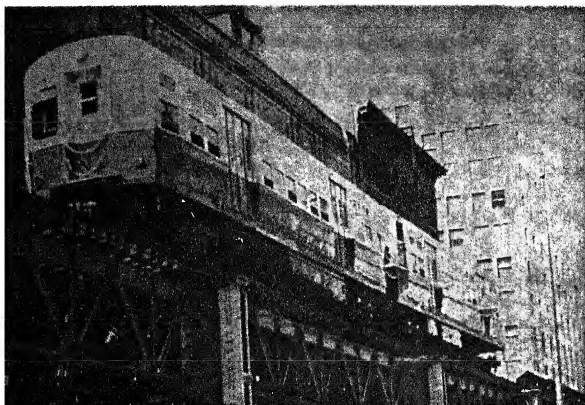
وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات يشتت أحجامها وأنواعها مختلطة بأصوات الدراجات البخارية واجهزة الإنذار البوليسية وصغارات عربات الاسعاف والمطافئ ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون في المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق اوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما في داخله ، فبالإضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الأسرة ، ومن هذه الاجهزة المكائن الكهربائية والخلاطات والفيسالات وماكينات الحلاقة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددتها ، كما تختلف التأثيرات السيكولوجية تبعاً لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصور محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقاً ومدمراً للأذن ، ولكنه في نفس الوقت قد يعطى تأثيراً نفسياً مغموراً بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماماً كما يعتمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب في مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيراً فريداً عليهم حقيقة .

- اما وسائل النقل الجوية ممثلة في الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنفصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانئ الجوية التى تستقبلها . ولقد ثبت فعلاً ان الصدمة التى يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديداً مباشراً وخطيراً للاسماع . كما ثبت فعلاً اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة في مواسم الطيران الزائد .

وبالإضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الأنهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيء على السكان القريبين منها ، كما ان أصوات

بيشة مصر: بين البقاء والبقاء



شكل رقم (٩)

(التلوث الفوسفاتي بمدن اليوم)

لأنك ان وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حدود المعقول في تأثيرها الفوسفاتي .

موسيقى الجاز الصادرة من أجهزة الصوت المجسم تعتبر هي الأخرى ، وقد بدأت تجلب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيل وهو مستوى مدمر للأذن لو تعرض لها الإنسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التي هي فن وجمال ، ننسى تأثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآتية .

ويؤكد صامويل رذون أحد رواد البحث العلمي في الأصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناتج من شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدي الى تضيق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، ويؤثر الضوضاء في الإنسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة لتلف الخلايا الشعرية المجهرية الناقلة للصوت من الأذن الى المخ ، الامر الذي قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها ، وأما بضعف السمع ضعفا مزمنا . .

وبالإضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الضحى والضوضاء التي تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التي بدأت تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتوضح هذه الصور في العينات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى انقاص . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، و تلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة في المدن ، انما يؤدي الى عدم تقارب الأفراد والأسر ، وضعف في العلاقات العامة والتعارف بين الأفراد ، مما يتسبب في توترات نفسية .

وفي هذا المجال يقول العالم السيكلوجي زيمباردو P. G. Zimbardo ان الضغوط الحضارية في المدن انما تعمل على تحويل الأمريكيين الى جماعات من القتل وسفكى الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التي أجراها حول العلاقة بين ما يعرف بالغفلية Anonymity والاعتداء Aggression ، وعن طريق الدراسات الميدانية كما يعرف بالوندلisme Vandalism وهي التخريب المتعمد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . ففقد رصد في الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالي ٢٢٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكر ان العشرين قد قاموا في عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠) جهاز تلفون عمومي في نيويورك فقط . بالإضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شبك مدرسة ، واطفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات في نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة أيام بلا سبب وامام المارة وفي وضع النهار (١) .

ومن دراسات أخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية في المدن ، ولقد اوضحت الإحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الأمريكية (وهي اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقة والقتل والجنس ذات ارتباط واضح بمناطق الكثافات العالية في هذه المدن . هذا بالإضافة الى ان هناك امراضا أخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكاني في المدن .

ففى أواخر الستينات أجريت عدة دراسات فى مائتان من تأثير الازدحام على السكان ، فوجد ان هناك حوالى ١٨.٥ ٪ من السكان يعانون بدرجة أو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياء الفقيرة او المرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى او الطائفى من اهم العوامل التى تقترب بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن اهم امراض هذه الاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ، واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذا بالإضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشرى والتاوى وارتفاعات ضغط الدم . ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشديد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلك يستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصر .



البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكل رقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافة فى هذا العالم . وتضيف الاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وعن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٢ آثارا لا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلك نتيجة لتلك التجارب على تفجيرات القنابل الهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما أعقبها من ترسب لسحباتها المحملة بالضخمة على سطح الأرض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجة عن هذه التجارب انواعا جديدة من الفترات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددت فى الهواء والمياه ومصادر الغذاء واستقرت فى اجسامنا . وتبعاً لخواص بعض هذه المواد فقد تركزت فى اجزاء حساسة من اجسامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للغباء الذى التساقط عن تجارب القنابل الذرية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرة .

وخلال التجارب النووية التى اجرتها الولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدثون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظر عنصر معين من عناصر الفباى الذى التساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونيتيوم - ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحوث مستقلة لهم . ولقد ابتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذات مدى زمنى طويل ، وهو من الناحية الكيميائية يشبه الكالسيوم ، اى انه يتركز فى

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بدء الحياة السروع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عن الصخور بدرجة طفيفة تألف منها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

نفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار
الذرى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

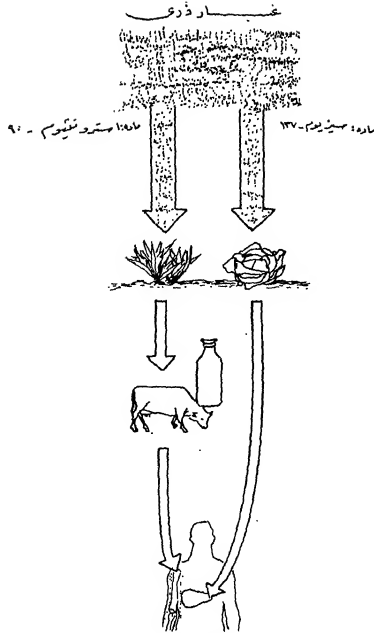
العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كمعظم الأجنة في الأرحام والأطفال الصغار ، ويصل إلى هذه العظام عن طريق ترسب في الأعشاب والنباتات التي تتغذى عليها الإقار ، وبالتالي يتركز في البناها. وقد يسبب عنصر الاسترونسيوم - ٩٠ هذا مرض اللوكيميا أحد أنواع الأمراض السرطانية ، فهو - أي هذا العنصر - بهاجم الأجنة فيسبب تشوهات خلقية للأطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم أحيانا . ولما كانت مثل هذه الأعراض تحدث نتيجة لأسباب أخرى ، فإن تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الفبارالدرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، إلا أن من بين التجارب العديدة التي أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية تحت الأرض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الإشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما إلى كندا . (شكل رقم ١١)

ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فإن سباق التسلح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية ، فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانعه إنما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الأرض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الأمطار لها إلى باطن الأرض ، ومن ثم تتسرب إلى مياه الأنهار لتلوثها بالإشعاعات .

والأخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والتريتيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث أخطارا إشعاعية مباشرة وكثيفة ، وتكفي في نفس الوقت لخلق أخطار تستمر عشرات السنوات إن لم تكن مئات . فعنصر الاسترونسيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، أي أن ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة إشعاعية ذات أخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الإشعاعي الذي ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المهدنة في قلب المفاعل . وبعد سنة أو سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل إلى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الإشعاعية منه في محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا وربما إلى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الإشعاعي ، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة . وينبغي عدم نفاذ هذه المواد إلى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبنية من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الأرض ، ويتسع كل خزان منها حوالي مليون جالون ، ولو أن ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الأرض لوصلتهم جميعا ، وعرضت أجسامهم إلى نقطة الخطر الإشعاعي . ومع هذا فإن مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذرى المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذرى المتساقط لا تكمن أساساً في الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى في الطريقة التي تصبح فيها الجزيئات الإشعاعية مركزة في مجرى السلسلة الغذائية ، ومن هنا فان مادة الاسترونشيوم - ٩٠ للنفسر الإشعاعي تمتصه الماشية أثناء تغذيتها بالأعشاب الملوثة ، ثم تنتج هذه المادة الى الانسان من خلال تناوله اللبن والجبين ، ثم ينسب في اصابة الانسان بسرطان العظام . اما مادة السيزيوم - ١٣٧ الاقل ذوباناً ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الانسان حيث يتركز في الاعضاء والأنسجة الدقيقة مثل الكبد والفرد التناسلية وفي هذا خطر جسيم على كل المورثات (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقتطع. بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل في أحد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ ألف جالون من تلك المادة المهلكة اخذت طريقها المجهول في التربة . (٣٦)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تسرب من العناصر الإشعاعية الخطيرة .
وتحدد كذلك الجرعات الإشعاعية المسموح بها للعاملين في المصانع الذرية وللعمامة من الشعب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي الفئة الأخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الأولى ، وهو بذلك أقل من مستوى الخطر الإشعاعي . إلا أن الدلائل تشير إلى أنه في حالة استمرار العمامة من الشعب الأمريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الإشعاعات ، فإن ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنوياً بسبب السرطان . وإن كان هذا العدد ضئيلاً بالنسبة لسكان الولايات ، إلا أنها نسبة كبيرة لأفراد من الجنس البشري يموتون بسبب تغيرات متعمدة في الظروف البيئية .

أما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فإن الأخطار ستظل تهددهم ، كما أن إنتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والبروتينيوم واليورانيوم تنطوي على إنتاج نفايات إشعاعية تستعمل في إنتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الأنهار والبحيرات بدرجة تؤثر في الحياة المائية . ولا شك أن التخلص من هذه النفايات الإشعاعية إنما يعد من أخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع أننا لم نتحدث في كل هذا عن أخطار الحرب النووية لو أنها - لا قدر الله - قامت . ويبدو أن المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع .. أو هكذا نوهم . فبالإضافة إلى القتل الفوري للأرواح البشرية ودمار الممتلكات ، فإنها سوف تؤدي إلى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

إن ما يمكن أن يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين ودول أوروبية نووية أخرى له تأثير خطير على كل أجزاء العالم . سوف تتوقف فوراً مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة إلى الدول الأخرى . وسوف تمتنع الأولى عن مد الدول الأخرى بالبذور ذات الإنتاجية العالية والأسمدة والأحجوب الغذائية . والجرارات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة تكون العالم اليوم في ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفي حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل ذاعة الحاصيل في مناطق عديدة ، كما أن اندلاع النيران الهائلة في نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدي إلى إرسال كميات هائلة من الحطام والهباء إلى الفلاف الجوي إلى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراتاته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعاً لذلك تغيرات جذرية للظروف المناخية في سائر أنحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كتطبيقات الغابات الهائلة في عروضاها المختلفة

شمالاً وجنوباً ، ولتولدت مواسف نيران رهبة ، تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينما قامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طناً من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة هامبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ ألف قدم ، وبلغت درجة حرارة المناطق المغطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهايت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلاً في الساعة ، وسخن هواء الملاجئ المحفورة تحت الارض لدرجة كانت تشتمل فيها المواد القابلة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجئ للدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتح للتهوية مرة كل عشرة ايام عادة في الظروف العادية .

لا شك ان حرباً كهذه سوف تسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الغطاء النباتي هو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عمقا جزئيا او كلياً ، كما ستعمل الأمطار على جرف الطبقة العليا منها . ولتتخيل مثلاً تجرد تلال كاليفورنيا من غطائها النباتي وسقوط الأمطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي واللحطام المشع الذي سينجرف من القارات الشمالية الى المياه بعيداً عن الشاطئ . ولتتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماماً بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على اليابس المجاور ، وستندفق فحواها الى مياه المحيطات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٣)

اما الاحياء الذين سيقون بعد اي حرب كهذه سوف يعيشون في بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما سيتركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافياً وحضارياً لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعات البشرية الى اشبات مبشرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثية المقددة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءاً ضئيلاً فقط من التنفيرية الوراثية للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقداً اكثر لهذه التنفيرية ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقية التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصراً على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقياً ومدمراً لمن سيبقى على الارض من بعدها .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت في احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفي خلال الربع قرن الاخير استنفدنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفد في كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا في أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها في سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا في ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو المعن حصره في هذا المجال . فهناك تهديدات اخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتعرضه البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدخان واللحم وبعض اواني الطبخ وانابيب الميساه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجروثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالإضافة الى الخل الذي يمكن ان يحدث في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية في مقال واحد او لتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثة المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا في الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيرتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفاننا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث في القرن التاسع عشر ، الا اننا لا نلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم في ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، ام ان الزمام قد نلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى في المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعادت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل في بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٤)

See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

(٢٥)

نظرة أخلاقية للمشكلة :

يبدو ان العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بإيجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، فكثيرا ما تعرض العلم للهجوم والظفان عندما يصبح جريشا في المناقشة، نزها في البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادئ الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادئ . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت في العصور الوسطى ، كما تعرض لفضال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا في الماضي - وخاصة في نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة في الدين ان نضرب المثل بمبادئ الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك في مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفي روما تحت حكم الاباطرة ، وفي الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة في المجتمع . وحديثا - وللأسف - اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادئ الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والداهب الدينية الاخرى، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على اعلى مستوى ، ولقد اصبح من العسير في هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية في حدود السرقة او الإيذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر في الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق أصبحت الآن تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بعبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايأ احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا في الحدود العلمية ، فهي توصف بلفظة الروتجينات والميجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي ويعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الإيكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قنصاع العلم والتكنولوجيا ، وأن الجريمة الاخلاقية الكبرى في وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها في تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر تحتاج الى اعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي في البنىء الاقتصادى الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية في تنظيم المدن ، ولكي تقضى على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

وهكذا نصبح في حاجة لمظلة عقلية او غلاف عقلي Nodsphere نتفحصه جيدا ،
لانه سوف يعطينا الفرصة للوصول الى حل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف
عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف أو البنوك التي تحل
المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضة ، ولا يمكن ان
نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش في مجتمع أبسط وحياة أكثر إشراقا ، بل ان طبيعة الإنسان
هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث أصبح سيدا على الأرض
دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا في الختام لا نستطيع ان نعبث لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم في نظم البيئة والمجتمع،
تلك الأنظم التي هي أساس التوازن في تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى
جنب مع العديد من المبادئ الايكولوجية الأخرى، المبدأ الأساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس
بيكون في القرن السابع عشر عندما ذكر انفسا لا نملك حق اصدار الأوامر للطبيعة، بقدر ما نملك
من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢٦) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل افراده ، ومن الحكومات والاجهزة
التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعانتها
في مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمال موارد الثروة في ضوء احتياجات المستقبل ..
وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان
العالم .. فهل يكون الحل في الحد من تزايدنا .. ام في ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجية
والنظم البيئية التي تعمل في توازن دقيق .. ؟



أهم المراجع

أولا : مراجع عربية :

- جوزويه دى كاسترو « جغرافيه الجوع » ترجمة زكى الرشيدى ، القاهرة (الالف كتاب - رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .
- عبد المحسن صالح (دكتور) : « المدن الحديثة ومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .
- محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت (١٩٧٥) .
- « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٢) .
- « الانسان والبيئة » القاهرة - مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٦) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

- Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.
- Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.
- Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.
- Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.
- Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.
- Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.
- United Nations : " The Determinantseon Consequ nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.
- Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

الدوافع والخوافز بين النظرية والتطبيق

* منصور احمد منصور

مفهوم دوافع العمل

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work حول دراسة طبيعة الانسان العامل Human Nature وسلوكه او تصرفاته Human Behavior . والفرض من هذا هو التعرف على حاجاته الانسان ، ورغباته ، ثم محاولة اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات . والهدف الاخير Ultimate Objective الذي ترمى اليه المنظمات العاملة ، هو

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقا لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل أو الترغيب فيه ، باعتباره أسلوبا إنسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، وبلذ طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق أهداف المنظمة ! .

* دكتور منصور احمد منصور استلا مساعد بقسم ادارة الاعمال - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث في الإدارة العامة والعلوم العاملة .

١ - تنادى النظرية المذكورة بخمس مبادئ :

(١) مبدأ امتياز المنظمة نظاما اجتماعيا ، (٢) مبدأ القيادة ، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية قدرات العاملين .

أو معنوية ، في الحال وفي المستقبل ، ومن ثم فإن الإجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالإجابة عن السؤال الأول ، من وجهة نظر الحوافز التي تحرك دوافع الإنسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكرس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق أهداف المنظمة .

السلوك الإنساني

إن دراسة السلوك الإنساني Human Behavior في العمل ترتكز أساساً على قدرة الرجل الإداري في فهم طبيعة الإنسان وبغرض توافر هذه القدرة ، فإن فهم طبيعة الإنسان تتطلب أن نمطى المدير قدرًا من الوقت أو الزمن . ومن ثم فإن الجهود التى تبذل في اختيار الأفضل من الناس مقدرة وسلوكا ، لا تكفى في حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة . وهذا لا يتأتى إلا بالممارسة الفعلية لواجبات ومسؤوليات الوظيفة من جانب الموظف . ولهذا أخذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعييناً « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ أشهر إلى سنة) يمكن دراسة سلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة إبقاءه أو إبعاده دون مسئولية في تعويضه أو التزام بقبوله عاملاً .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الإنسانية على أن نشاط الإنسان هو تعبير مادي لسلوكه ، ومن ثم فإن السلوك الإنساني يعبر عنه بمجموعة من الأنشطة الإنسانية . وتتمثل هذه الأنشطة في طريقة سير الإنسان

تحقيق أهدافه من طريق إشباع حاجات القوى العاملة ، وتحقيق رغباتها الأمر الذى يدفعها إلى العمل والإنتاج Productivity وهذا يعنى سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالأسلوب الذى يحرك قدراتهم الفنية والعلمية والعملية ووسمها في خدمة الأهداف .

ومد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل، أو ترغيب العامل في العمل والاستمرار فيه بأنه الرغبة الإنسانية Willingness في الاستجابة إلى متطلبات المنظمة ، أى تحقيق رسالتها أو أهدافها (٢) - The Accomplishment of Organizational Missions)

وأحد بالمعاني العالية المختلفة لدوافع العمل أو ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسة هذه المفاهيم وتحليلها فإنها جميعها تدور حول الإجابة على الأسئلة الآتية : -

الأول : ماهي النوازل الفنية أو العلمية التى تتمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الانعام من الناس للالتحاق بوظائف المنظمة ؟

الثانى : ماهى الحوافز ، المادية أو المعنوية التى تتمكن المنظمة من تطبيقها للإبقاء على الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الأمثل من الكفاية والإنتاجية Productivity ؟

ولاشك أن السؤال الأول يعنى الاهتمام بدراسة السياسة الإدارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه السياسة وبين الحوافز التى تقدمها المنظمة للعاملين لديها . إذ أن اختيار وترغيب الكفاء من الناس ، يقتضى « اغرائهم » بما تقدمه المنظمة من مزايا أو حوافز مادية كانت

الانسان بالتعبير عن السعي .

ممل معين ، الامر الذي يؤدى

حاجاته أو رغباته أو أهدافه .

ذلك بالشكل (رقم ١)

من الشكل رقم (١) سرور

الاسباب (why's) الحقيقية

الحركة للانشطة ، وبها يسعى

السلوك ، وتلك الانشطة ، وبها

مرتعا للأبحاث السلوكية .

التي ينطلق منها أنواع السلوك

(Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى يرى من

أن الرغبة أو الحاجة (Desire)

تمثل الغاية أو الهدف (target)

يسعى الانسان الى تحقيقه أو

بالدرجة أو المستوى الذى يراه

نفسه منها . ومن ثم يعنى الفسار

الى اشباع حاجة ، أو تحقيق غرض

الحركة لدوافع الانسان

وتحديد نشاطه ، الذى قد يجعله

الحاجة أو تحقيق الغاية .

العواطف

وتطبيقا لما تقدم فان مؤثر النفس

كيفية اختيار «الحافز» أو

التي تحرك دوافع الانسان

وأدائه لنشاط أو انشطة مهمة

أو بالاسلوب الذى يحقق له أهدافه أو

وبمعنى آخر يتعين اقامة صلة مباشرة

بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرغبة

ومن ناحية أخرى فان اسباب

الانسان العامل أو تحقيق وغرضه

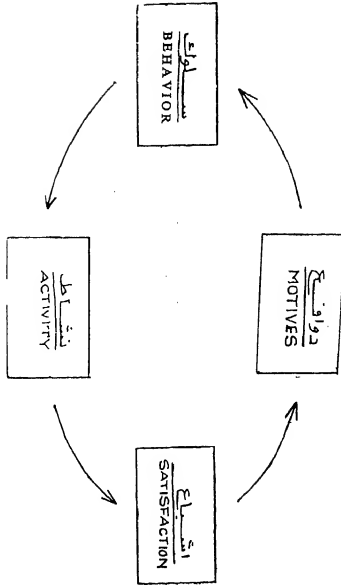
المنظمة يقتضى أن يحدد مسرعة

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه فى العمل ،
واسلوبه فى أداء الواجبات والمسئوليات
الخاصة بعمله ، وقد يؤدى الانسان أكثر من
نشاط فى وقت واحد ، كالتحدث مع زميل فى
العمل أثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة
بعمله .

ولا شك ، أن الانسان له قدرة على أحداث
تغيير مفاجيء فى سلوكه ومن ثم فى نشاطه ،
كما أنه يستطيع التوقف عن نشاط أو انشطة
معينة وتبديلها بغيرها . . كما أن للانسان
قدرة على الإبطاء فى ممارسة نشاط معين ، أو
تأجيله أو إنهائه بصورة أو بأخرى . هذه
الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما
هو الدافع أو الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط
معين دون غيره ؟ ما هى الاسباب فى تغيير
الانسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم فى نوع
نشاطه أو الانشطة التى كان يزاوئها ؟

وتكون هذه التساؤلات أكثر أهمية ، اذا
ارتكزت على سلوك الانسان وتصرفاته فى
العمل . ومن ثم فان مناهج الصعوبة ، يتمثل
فى ايجاد الوسيلة أو الوسائل التى تمكن
الرجل الإدارى من فهم سلوك العاملين تحت
رؤاسته أو إشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا
السلوك واخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق
أهداف المنظمة ، والطريق الى هذا الفهم ،
وخلق هذه القدرة أو تنميتها لدى المديرين
يتمثل فى ضرورة الإلمام بالدوافع أو الحافز أو
الحاجات (Motives or Incentives)
البشرية التى تؤدى الى تكوين السلوك المرغوب
فيه فى وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين دوافع
الانسان واشباع رغباته أو حاجاته . فالدوافع
تدفعه الى سلوك أو تصرف معين ، ويقوم



شكل رقم (١)

إشباع حاجات ورغبات الإنسان

نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية في تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية)، توصلا إلى تحقيق رغباتهم وأمالهم الدالية .

ولهذا فإنه قد يكون من الضروري للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقوة فاعلية (Intensity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما أنه من الضروري اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها أو تنوعها تبعاً للتغيير في رغبات الأفراد . وهذا لا يتأتى إلا عن طريق اجراء الأبحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات عديدة على أنه يتعين توافر شروط محددة في تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للأجر مثلا فإنه يتعين تحديده وهو أحد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، **العدالة ، والمساواة والكفاية** . أما الحوافز المساعدة أو الإضافية ، فيجب توافرها ما يلي عند اختيارها وأقرارها : -

١ - سهولة فهم السياسة التي تقررها المنظمة في تقريرها للحوافز

(Easily Understood) .

٢ - عدالة الحوافز وكفايته (Equitable)

٣ - ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية أو البدنية أو السلوكية التي يبذلها العامل في تحقيق الحد الأمثل للانتاجية (Directly related to effort)

٤ - اقرار صرفها أو أدائها للعاملين نى مواعيد محدودة ومتقاربة (Based on short Payback period)

٥ - ارتكاز الحوافز على أسس أو مستويات مقبولة . (Based on relevant standards)

إلى تحقيق أهداف المنظمة ، ومن ثم فإنه يتعين إقامة صلة أخرى وثيقة بين أهداف المنظمة وأهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والافتتاح الإنساني بأن تحقيق أهداف المنظمة ضروري لتحقيق أهداف الجماعة في المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الآتي رقم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) إلى أن اشباع حاجات الإنسان العامل وتحقيق رغباته مرهون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبطة بها ، بمعنى أن تحقيق الأهداف شرط لازم لتمكن اشباع حاجات الإنسان ورغباته . وإذا أردنا إعادة صياغة هذا في أسلوب أكثر دقة وسهولة، فإنه يمكن القول إن الحد الأمثل لانتاجية العامل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهري في اشباع الحاجة أو تحقيق رغبة الإنسان العامل .

على أن ما تقدم لا يعنى قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة أو تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها في الوصول إلى الحد الأمثل في الانتاجية . بل أنه يجب التفرقة بين ما يسمى بالحاجات أو الحوافز الضرورية أو اللازمة (Primary Incentives) وبين الحوافز المساعدة (Auxiliary Incentives) .

وتمثل النوع الأول في الأجر المحدد للوظيفة ومشتملاته ، وتمثل النوع الثاني في كل المزايا أو الحوافز ، التي تقررها المنظمة مادية أو معنوية بالإضافة إلى النوع الأول تشجيعا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الأمثل في الانتاجية ومن ثم فإن النوع الأول من الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضرورية التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة إلا في الأحوال التي يجوز فيها ، أو يتعين معها اتخاذ أمر يؤثر على صفة الاستمرار أو الانتظام في أدائها ، أما الحوافز المساعدة ، فهي التي تقررها المنظمة لجميع العاملين أو لبعضهم بشروط معينة ، تشجيعا لهم ، لتوجيه

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة ،
تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم في
تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح
اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى
جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية
(Group Incentives) او بصورة فردية
(Individual Incentives) . (٤)

ويصور الجدول (رقم ١) اهم المزايا
الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة في
الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كإطار لقطاع
الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .

الاستثمار أو الانتظام في

(Continuous rather than S...

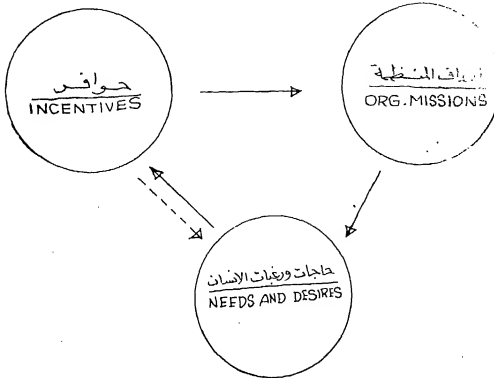
ارتباطا مباشرا ووثيقا برسالة

(Related to Organization's...

تسألها اتصالا مباشرا

، اعته (٢) Drives

تتمتع المزايا الاضافية في



شكل رقم (٢)

تحقيق أهداف المنظمة

- Robert A. Sutermeister, *People and Productivity* (New York : McGraw-Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, *...*
- David W. Belcher & R. H. Leukert, *Job Evaluation* (Englewood Cliffs, N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

جدول رقم (١)
أهم المزايا الإضافية التي تمنحها بعض
المنظمات العاملة

مسلسل	نوع المزايا الإضافية	أمثلة
١	مزايا إضافية مقابل عمل يؤدي	<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للإجازات الرسمية - المزايا المالية الإضافية في الثوبات الليلية . - المزايا المالية عن عمل وقت إضافي - البديل النقدي للعمل في الإجازة الأسبوعية
٢	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	<ul style="list-style-type: none"> - مكافآت الأعياد السنوية - مكافآت المواظبة على الحضور - مكافآت الجودة في الانتاج - مكافآت اتباع تعليمات الأمن والصيانة - مكافآت الخدمة الممتازة - مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . - مكافآت نهاية السنة المالية
٣	مزايا نقدية غير مرتبطة بساعات العمل :	<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للإجازات غير الرسمية - الأجر المدفوع للوقت الذي يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للإدلاء بصوته في الانتخابات أو الإدلاء بشهادة في المحكمة . . . النع - الأجر المدفوع عن اوقات الراحة اليومه . - الأجر المدفوع عن اوقات تناول الفداء - المزايا المالية المدفوعة في حالات وفاة أحد أفراد الأسرة . - المزايا المالية المدفوعة للوقت الذي يستغرقه العامل في تغيير ملابسه أو الاستعداد للعمل .

تابع جدول رقم (١)

امثلة	نوع المزايا الإضافية	مسلسل
- أقساط التأمين التي تدفعها المنظمة لصالح العامل . - المزايا المالية الإضافية في حالات المعجز . - المزايا المالية الإضافية في حالات الرماية الصحية ، والعلاجية والجراحية . - أقساط التأمين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . - الضمانات المالية التي تؤديها المنظمة لصالح العامل .	المزايا الإضافية في نطاق حماية العامل :	٤
	مزايا إضافية للخدمات	٥
- توفير المطاعم في مكان العمل - توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية - توفير المساكن للعاملين - تقديم منح دراسية وتدريبية - تقديم استشارات فنية وقانونية		

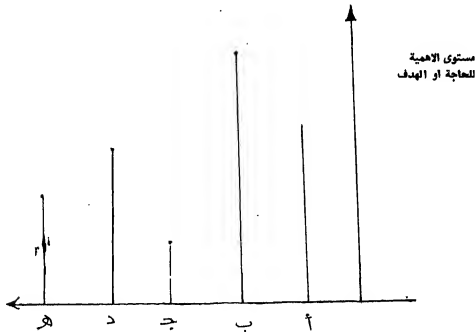
الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها في وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه في اتجاه تحقيق اهداف المنظمة . وتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل في اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظرا لتعدد حاجات الافراد في وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات او تحقيق تلك الرغبات التي تمثل

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التي تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التي تمثل الحاجة او الرغبة الملحة والهامة والقوى لدى العاملين . ومعنى ذلك ان حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة في اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة ان تختار الحاجة او الهدف الذي يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين في وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) ان الحاجة او الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الهمية لدى الانسان في وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة او تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق اهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل



شكل رقم (٣)

اهمية الحاجة او الهدف

اسباب عديدة منها ان هذه الابحاث تحتاج الى وقت لوضعها موضع الاختبار الفعلي في مجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالابحاث السلوكية في الدول عامة والتنمية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للابحاث والتجارب في ميدان العلوم السلوكية (٥) .

على انه مما لاشك فيه ان هذه الابحاث قد ارسيت مبادئ هامة واساليب فنية ، وافكارا تركز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية في مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن ان بعض هذه الابحاث نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للعديد من هذه الابحاث وتلك لتجارب (١) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بدأها ماسلو (Maslow) من النظريات التي اخذت مسارها في التطبيق وارتكر عليها كثير من المفكرين والكتاب في ابحاثهم وابتكاراتهم في مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو ان هناك خمس حاجات للانسان لها اهمية تصاعدية او هرمية . هذه الحاجات تتمثل في:

(١) الحاجات المادية او الضرورية

(٢) الحاجة الى الامان والضمان
(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة الى التقدير (٥) الحاجة الى الاحراز او تحقيق أقصى الآمال او الطموحات .

آمال واهداف النسبة الغالبة من الافراد . وهذا لا يتأني الا من طريق الابحاث العلمية في مجال الحوافز .

الثانية تتمثل في ضرورة خلق الشعور العام والطمانينة لدى الافراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة بأشباع هذه الحاجات او تلك الرغبات وضمان ذلك في المستقبل . ولا شك في ان هذه الصعوبة تقع مسبوئية حلها على الإدارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل في الشعور العام للجماعة او الافراد بتوافر امكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها في مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في ان السياسة المعلنة في مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة في مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة في مجال سلوك الافراد في المنظمات العاملة على ان البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه واهدافه ووسائل تحقيقها

ابحاث الدوافع :

تعددت الابحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتعطيها ركيزة الاعتماد عليها في المجالات المختلفة في المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا الى

٥ - د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، الادارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، اكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الادارة اتحاد جمعيات التنمية الادارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ - تدل الدراسات على ان اهم نظريات الدوافع والحوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الانسانية ، (٤) نظرية التفصيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة . (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس .

١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، وأجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين في العلوم النفسية .

وتتلخص أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ - يتطلع الإنسان لأشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقاً للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئاً بالحاجات الضرورية (الأجر والأمان والطمأنينة في العمل) .

٢ - ليس بالضروري أن يستمر هذا الاتجاه ، أي تسلسل أشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لأشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ - بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع أولئك الذين حققوا نجاحاً في عملهم ، لأشباع المستويات العليا من الحاجات (الرغبات) تاركين أو غير عائنين بالمستويات الدنيا منها (كالأجر والأمان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع أساساً إلى أن هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها في التسلسل الإداري ، ما يضمن لها الأجر والأمان والطمأنينة في العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحاً ملموساً في العمل ، ألا أن الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحاً ، يتمثل في أن الفئة الأولى تكون أشد حماساً وأكثر اهتماماً بأشباع هذه الحاجات .

٤ - أظهر المديرين (الناجحون منهم والأقل نجاحاً) اهتمامهم بأشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والإنجاز ، وكانوا أقل اهتماماً بالأجر والأمان والطمأنينة في العمل مثلما كان الأمر عند بداية خدمتهم .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على أن نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نموذجاً رائداً في مجال دراسة طبيعة الإنسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وأبحاث بناءة في مجال الدوافع والحوافز ارتكازاً على الحاجات الإنسانية الخمسة التي جاءت في النموذج الذي قدمه ماسلو تعرض بعضها في إيجاز .

الحاجات المادية : أجري العديد من الأبحاث لمعرفة مدى وأهمية الحاجات الضرورية أو المادية لحافز أو دافع للعمل . وقد أشارت هذه الدراسات والأبحاث إلى أنه غالباً ما يرتبط إشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس الخ بوفرة النقود . على أن الأفراد لا يهتمون بالنقود في حد ذاتها ولكن نظراً لكونها أداة (Tool) تمكنهم من إشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فإشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) إلا أنه مما لا شك فيه أن النقود وظائف أخرى قد تكون أكثر أهمية ، وأعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الأبحاث التي أجريت في مجال النقود كأداة لأشباع الحاجات الضرورية ، أنها باعث أو دافع مقعد ومتشاك . كما أن أهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعياً لأشباع حاجات أخرى طبقاً للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا أن النقود تلعب دوراً هاماً وحيوياً في إشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الأهمية في التناقص كلما ارتفعنا في سلم درجات الحاجات .

وأجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختيار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفاً ميسواً بالإدارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الأمريكية عام

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :

ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان او يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانينة ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة في اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومة الفرد (Resistance) للمنظمة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معها (Uncooperative) .

وتشير هذه الدراسات الى ان الانسان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا في حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات او اهداف اخرى ، فقد يرغب الانسان في الانتماء الى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها في مسائل او آراء او معتقدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطوير الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قد تختلف فيما بينها من حيث المبادئ التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة في خلق مشاكل اجتماعية تموق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق أو الملل ، يميلون الى صحة من يشاركونهم نفس الشعور، وقد أكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

الحاجة الى الامان : تمثل هذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية في اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتمثل هذه الحاجة في محاولة او رغبة الانسان في ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد أسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة في حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميول الانسان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الإجابة على أهمية حاجة الانسان الى الامان واثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانينة أمر يرتكز على الواقع وتؤيده الدلائل . ولاشك في ان الدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامان والطمانينة . وتمثل وسائل اشباع هذه

الحاجة في التأمينات الاجتماعية (Social Insurances) والمساعدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال في اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل بشروط خاصة (كما في بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العمالية ، على اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساهمات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال في الدول المتقدمة وعلى الاخص الرأسمالية منها) .

في مثل هذه الظروف المشار إليها تبدأ الجماعات غير الرسمية في الظهور والتكوين بالنظم ، وتأخذ في النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها على الإنتاج . والانتماء إلى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الإنتاج (Restriction of Output) ما هي الا أحد الامثلة لنشاطها في مجال الإنتاج . على أنه ليس بالضروري أن تكون هذه القيود وليدة كراهية أعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لإدارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على أعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول إلى أهدافها .

وجدير بالملاحظة أن الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين أعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفلد حدود معدلات إنتاجها أو أدائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدي إلى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة أفرادها والأهمية التي يجب أن تكون عليها .

وخفض الإنتاج ليس بالضرورة أن يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . إذ أنه يمكن للإدارة الواعية أن توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستخدامها كركيزة تنطلق منها لتحقيق أهدافها ، وذلك إذا استطاعت الإدارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك أنه إذا ساد الشعور لدى أعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين أهداف المنظمة وأهدافهم الذاتية ، فإن إنتاجهم تميل إلى الانخفاض . أما إذا كان تحقيق أهداف المنظمة سيعمل على تحقيق أهدافهم الشخصية فإن إنتاجية الجماعة سوف تميل إلى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فإن المنظمة سوف تتمكن من تحقيق أهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة أو مسيرتها نحو

على أن تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) إنما يرجع أساسا إلى شعور الجماعة بالسام (Boredom) وإحساس أفرادها بعدم أهميتهم في العمل (Insignificance) وافتقارهم إلى الخبرة أو المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، أو نظام العمل الذين يرتبطون به .

على أن الجماعات غير الرسمية المشار إليها لا تضم جميع الأفراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على أن هناك من الأفراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء إلى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة في الانتماء إلى الشعور بالشك (Suspicion) في هذه الجماعة أو نظرة الفرد نظرة الإزدراء حيالها contemptuous أو أن يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق أهدافه دون حاجة إلى الانتماء إليها .

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإدارة في المنظمات العاملة تنظر بعين الشك إلى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الإنتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة أعمالهم ، لاسيما إذا كانت الإدارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في إصدار القرارات الخاصة بهذه الأعمال، ويبدو أن مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materiaized)

عندما تكون أعمال هذه الجماعة مملة ، أو روتينية (Routine) لا تحتاج إلى أية مهارات . وقد يزداد تأثير هذه الجملة على الإنتاج سواء إذا أحكمت الرقابة عليها ، أو حرم أفرادها وسائل الاتصال المناسبة مع إدارة المنظمة .

طريق اداء خدمات مرموقة او انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى اعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز او مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش او يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فان حاجة الانسان اليها امر يرتكز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة ان بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis في تقييم انفسهم . ومن ثم فانه يمكن القول بوجوب ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فان تقييم الفرد لذاته قد يرتكز على مستويات مقبولة تتفق واقصى ما يمكن ان يحققه من مكانة او مركز في المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقا لهذه المستويات فانه يحاول جاهدا المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات اعلى . وذلك هو السبب في رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام في المنظمات التي يعملون بها ، على اعتبار انهم وصلوا او حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضي (Preconceived Level) اما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون

لاشباع حاجتهم على المستوى القومي او العالمي غير مراعين لحدود طاقاتهم او مستويات قدراتهم ، او الظروف المحيطة بهم ، ولا شك ان نتيجة هذه الحالة هي الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التي تمت على ان هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها او التعرف عليها او تحديد آثارها ، بسبب ان الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة ، وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الغايات

تحقيق اهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات او اهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الاهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة باهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد ان يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

- ١ - حاجته الى الاعتراف بنفسه ، وقيمه واعتباره كمضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة او الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة او المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

- ٢ - حاجة الانسان الى الشهرة او السمعة الطبية او المكانة المرموقة (One's reputation) وتنتمثل في احقية الانسان في ان ينال من الجماعة تفضيلا او تمييزا عن غيره لخدمات اداها او مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان في تحقيق منزلة معينة او مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) او تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول ان الحاجة الى التقدير تتمثل في رغبة الانسان في ان يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة في اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها في تحقيق امرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لإعمال اداها او خدمات ساهم في انجازها Prestige (٢) القوة التي يملكها الانسان في شخصيته او لقدراته العلمية او الفنية او العلمية (Power)

ويسمى الافراد لاشباع هذه الرغبة او الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان

تمكن الفرد من الواعمة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش أو يعمل بها ، وهي مواومة تأخذ شكل مباراة تتسم بالتحدي والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التي تعطى الانسان الفرصة للدخول في مثل هذه المباراة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالإضافة الى ما يمكن ان يحصل عليه من حوافز مادية كانت او أدبية . ولذلك نرى ان الاعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لظهور براعته الوظيفية او قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يضحي هذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : واذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achievement) فانه يتعين الاشارة الى انها لا تعنى مجرد جهود علمية او فنية او مبتكرة يبدلها الانسان ، بل انها بالإضافة الى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ما قد يواجه من صعوبات أو عقبات يمكن ان تحول دون احراز هذه الثمرة .

فإذا توافر لدى بعض الافراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فان قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا او ادبيا . ومع ذلك فان هدف الافراد في هذه الحالة ، تجسم اساسا في احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز او مقداره ، ونتيجة ذلك ان النقود - باعتبارها حافزا - لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لأدائهم ، وتقييما لجهودهم ومآبلوهم .
البيئة كمصدر للدوافع (Motivating Environment) : يتضح مما سبق ان حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات الى الحركة

الانسانية التي تتدرج تحت الحاجة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور او تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتمثل هذه الكفاءة في قدرة الانسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية او اجتماعية . ويبدو ان الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الإمكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم ان هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان في ماضيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه او فشله في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي أكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة أكثر ايجابية (Positive outlook toward life) ويرى في كل مشكلة

جديدة تحديا ممتعا لكفاءته في التغلب عليها . وبالرغم من ان الحاجة الى الشعور بالكفاءة تظهر وتنمو مبكرا في حياة الانسان ، الا انه ليس من الضروري ان تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على ان نجاح الفرد مرة او عدة مرات ، رغم توقعه للفشل ، غالبا ما يدمم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بإمكانية التنبؤ بإمكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة ، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على إمكانية النجاح . اذ للانسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه او فشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل أحد المجالات الرائدة التي

وقد أجريت في إحدى قطاعات الصناعة الأمريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي: ماذا يريد العاملون من أعمالهم (What do workers want from their jobs?) في هذه الدراسة طلب من طبقة المشرفين Supervisors

أن يضعوا أنفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) ويعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون أن العاملين يتطلعون إلى إشباعها من العمل على أن يراعى في ترتيب هذه الحاجات وضمها حسب أهميتها لهم. كما طلب من العاملين أيضا إعداد هذه القائمة، التي تبين الحاجات التي يتطلعون إلى إشباعها من عملهم.

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب أهميتها، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الأكثر أهمية والرقم ١٠ يعنى الأقل أهمية

والإشباع مختلفة، كما أن قوة ودرجة الإشباع تختلف من فرد إلى آخر، والإدارة الناجحة هي تلك التي لها قدرة التنبؤ بدوافع الإنسان، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب.

ولا شك في أن استخدام الحوافز في العمل إنما يهدف إلى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذي يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هي قادرة على إعطائه، إذ أن الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على أنه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية، ارتفع الأداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت أو أدبية، تساعد على استخدام أفضل لهذه الطاقات، عن طريق تحريك دوافع الإنسان واستخدام طاقاته المعلقة أو الكامنة.

جدول رقم (٢) ماذا يريد العاملون من أعمالهم؟

الحاجات	المشرفون	العامل
تقدير الإدارة للعمل الذي يؤدي	٨	١
الشعور أو الاحساس الداخلى للعامل	١٠	٢
التعاطف وفهم المشاكل الشخصية	٩	٣
الامان والطمأنينة في العمل	٢	٤
أجور ممتازة	١	٥
عمل يثير اهتمام العامل	٥	٦
الترقية والتقدم مع نمو المنظمة	٣	٧
ولاء أو إخلاص الإدارة للعاملين	٦	٨
طرق وظروف عمل جيدة	٤	٩
عدالة وحساسية نظام التأديب	٧	١٠

ويمكن إعادة ترتيب الحاجات، بالشكل الذي يبين وجهة نظر المشرف، ووجهة نظر العامل في الجدول الآتي (رقم ٣).

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقاً لأهميتها	المشرفون	الحاجة طبقاً لأهميتها
١	تقدير الإدارة للعمل الذي يؤدي	١	أجور ممتازة
٢	الشعور الداخلي للعامل	٢	الامان والطمانينة في العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفي
٤	الامان والطمانينة في العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	أجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء وإخلاص الإدارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفي	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء وإخلاص الإدارة	٨	تقدير الإدارة للعمل الذي يؤدي
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التأديب	١٠	الشعور الداخلي للعامل

تعتبر من الحاجات أو الرغبات الهامة لدى العامل ولو أنها أدرجت تحت رقم ٤ بدلاً من رقم ٢ طبقاً لوجهة نظر طبقة المشرفين .

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣)
الملاحظات الهامة التالية :

والترقية قد تعني امرين :

الأول أنها تضيف أماناً أكثر وطمانينة في نفس الإنسان نحو بقائه في الوظيفة .

الثاني أنها تعني زيادة في الأجر أو المربح ، وفي كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وإن كانت تعطي الإنسان الإحساس بأهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الأدبية .

وقد أدرج العاملون الترقية في المرتبة السابقة من الأهمية ، وإن كانوا قد اعتبروا أن تقدير الإدارة لعملهم هو أول ما يتطلعون إليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الإدارة لأعمال الإنسان ، غالباً ما يؤدي إلى ترقيقه ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

١ - أن طبقة المشرفين غالباً ما تعتبر أن الأجور المرتفعة تمثل الحافز الأول لزيادة إنتاجية العامل . فإن الدوافع الأساسية للعاملين ، تتمثل في فرص الكسب الاقتصادي ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التي تضمن أن يكون الكسب المادي هو النتيجة المباشرة لزيادة إنتاجيتهم .

٢ - أن طبقة المشرفين أضافوا الشعور بالطمانينة والترقية والتقدم الوظيفي باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولا شك في أن الامان والطمانينة في العمل (Job Security) اعتبرت في المرتبة الثانية من الأهمية في نظرية ماسلو السابق الإشارة إليها . وقد جاء في الجدول السابق أن هذه الحاجة

٣ - أدرج العاملون تقدير الادارة للعمل ،
والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ،
والتعاطف وفهم مشاكلهم في الاهمية القصوى
بالنسبة لهم . وهذا يفسر أهمية العلاقات
الانسانية في العمل .

٤ - يتضح ايضا من الجدول السابق ان
الحاجات التي اعتبرها العاملون من أهم
متطلباتهم ، ويتطلعون الى اشباعها ، رأى
المشرفون انها أقل أهمية من غيرها . وهذا
يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او
الرغبة في فهم الحاجات او الرغبات التي تمثل
الاهمية القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي
الى اختيار الحافز الخطأ او استخدامه في وقت
غير مناسب .

٥ - ما زال بعض او اغلب المديرين يعتقدون
ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من أهم
الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثل
للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في
النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشار
اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا
في الدول النامية، نظرا لفسالة الاجور وانكماش
فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يمثل الهدف من هذا البحث في شرح
ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ،
والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على
استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة
وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب
الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة

بمقتضاها اختيار وترغيب الاكفاء من الافراد ،
والالتحاق بالوظائف واستمرارهم او بقائهم
عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية
التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على
الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم
في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد
حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان طاقة اذا احسن استخدامها
تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اصبحت
وسيلة لتحقيق غاية او غايات . لكن الطاقة
الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها
او استخدامها ، واذا احسن توجيه قوة
الانسان نحو هدف ما فانه في الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويتمثل
اهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته
مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب
التنبؤ بسلوكه او تصرفاته او اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد
تمائل بين انسان وآخر في الطبيعة والسلوك
والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك
قد ينشئ صعوبة في المنظمات العاملة نحو
ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ،
والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية
مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في
امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

الأفراد تحت إدارة واحدة . وتضحي هذه المهمة أكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة أو في مكان واحد. ومن ثم يفرض التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الإدارة في مجال إدارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق أهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

عمق اهتمامه أو مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ أو في تفسير ما يطرأ على سلوك الإنسان أو تصرفاته أو اتجاهاته من تغير أو قلب في المستقبل .

وإزاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في إدارة الإنسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة إذا اجتمع هذا الإنسان مع غيره من



المراجع

- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة . الكويت - وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .
- د . منصور احمد منصور ، النواهج والحوافز في قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور، مفهوم تخطيط القوى العاملة في الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط ولانها وتقويم ادائها الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (تحت الطبع)
- د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، الثورة الادارية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٤ .



عقوبة الاعدام بين الابقاء والالغاء

عبد الرهاب حمود

من بين المشاكل التي ناز حولها جدل طويل، واصطُرعت فيها الفلسفات والمواطف والامتقادات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصه من دموى ، يطفئ النقاش الهادئ بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً في بحثها عن الحل الأمثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

ومما يريد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يعتل في نفوس ذوى المقتول ، وطماننة لمن روعتهم الجريمة ، دون أن تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هى الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون ..

وينقل أحد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليوناني هيرودوت "Herodote" « إن الفرعون "Sabakon" أحد مؤسسي الأسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ - ٧٠٣ ق. م.) الغى عقوبة الإعدام ، وأبدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله في الأعمال العامة . فإذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، أول نظام منظم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية في حيرة أمامها حتى اليوم .

وقد أعيدت هذه العقوبة فيما بعد ، وأصبحت طوال ، في عهد مصر البطلموسية وهي الفترة التي تمتد ما بين الغزو الماكيدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م. والغزو الروماني عام ٣٠ ق.م. ، كما يتضح من أوراق البردي اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الأفعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف في الميزان ، والتعدي على أموال المعابد ..

ولقد أجبرت كليوباترا ، بمرسوم أصدرته عام ٥٠ ق.م. التجار الذين يشترطون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها إلى الاسكندرية وعاقبت مخالفتي هذا المرسوم بالإعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين ، وضعت قوانين متكاملة ، من أعظمها ، قانون حمورابي عام ١٧٥٠ ق.م. ، الذي يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصباً .. وإذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب أفعالا كثيرة بالإعدام ، كالسرقات الكبرى ، وإخفاء المروقات ، التي استلبت بواسطة العنف ، وإزالة الوشم عن وجه العبد لإخفافه عن مالكه ، والقتل ، وزنا المرأة واغتصابها ، والشهادة الزور في جريمة القتل ، والبلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

ولقد عاقبت البشرية أنماطا من المجرمين بالموت ، منذ فجر تكوين المجتمعات الأولى ، إذا لم اغامر بالقول ، منذ تكون المجتمع الأول .. ولا يذهب بنو الخيال ، إلى أن هذه العقوبة كانت قاصرة على القتلة ، الذين يرهقون أرواح الناس . لأنها ، في حقيقتها ، كانت تطال غير القتلة . بل ربما كان إعدام القتلة لم ينشر إلا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضاري .

فقد عاقبت مصر الفرعونية جرائم كثيرة بالإعدام :

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة ، والسحر ، وعدم إنشاء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية ، وعدم اغتاة من تعرض لهجوم الاشيقاء ، في الطريق ...

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل أباه ، كان يعدم بفرض قطع حادة من القصب في جسده ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعا صغيرة بألة خاصة ، وبعد ذلك يلقي به على كومة من القش ، ويحرق ببطء .. وكانوا يحرقون الزانية ...

وكان يدخل في سلطة القاضي اختيار طريقة إعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، أو الإغراق أو التقطيع ، أو النار ..

ومع الزمن ، خفت حدة الغرائز البدائية ، فادخلوا في مفهوم المسؤولية الجماعية تقييدا أساسيا ، هو أن تنفيذ العقوبة أصبح قاصرا على الفاعل وحده ، وإن المرأة الزانية ، أصبحت تعاقب ببعد الانثى ، لحرماتها من محاسنها التي كانت تفرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجي المقدس ...

وقد عرف التشريع اليهودي القديم المسؤولية الجماعية ، ففي سفر التكوين (الاصحاح الرابع والثلاثين ، الآية ٢٦ - ٢٧) ان Sicheم ابن Hémor خطف امرأة تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ، بدأت تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ، وأصبحت العقوبة تنجم الى الفاعل وحده . ففي سفر ال Deutéronome ، الاصحاح الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا من آبائهم » ،
« ولا يعاقب بالموت الا من ارتكب خطأ شخصيا »

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة في جريمة القتل ... اما في الجرائم العامة ، فان الاعدام كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعدام السحرة ، وعبدة الأوثان والمردةون ، والذين يحرقون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام كل يهودى يشتغل يوم السبت « لأن اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزاني، والزانية ايضا ، وتعاقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعمد مرتكبوا الاتصال الجنسي بالمحرمات ، والواطأ واثيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، في جميع الجرائم . وكانوا يطلقون ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

مكذوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات مدعشة :-

الاولى : - انه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى اصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، والنحراف الراهبة التي تتراد الملاهي ..

والثانية : - انه اشترط وجود العمد في القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص في المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : -

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ، واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة » « Sicles » (٢) ، اذا كان القاتل مواطنا ، وعشرين مثقالا اذا كان القاتل لا يتمتع بالوطنية ... mesquin

والثالثة : - انه الفى صيغة المائلة ، (La talion) الا في حالة واحدة ، هي حينما يأخذ الدائن ولد الدين رهينة لسداد دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم.

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق والقتل بالسيف ، والأفراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخأروق ، وكانت المرأة التي تقتل زوجها او تشترك في قتله تعمد بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس هذا بغير ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش في اور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .

(٢) في لاروس انسكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة Sicle عبرية ، وهو يؤن عند العبريين « ١١ غراما وكيسور » وعند البابليين ٨٤٠ غرامات .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك
مارسلنا من قبلك في قرية من نذير الاثال
مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على
الارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم
القانون ، وتمنل فيهم العقوبات ... لانهم كانوا
مجموعة من المجتمعات المتوحدة ، الفت احكام
الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما بزغ عليها
فجر عهد جديد ، جاء ينقدهم من الضلالة الى
الهدى في دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد
للسلوك القويم ، على اساس من التساند
الاجتماعي والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة
وسلوكا .. فقال تعالى :

» يريدون ان يتحكموا الى الطاغوت ، وقد
امروا ان يكفروا به « (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذي
كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس
من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن
والعارفة دور كبير في اقامة البينة وتقدير
العقاب ..

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة
عندهم ، لفقدان التنظيم الدولي .

فقد كان من حق الاب ان يقتل اولاده
الذكور ، ويشد بناته .. وفي ذلك يقول الله :
« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم »
(الانعام ١٤٠) .

ويقول : - « واذا المؤودة سئلت : باى
ذنب قتلت » (التكوين الايتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ،
او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

الشعب كله هو الذى ينقلده . واول من يبدأ
بالرجم ، شهود الاثبات ، ثم يليهم الحاضرون
حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة
طيلة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول
الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا
الا في حالتين : تعمر ابنة الكاهن ، والاتصال
الجنسي بالام او الاخت .

وعرف المجتمع العربى عقوبة الاعدام
وطبقها ، بطريق العرف الذى كان ينظم
علاقات الافراد ، وتوارثه كابرا عن كابر ، دون
ان يكون للتشريع اليهودى او النصرانى اى
اثر في تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود الذين
فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ،
لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من
الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا في عقلية
الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على
دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم
الاجتماعي ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ،
وان المستوى الاجتماعي لم يكن يختلف عن
مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا
يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ،
واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود
الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ،
يهودت (٣) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على
حدود الجزيرة الشمالية ، تسلت اليها من
اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض
الاتباع في اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ،
هي التي كانت تحكم الجزيرة واهلها ، ولم يكن
يسرا على جماعة غالبة ، مغلقة الابواب والبصائر
على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او
تبطل من مفاهيمها الازلية ..

(٢) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ، القسم الدينى ص ١ - ٥٠ و Margoliouth ص ٦١ .

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والإناث بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، وأدام إليه بحسناً . »

(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : —

« من قتل له قتيلاً ، فمؤ بخير النظرين ، أما ان يقتل وأما ان يقتل . »

٢ — الحراية : — وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، ان يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » (٤) (المائدة آية ٣٢) .

٣ — الردة : وهي الخروج من الإسلام بعد ان كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء في امر المرأة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تجلس حتى تتوب . ولم يرد في القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : —

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فليجئ كافراً ، فأولئك جحبت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . » (البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : — من بدل دينه فاقتلوه ...

الدم ان يثار في الحال ، او في خلال أيام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكام لبلد المسامي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وبهاء والدختر قلوب فيهم ، والحرب سجال :

فيقوم علينا ، ويوم لنا : ويوم نساء ، ويوم نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفاً من اختلاط الانساب ، ودفاعاً عن الشرف والسمة ...

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون في حديثه عن العرب .. ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام في بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ — جريمة القتل العمد : —

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون في تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني في البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتنوين ، وهو مذهب ابن عباس ، أي انهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق آخر الى ان النص يغير القاصي بين احدى العقوبات ويؤوض اليه الامر في كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذى صدر مؤخرا ، فى المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت أوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقتها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقسوة تخرق جده وهو يذكر محاكم التفتيش التى ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين فى الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، فى حين انه فى ظلال حكمهم السمع جدد ابن ميمون الديانة اليهودية فى عاصمة الملك قرطبة ، وفى اروقة جامعاتهم ، تخرج البايوت ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصاييح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف فى اوروبا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذ هاتدل على سادية لا مثيل لها ، كالاحراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا فى كفن من الشوك .. وقد يمدون للمحكوم عليه ، فى حفرة ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعاتا فى تعذيبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدوا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، فى كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة فى القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروغ مجتمعات اليوم متخلفها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للإبقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامة الافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وأمر ؟

وفى الراجح من المداهب ، ان المردد يستتاب ثلاثة ايام (ابو حنيفة ومالك واحد قولين للشافعى) .

ويرى على ان يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعى : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ - البغى : وهو خروج المسلمين على الامام بتاويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيين فى الشريعة الاسلامية ، ونقول هم التوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين فى اجتهادهم .. لذلك جاز للامام ان يقاتلهم فى ارض المعركة ، اذا بداوه ولم يقاتل على الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدير منهم ، ولا من اتى سلاحه ولا من اغلق بابيه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ - وتبقى لنا كلمة فى جريمة الزنا .

فهل يقتل الزانى والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص فى القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ما عز والفاعدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضحات وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

(٥) هذا ما ذكره الاستاذ على حسب الله فى محاضرة له القاها فى جامعة الكويت عام ١٩٦٨ ، منشورة فى الموسم الثقال لهذه الجامعة ١٩٦٩/١٩٦٨ ص ١٤٧ .

لدراسة هذه القضية ومن أبرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعي والاقتصادي اتخاذ الإجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسألة عقوبة الاعدام ، ونتائج ألفتها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين في الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر إبريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقص الفرنسي أنسل "Ansel" الذي قدم تقريره عام ١٩٦٢ (٦) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية في جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرآن في الموضوع من جانب الأمم المتحدة ، فهو إذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٤٠٤ من ميثاق الأمم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية أو وحشية أو محطلة بالكرامة الانسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على أنه توجد ظاهرة تستاهل أن أسجلها الآن ، وهي تفهقر عدد الحالات التي تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التي تعاقب بالموت في إنجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينما بعض السرقات العادية (٨) وكان عددها في فرنسا في ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

هذا هو السؤال الصعب الذي اتكبت ، للإجابة عليه ، ادمعة كبيرة ، استقرت الوقائع وسيرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقعا محددًا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالافائها ، وقال فريق آخر بأبقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراده الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات أيضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع إنجلترا التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال أربع سنوات حتى عام ١٩٥٣ ، وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحادية لجنة خاصة لاصلاح التشريع الجنائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ .

وشكلت كندا والولايات المتحدة لجانا مماثلة واتكبت فقهاء الاتحاد السوفيتي بدورهم على دراسة الموضوع ، في اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ من خلال العمل على اصلاح التشريع الجنائي . وعقدت في فرنسا عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت في فرنسا عدة محاولات لافاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب في الجمعية الوطنية في اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفي السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا

(٦) وثق التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٧) وثق التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة باسم "La convention" كانت صوتت في ذلك الوقت على الفاء الاعدام ولكنها حلت ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان أحد القضاة الامسان في القرن السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر بانه أصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء عشرين ألف حكم بالاعدام (٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية في النصف الاول من القرن الحالي جاءت كارثة عظمى على التطور الالغائي .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث بها ، لانها ، في فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذي يرهب به المجتمع اعداءه الشريرين من القتلة والخونة وخاطفي الاطفال ، وتيار يقابل التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهى الى المطالبة بالغاء هذه العقوبة .

ومن الامانة ان لاحظ انه لم تقم في البلاد العربية ، من اقاصها الى اقاصها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذي الفناه ، ونمنا على همدته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكري ، لدى غيرنا دون ان يتاح لنا ان ندلي بدلونا في الدلاء ...

انام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هي حجج الإبائين والالغائيين ؟

انى اود ، فيما يلى ، ان اعرض حجج

الفرقيين ، ليستطيع كل منا ان يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، ملصمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التى تستمد كيانها من المألوف ، الذى ان لنا ان نعمل على هزه من سباته .

١ - التيار الإبائى :

يقول انصار الحفاظ على عقوبة الاعدام ، انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وامنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

١ - هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذى فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعى . فالفرد الذى قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع المجتمع ، ان يتخلى عن الانتقام الفردى ، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلى عن حياته ، فيما اذا قسم هذا العقد ، واعتدى على حياة شخص آخر ، وقبلها **لمبروز وغارفالو** وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم بالفطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار اساندة القانون الجنائى الفرنسى مثل **غارو وغارسون ودونديو دوفابر** .

ب - انها عقوبة تكفيرية ، بمعنى ان الذى قتل آخر في ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب ان يكفر بدمه عن خطيئته .

فهى اذن **عقوبة عادلة** ، يتساوى فيها تماما ، الاذى الذى اوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان امام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون : « يداك اوكتا وفوك نغخ » .

للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله
بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن
أن تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كمعقوبة
بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، أن
يبقى مجرم سجيناً طيلة حياته . . فهو يحلم
تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو
مرسوم عفو خاص . . يقصر مدة سجنه ،
ثم يجد نفسه حراً ، خارج القضبان ، يزرع
الدور والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ، أنني عملت مرة على استبدال
عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالاعدام ،
لشقيقتين ، كانا يستحقان في نظري هذا
الابدال ، ولكن لم تمض إلا سنوات لم تبلغ
العشر ، حتى كانا طليقتين يتعمان بالحرية . الا
أننى لم أسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلاً ، يقول اصحاب هذا
الرأى ، أن المحكوم عليه بقى في زنازته طيلة
حياته ، فانه سيكون في غاية التعماسة ،
لا ينفعه أن يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

ج - أنها عقوبة مخيفة ، يهلع من هولها
قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع
الامن ، فليس امراً بسيطاً أن يعرف القاتل
ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من
احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها
واحبابها (١٠) .

ثم أنها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون
تنفيذ الاعدام أو تبلغهم انبأؤه . فاذا نفلت
احكام الاعدام على فترات متقاربة ، بقيت
العظة ماثلة في كل نفس . .

د - ولماذا تلغى عقوبة الاعدام ، ولم يبق
دليل قاطع على أن الفاءها قد ساعد على
انخفاض الخط البياني للجرام ، أو حتى على
الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان
كانت مقنعة ، فانا سنختار الى رأيكم ، اما
ان نغامر بقذفه في المجهول ، ونعرض كيان
الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا امر لا يمكن
أن يقبله رأى حصيف .

هـ - هذه العقوبة ، هي الوسيلة الوحيدة

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الالوان عن محكوم عليه بالاعدام :

« لقد طال انتظارى شهوراً ، لذلك فاتا اميش في جحيم . .

وفى كل صباح اتظر لارى هل نصبت لي المشقة ام لا ، ولكنى لا اجدتها . .

وفى كل صباح يجتاحني قلق اشعر به كانه يسطف على حنجرتي ويجعلني ارتجف . .

ان شعورى باتنى سوف اعدم يكاد يعزلى . . .

ومع ذلك ، فان الاوهام تراودني احياناً . . .

انى اعترف بانه لولا الكاهن الى جاليتى يعطينى القوة ، لكنت قتلتن نفسى لاتخلص من هذه المصاحبات المشؤمة . . .

ونقل من محكوم آخر قوله :

« بصراحة انى اريد ان اعدم . .

فمنذ احد عشر عاماً ، لم اتلق كلمة من والدى ، فهل تراه صلح عني . . ؟

ووالدى ، حين يجذونه عني ، يرفض الاعتراف بى . .

وزوجتى تزوجت . . وبذلك نهضت الاسرة . .

اليس هذا عقاباً كافياً ؟

ان الرغبة في الحياة لا تزال تنقصنى »

لإعادة تأهيله ، مادام سيظل قابلاً في مكانه حتى الموت ... إنها حياة عذاب نفسي لا يطاق ، لأنها لا يلوح على آفاقها طيف من إطباف الفرج ..

و - أن الرأي العام قد ألفها ، وأطمأن إليها . والبحث في الفأها سيثير أعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا تقلب قواعد حياتنا القانونية ، من أجل عدد ضئيل من القتلة والإشران ؟

ولقد رأيت أن أحاور طلابي وطالباتي من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهم في إبقائها أو إلغاؤها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالإلغاء ، وأجمع الآخرون على الإبقاء .

أما الطالبات ، فكن ، بإجماعهن ، مع الإبقاء ...

ز - ويضيفون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفافا سنين طويلة ، ويتكبد المجتمع نفقات حراسته وأطعامه ، دون هدف ، كهدف إصلاحه مثلاً ؟ ليس من حق دافعى الضرائب ، أن يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعاً فيها ؟

ولكنى أود أن أعلق على هذه الحجة ، بأن حياة الفرد تظل دوماً أعم من المال ، ولن يعجز الدولة إطعام عدد قليل من الناس ، دفاعاً عن مبادئها العليا ، ويمكنها أن تشغلهم مقابل ذلك .

ح - ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم أنه

نظام ديموقراطى ، أى أنه يخضع لحكم الاكثريّة ، فإن من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، أن يستشير الشعب فى قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره اأكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فإنها ستقف الى جانب عقوبة الإعدام .

ط - لا ريب فى أن الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الإعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية فى الخطورة . وقد قال الله تعالى فى حكم التنزيل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) .. وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه أن يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب فى العفو بقوله : « وإن تعفوا أقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) » .. وقوله « .. فمن تصدق به فهو كفارة له » .. (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به أبو حنيفة القصاص . فعنده أن القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وإنما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسلم ، وهو من أفثك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستنداً الى رواية أبى دارود عن النبى عليه الصلاة والسلام : « إلا أن فى قتل خطأ العمد قتل السوط والحجر مئة من الإبل » ..

التنزيل قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب - وأنها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ؛ لأنه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتاً فورياً ، ودون ألم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالألم

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى أن استقرت اليوم على المشنقة والرصاص ، والجلوتين ، والسيف ، وغرفة الغاز ، والصق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج - أنها عقوبة غير منطقية ، لأنها « قتل منظم » كما يقول بكاري ، تضفي عليه الدولة الصفة الشرعية . فالجرم يرتكب جريمته ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد تحت أي دوافع اندفاعية أو مرضية ارتكبها ، في حين أن المجتمع يقرن اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادئ النفس . فالدولة حين تعدم شخصاً ، فإنها لا تمحو آثار جريمته ، وإنما تعاد ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى ، وكأنها تكرر مع الشاعر قوله « ودأوني » بالتي

كانت هي الداء » ...

د - أنها عقوبة غير هنيئة ، خلافاً للرمم القائل بأنها رادعة مائعة .

فلم يثبت أن البلاد التي ألغت القتل قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت أن دولة النمسا

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع في جرائم القتل العمد بين ذوي الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الأزواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك (١١) ، ولا القتل الواقع في أثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وأبي حنيفة والصحابيين . وإذا رجح هذا الرأي ، فإنه يقدم لنا حلاً شرعياً لمسألة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالواتانازيا ...

٢ - التيار الاتفاقي :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى أنها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولا خير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجج جديدة ، يرونها كافية لزعة البنيان العقابي القديم وتهديمه . وبأني في مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعي الجديد ، على لسان أحد رؤسائها المستشار آنسل (١٢) .

وفيما يلي ما يعرضون من الأدلة :

١ - يقولون ، أن الذي منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق أن ينوب عن الخالق في انتزاع روح مخلوق آخر . فهي مخالفة للمبادئ الفلسفية العامة .

ولكننا رأينا أن الفقهاء المسلمين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه في محكم

(١١) انظر في ذلك ، محمد أبو ذهرة ، الجريمة والعقوبة في اللغة الاسلامي ص ٢٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذي كتب يقول : « اننا نود أن نجيب فوراً وبراحة ، بأن مذهب الدفاع الاجتماعي فسد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسمها الثلاثة : التكفير expiation ومعاقبة الخطأ retribution والردع intimidation »

و - وهي عقوبة غير زاجرة ولا رادعة . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ آمام بعيدة . والواقع أن الإنسانية بدأت تطبيق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقاً زاجرة ؟

فقد اعدم في إيران ، عام ١٩٧٠ ، على سبيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة . . . ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشائق فيها ، تجتذب أعداداً متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

وأذكر ، بهذه المناسبة ، أنه اعدم في الكويت قاتل منذ سنتين ، ولم تمض أيام ، حتى قرأنا في الصحف عن جريمة قتل ثلاثية ، ارتكبتها مجرم آخر كان يشهد عملية اعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما . . . فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى أن يكون بطل حفلة مشنومة ، يستقطب فيها انظار الحشود ، وهو التافه الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه أحد ؟ . . اذن يكون اعدام في هذه الحال ، محرضاً لبعض الشواذ المفرمين بحب الظهور ، والسيئ التقدير ، على ارتكاب أفظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجر أو ردع . . .

ز - لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزي شائن فيها . فالوقائع تدل على أن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء البؤساء ، ان لم يكن كلهم . أولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون أخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانياً لأن

حين أهادتها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الاجرام ارتفع فيها كثيراً . فد رأى النائب العام الأميركي رامسي كلارك Ramsey Clark أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الأميركي يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هذه العقوبة « قد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به - وطالب بجرأة بالغاء عقوبة الأعدام . ومن أبرز سوءات هذه العقوبة في نظره ، أنها تتوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة إعادة تأهيل المجرم ، وعندها أنها لا تصلح لاجتماع متمدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ - وإنها عقوبة ظالمة ، لأن القاضي مهما أوتي من المقدرة العلمية لا يستطيع هو ، أو أعوانه من اصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لأنها شيء مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يدركه إلا الله سبحانه وتعالى .

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الإرادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite ، وهي تقصد بذلك ، أن المرء يعتبر مسؤولاً عن فعله ، اذا كان يريد ، ويعتدك عده . فالإدراك والإرادة هما ركنا المسؤولية الجزائية . وليس من شك في أنهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metaphysiques وبهذه الصفة لا يستطيع أحد أن يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وإن سلامتهما شرط لقيام المسألة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئاً وهمياً لا وجود له ، ويكون الحكم بالاعدام ، من ناحية اقرار المسؤولية ، قراراً لا يستند الى سند أخلاقي صحيح ، ينزهه من الطائن .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل ثرى والقائه في بئر ، وتمرست به كف الصابغة القضائية وعصيتها ، حتى ادلى باعتراقات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن أحد المسؤولين ، لم يرتح ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة أحد اصدقاء القتل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداه ، وانها عاونته في نقل الجثة الى البئر .

ويقولون أيضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة بشهود عيان ، يحررون ضمانهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول؟

ان الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز أن تأتي في المؤخرة من قافلة البينات . . . فقد أثبتت الدراسات الجديدة الحديثة ، أن كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها . . فالشاهد قد يخطئ ، لضعف في الذاكرة أو في حاسة الرؤية أو السمع ، وقد يخطئ لاصابته بمرض عصبى ، بشيء منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرق فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضل القضاء . . ولعل رجال القانون المدني يعرفون حقيقة قيمة الشهادة في العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لاثبات مبلغ صغير من المال .

وأذكر اننى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم راوه باعينهم وهو واقف امام باب الجامع يطلق النار من مسدسه ميار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا امام باب المدرسة فقتله .

الاستمانة بسحامين مشاهير ، وخبراء عالميين ، تثقل كاهل الضعيف ، وتأتي نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات في امريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزوج فيها ينال القسط الأكبر من هذه العقوبة ، لان المجتمع الابيض مشبع ضدهم بالافتكار السيئة ... وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فعند عام ١٩٣٠ نفذ حكم الاعدام في ٢٠٦٦ أسود و ١٧٥١ أبيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان ! .

٨ - وانها لعقوبة خطيرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافى ، في حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن أن يتلافى فيها الخطأ . فاذا نفذ حكم الموت في شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارق يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع اخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الانساني .

وانسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، ان المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وانه سيد البينات ، فهل تريدون عدلا أكثر من أن يدين المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك أن شخصا اتهم بقتل امرأة ، و«عولج» في دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها في النهر ، فأعدم وبعد عامين عادت المرأة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض أقاربها في منطقة أخرى .

اكتشف أن مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاواني الزجاجية بالكمحول ، وأنه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها أداة جريمة وانقل هذا الاكتشاف المنهم .. ولكنه اكتشاف تم بطريق الصدفة .

بل أن تطوّر الفكر العلمى نفسه ، قد يلعب دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف أن انهم صيدلى فرنسى ، اسمه Denval يقتل زوجته بالسّم ، واكتشف التشريع وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فادانته المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالأعدام ، بل قضت عليه بالإسغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو في السجن ، أنه براء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، أن جسم الانسان العادى ، يمكن أن يحتوى ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوى الحاد .

L'insuffisance surrénale ، تبدو أعراضه كأعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت إعادة محاكمته ، فتيّرا وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة .. aigue .

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الأعدامات التى تتم ، في أعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك أن المرء ليسمر بالغثيان ، عندما يعلم أن ثلاثة من « الجزائريين » يسوقون الى حمامات الدم ، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد أو محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة أصدرت احكامها باسم الشعب ...

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من أجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون من ضمير المحكمة ، عيب اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة . وشاءت ارادة الله ، أن اكون عارفا بالمنطقة ، ورحلت اتجول فيها . فوجدت أنه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخّم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة أن تبلغ حالب الشرطى . فقد كان عليها أن تسير موازية للأرض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة أعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الأرض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الأرض ، يوتجه باتجاه الشرطى ، فتصيبه وتقتله ... حين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتى ، وإنما لحض الصدفة المائلة بقيام بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق أن رجال القانون الجزائى يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الإثبات الأخرى ، ولكن الأخطاء في قراءتها كثيرة جدا .. هى أيضا . انها حقا لا تخطئ ، ولكن المختص هو الذى يقع في الخطأ ، فيضال القضاء ..

ففى قضية : انهم زوج يقتل زوجته بالسّم المعزوج بالكمحول ، ولما يفض على زواجهما غير شهرين ، كانا فيهما ، على احسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وارسلت احشاؤها الى التحليل ، فنجاء الجواب ، ان كمية الكمحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن الحامى

قللت بعدد الجرائم المعاقبة بالاعدام، وأصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل الممد) ، ألغت بموجبها عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي وأصدرت قانونا عام ١٩٧٠ ألغت بموجبها عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحذت حذوها **كندا** ، فألغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **المانيا الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورهما الصادر بتاريخ ٢٤ / مايو ١٩٤٩ على إلغائها . وقد شكلت الحكومة الألمانية لجنة من اثني عشر عالما ، بينهم الجزائري وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الإبقاء على إلغاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ ألغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيو جيرسي ، بأكثرية ٦ أصوات ضد صوت واحد ، ان الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في أمريكا حكم واحد بالاعدام، وفي ذلك التاريخ اعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته واولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **مدام رولان** ، وهي تصعد الى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية:

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة » ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب ان نقتل حتى لا نقتل » وتبنا لهذه العدالة ، وتبنا لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذي لا شك فيه ، هو ان عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبته ! ومن المحتمل جدا ، انه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لرما كان وضعها اكثر ضعفا ، وكانت الافكار اكثر تقبلا لالغائها ، او تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، ألغت عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، و**البرتغال** عام ١٨٦٦ ، و**هولندا** عام ١٨٧٠ ، و**إيطاليا** عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، ألغتها **النمسا** قانونيا ايضا ، **النرويج** عام ١٩٠٢ ، و**النمسا** عام ١٩١٩ ، و**السويد** عام ١٩٢١ ، و**الأرجنتين** و**الدانمارك** عام ١٩٣٠ ، و**إسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك ألغتها **بعض ولايات أمريكا الشمالية** .

كما ان بعض الدول ألغتها **إلغاء واقعي** ، أي انها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التي لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، أصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ،

عادت فالتفتها عام ١٩٦١ ، وألغاهما الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من أجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، وأعادها مرسوم فدرالي صادر عام ١٩٦٢ من أجل جرائم الرشوة والافتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى في العام الماضي استفتاء في ولاية جورجيا الأمريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على إعادة عقوبة الاعدام ، فأعيدت تشريعيا ...

وأود ان أسجل لهذه المناقشات والمحاولات انها أثرت عمليا في واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التي لا تزال تحتفظ بها في تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا في تنفيذها .

ففي كندا (قبل الالغاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من أصل ٥٩ وفي المغرب نفذ ١٥ حكما من أصل ٤٣ وفي لبنان (قبل المأساة) نفذت ٤ احكام من أصل ٣٠ . وفي فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ احكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفي انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفي مصر نفذ ٦٦ حكما من أصل ١٠٣ ، وفي تركيا نفذ الحكم في ٢٢ شخصا من أصل ٣٣ ، وفي اليابان نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الدهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التي تعاقب في ايماننا هذه بالاعدام ، وأي البلاد تعاقبها ... وقد رأيت اتماما للفائدة ، ان اذكر فيما يلي هذه الحالات ، وإلى جانبها البلاد التي تتبناها .

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بأنه في هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهي مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بان احكام هذه المحكمة نافذة في كل امريكا ولكن يتضح من حكمها انه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوّت اربعة منهم ضد الالغاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذي عينهم . اما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بانهم مع الالغاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى ان الجرائم المعاقبة بالاعدام في هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الغاء العقوبة . ويستمرى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في المانيا الغربية ، منذ الغاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الغاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، وأصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على ان الامانة في البحث ، تقتضي ان لاحظ ، بان عددا من الدول التي ألغتها ، أعادتها بعد تجربتها ، فقد أعادتها إيطاليا عام ١٩٢٥ ثم ألغتها ثم أعادتها عام ١٩٣٠ ، وأعادتها فيلاند الجديدة عام ١٩٥٠ ، ثم

الجرائم الموجهة ضد الأشخاص :

١ - **القتل مع سبق الإصرار** : وهو معاقب في الغالبية الساحقة من البلاد التي تحتفظ بمقوبة الموت ، وفي مقدمتها ، أستراليا وكندا والشيلى والصين وإسبانيا وبعض ولايات أمريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند وإيران ، واندكترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا والاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا ، وجميع البلاد العربية .

٢ - **القتل العمد** : (أى العادى غير المقتنر بالإصرار) ، وهو معاقب بالموت في بلاد قليلة ، أكثرها أفريقية ، ولكن لاحظت أن السودان من البلاد العربية وبولونيا من المعسكر الشيوعي ، والباكستان من هذه الدول القليلة .

٣ - **القتل أثناء مبالغة** : وهو مقصور على عدد من الولايات المتحدة الأمريكية .

٤ - **جريمة القس** : وهى موجودة أيضا في بعض الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ - **التسميم** : معاقب بالاعدام في فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض الجمهوريات الجديدة .

٦ - **قتل الأب أو الأم أو الولد** : ومعاقب بالموت في فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب والعراق واليابان وغيرها .

٧ - **القتل الذى يرافق أو يعاقب ارتكاب جريمة** : وهو معاقب بالموت في لبنان ومصر والعراق ، واندكترا وإسبانيا وغيرها (وأكثر ما يصادف هذا الجرم في أثناء السرقة ، أو قطع الطريق أو القرصنة) .

٨ - **قتل شرطى أو موظف أثناء الضمة** .

٩ - **ضرب أو جرح ولد بصورة عنيفة** : فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ - **الحريق العمدى الذى نجم عنه موت أحد** . . فرنسا ، مصر ، العراق ، إيران ، اليابان ، المغرب ، اندكترا ، تركيا ، يوغوسلافيا وغيرها .

١١ - **الاشتراك complicité** في انتحار ولد أو مخدر أو مجنون .

السودان ، أركانساس الأمريكية ، الهند ، الصومال .

١٢ - **إجهاض امرأة تسبب في موتها** .

١٣ - **اغتصاب امرأة بالعنف** :

١ - إذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا والفلبين .

ب - أو الاغتصاب العادى : الصين ، بعض الولايات المتحدة . . .

١٤ - **الخصماء الذى يعقبه الموت** .

١٥ - **التجارة بالمخدرات في بعض حالاته الخطيرة** : تركيا ، إيران ، الصين ، بعض الولايات المتحدة .

١٦ - **خطف القاصر** :

١ - بعض البلاد تشترط موت المخطوف : فرنسا ، المغرب .

٢ - بعضها لا تشترط ، وإنما يجب أن يتم في شروط خاصة ، كطلب فدية (الشيلى وبعض الولايات المتحدة) .

ج - الجرائم الموجهة ضد الدولة والنظام العام :

١ - الخيانة : دول كثيرة .

٢ - التجسس : الصين ، اسبانيا ،
الولايات المتحدة (القانون الفدرالي ، فرنسا ،
اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ،
تشيكوسلوفاكيا ، تركيا ، روسيا ،
يوغوسلافيا ..

٣ - الاتصال بالعدو intelligence
او التعاون معه ... دول عديدة .

د - الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ - العصيان المسلح والثورة أو التآمر
على الدولة .

٢ - القتل المرتكب اثناء اضطرابات
émeute أو ثورة : بعض ولايات امريكا .

٣ - الاعتداء على سلامة رئيس الدولة:
(وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ - النهب pillage والقتل الجماعي
massacre والتخريب Devastation
والافغان تعاقب الزنا بالموت .

والان ، ماهى الحكمة التى يجب ان
نستخلصها من هذه الدراسة ، بالنسبة لتكوين
راى فيما يخص الغاء الاعدام أو ابقائه ؟
هل كانت آراء الاقباليين مقنعة ؟

أم ان آراء الالفائيين ، والتطور الذى
حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ،
واكثر نقلا فى ميزان المقارنة ؟ انا لاظن ان اية
دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع ان تنال

١٧ - الاعتقال التعسفى مع التعذيب
الجسدى : الصين ، فرنسا ، ايران ،
تشيكوسلوفاكيا .

١٨ - الشهادة الكاذبة التى تسبب فى
صدور حكم بالاعدام : بعض الولايات الامريكية
وفرانسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر
والسودان .

١٩ - العدد بعد الحكم بأطول عقوبة ممانعة
للحرية ، او اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه
العقوبة : النيبلى ، الصين ، العراق ، تركيا
الصحول ، تركيا وغيرها .

٢٠ - الاضرار الخطيرة التى تسبب
للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات
المتحدة .

ب - الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنايات الاقتصادية :

١ - السرقات الموصوفة : أو المشددة
(وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض
الولايات المتحدة ، فرنسا ، اليونان ، افريقيا
الجنوبية ، النغو .

٢ - القرصنة مع العنف : أو ستراليا ،
كندا ، شيلي ، اسبانيا ، جبل طارق ،
غواتيمالا ، وغيرها .

٣ - الاحتكار أو رفع الاسعار بصورة
غير مشروعة وخطيرة واختلاس أموال الدولة:
الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ - تزيف النقد والمضاربة على العملات
الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ - الاعتداء الخطير على الملكية
الاقتصادية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .

منهن ، وعلى المصايين ببعض من شذوذ في التفكير والحكمة ، لا يصل الى درجة منيع المسؤولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقروا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم مجوزا وقتلها بسبع عشرة قطعة من سكين ، ليستلب منها ما اقتصدته لإيادها الاخرية ، كما قررت اعدام امرأة تأمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتله ، وقطعاه وجعل جسده سمادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين ازهرت، وهما يقططان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله السر عنهما ، فأسلمت متفاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ أخير ، باستعماله حق العفو في حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسؤولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، أبدلت ٨ احكام بالاعدام في استراليا من اصل ١٠ ، وأبدلت ١٧ حالة في فرنسا من اصل ٣٤ ، و ٣٤ في كندا من اصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق أى حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ أحد أن جبل الامن اضطرب ، أو أن الاجرام ازداد ... بل كنا نلاحظ ان المشائق تنسب في الساحات العامة ، في الأيام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس.

ويتعبر اوضح انى اريد لهذه العقوبة أن تظل تظل في التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

اجماعا أو شبه اجماع ، في مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائرها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شأنها أن تلامس بقوة اوتار كل نفس ، فتحركها ، في الوضع التي هي عليه . فلا نحاول اذن أن يعمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكون كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولي راي في الموضوع ، أود أن أعرضه، كونه لنفسي بعد أربعين سنة في رحاب القانون ... ولست أزم أنه نهائي بالنسبة لي ، فقد أغيره ذات يوم ...

انى أرى إبقاء عقوبة الاعدام في القانون، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للقدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والمجزة ... طمعا في أعراضهن أو أموالهن ...

وأرى ان تشدد المحاكم في قبول البيّنات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، أى ظل للشك في نفس القضاة ... والا يكون عليهم أى سلطان في قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وأن تقف في وجه الرأى العام ، اذا أثارته الصحافة أو الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تأثر أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، أن تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة أن تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل

الاتجاهات ، ولغت نظري جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم أثم ، وطالب بالفدية ، ثم خشي أن يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدى ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلنى بالانقصاص له .. فاذا أفرج عن قائله ، فانى سأثار لولدى ، وأقيم العدالة بنفسى » ...

ويترب على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التي يمنحهاها الدستور والقانون وأنه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حبيب به ، ولكن زيادة في الاحتياط ضد مآلقات الزلل ، ورغبة في التشدد في إقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب الحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا بتجاههم بواجب الدفاع على وجهه الكامل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، أى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها أهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنابات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكلفهم وهم في قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين أيديهم قبل مدة كافية ، فيقف المحامى ليقول : لما كانت التهمة غير ثابتة على موكلى ، فانى أطلب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة في صميمها ، والاستخفاف بحقوق أشخاص قد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر أن هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم اشر الى عقوبة الإعدام في الجرائم السياسية.

وليس لتطبيق باستمرار . ولقد أتيج لى ذات يوم أن اتولى تنفيذ أربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام أربعة مجرمين .

أحدهم عيب بزوجة أبيه ، وعاشرها معاشره الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، وأخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد رأسه بحجر كبير ، ودفنه في حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته ،

وثانيهما ، غريب استضافه محسن في بيته ، قطع في زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح اثنتين هبنا لنجدتها .

الثالث ، قاتل مأجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسيء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيباً انسانيا بأنه يعاون عليه خصومه فتربص به وقلته ، ثم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وأنا أوقع أوامر التنفيذ ، بالابرء والتكاسى والإيتام ، وهم يدهيون ضحية بعض الاشقياء في ظروف تدعو الى الرضاء والبكاء . وأمام دموع الصغار الذين لقمهم اليتيم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن أو أبنائهن ، لا يمكن للمشاعر إلا أن تتحرك ، وللنقمة إلا أن تشدد . وفي مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقا على ندوة تلفزيونية عرضت في فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف

ولو أن الذين حكموا على تلك الزهرات الطوة من أصحاب العقيدة الوجدانية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام ، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس ، ويعود الصفاء الى الأعصاب ، وترتفع رابة العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسدية ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فان كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الدميم ، القانون والسيف .

ويا بلادنا ، انى انتهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيك القانون ، ويحترم الإنسان ، وتسان الحريات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم » واحسن تكريم له أن تسان إنسانيته ، وبزول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعرى ، القاتل :

ما دامت الخيـل والانعام خائفـة
فرسا ، فما صح أمر النـسك للـأسـد

انى من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا استثنى من ذلك ، الاجرمة الخيانة في حالاتها الفظيعة ، لانها تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيانتة الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصلاح وحرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى في وحدة قومية ، او تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره أشمل من خطر المجرم المادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله في المدينة الغاضلة ...

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قائمة ، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا ، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد اسود

الراجع

- Jean Imbert** : La peine de mort.
P.U.F. 1972.
- J. Ancel** : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le problème de la peine de mort. in
Revue des sciences criminelles 1963.
- J. Graven** : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mémoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.
- Norval Morris**, Rapport publié par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10
- Vouin** : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Thorsten Sellin** : la peine capitale et le procès pénal, dans :
Problèmes contemporains de Procédure pénale, Paris 1964.
- R. Merte**, Les aspects théologiques de la peine de mort, dans :
"Travaux du Colloque sur la peine de mort Organise à
Athenes en 1960.
- Oerton** : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Savey = Casard** : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.
- Vernet — Joseph**, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966.
- Thierry Lévy**, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.
- وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائريين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .



ميخائيل نعيمة ناقد أدبي

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

ليس النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة إلا وجهاً من نتاجه الأدبي المتنوع ، والذي يشكل ، في النهاية ، نظاماً تفكيرياً واحداً من حيث النوع والمبنى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما أن كل إنتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله - على بساط البحث لكي نتعرف بوضوح الى نظامه النقدي في صورته الاكمل . وعندما اردنا ان تبين نتاجه النقدي وجدناه متوزعاً في اربعة مناح :

١ - رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين أرسلوا اليه نتاجهم فيعرض نعيمة في هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهي كثيرة : بعضها منشور في الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ - المقدمات التي يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ - الأحكام والآراء والملاحظات في الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبي أو الفلسفي أو السيرة .

العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذة اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد الميت » (٢) .

وعلى هذا ، لا ينطلق نعيمة في مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فني محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والإنسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، في منهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وبخسوبة ، وإذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسرار القواعد الضيقة - مهما وسعت - ليكون وجه الحياة إذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضيا بل (لو شئت أن أحدد النقد بكلمات ثلاث قلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكي تبقى الأشياء والحياة في قيمتها المتألقة المنشودة « فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار - أي الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، فالحياة هي الانتقاد والتجديد (٦) . انه بحث مستمر عن حقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سُنَّة من السنن التي تقوم بها الطبيعة والطبيعة أكبر مغربل ... القربلة سُنَّة الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

٤ - كتاب « القربال » الذي يضم إحدى وعشرين مقالة توزعت في ثلاثة محاور :

١ - مقالات عن النقد البئس : القربلة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب - هجوم عنيف على الأدب التقليدي والتبحر اللغوي : الحباحب ، نقيق الضفادع ، وهجوم على العروض التقليدي : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جدا يدعو فيه للترجمة .

ج - النقد التطبيقي : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحاني في عالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، أغاني الصبا ، النبوغ ، شكشير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف ، الفصول .

وهكذا فسمه تأليفه النقدي ، على الإطلاق ، هي المقالة . وكان أول مقال نقدي له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة اذ يقول : قرأت الرواية فاستفزني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدي حرره ، فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديداً مرّاً بجمود اللغة

(١) دمج نعيمة لسمها من هذه المقالة في مقال « الحباحب » المدرج في القربال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ - ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط أولى ، مطبعة لسان الحال ، بيروت ١٩٢٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ - ١٩٦٠ (الرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) القربال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الأدب والناقد » دروب (ط ٣/ دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) القربال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

محور الحياة - على حد اشارته - وإن قواه هي التي تربنا في دياجير الحياة وميض أنوار تحببها إلينا (١٠) ... وإن « لاقية لعمل يأتية (الإنسان) إلا بمقدار ما يدينه ذلك العمل من معرفة نفسه أو يقصيه عنها ؟ وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه فهو أبدا يقى كل ما يهيه بهذا المقياس فيهمل منها مالا يزيد به نفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه (١١) . وإما أن الحياة تنقدنا في كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهذا أيضا إلا على أساس أنها مجال نشاطنا ، وإذا نحن سليل تفاعل مع أحيائها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل ، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الإنسان أساسه ومحوره ، إذ لا وجود للأشياء إلا بنا . كذلك نقف موقف الحذر من قوله « (في حين أننا نققد الغير وقلما نوجه نقدا إلى أنفسنا) » على أن هذه الظاهرة تبدو صحيحة وواقعة ، للوهلة الأولى ، لدرجة أنها تكاد تعمى وراءها حقيقة أبعد ، ذلك أن نقد الآخرين إنما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن في العملية النقدية لا يهمننا الناقد والمنقود ، بل الأهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات إنسانية ، فكل مظهر ذاتي ، بل أي مظهر ذاتي ، إنما هو في الحقيقة مظهر إنساني أيضا ، وفي أن . فإذا كان مجال عمل النقاد ما يكتبه غيرهم وما أنتجوه فإن مادة هذا المعطى وهذا التناج إنما هي الحياة « أن النقد الحق يأخذ مادته والهامة من الحياة » (هدسن) .

وهذه هي الحلقة الدائرة التي يهتجها النشاط الإبداعي : الحياة الأدبية النقد أليصب

يتحول نعيمة بمسألة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية إلى موقف أخلاقي ، يبين بالتالي خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتاجها « فالنقد أخلاقي ولابد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد - ككل إنسان - مغرور عليه « أن يصحح » ما يراه أو يعتقد أنه خطأ ، وعدته في ذلك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له أخيرا مجال الاختيار ، فيكون نشاط. النقد التزاما للحياة وأحيائها ، وارتباطا عضويا بها . من هنا بان من الضروري التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والإنسان ... أن الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقد من هنا وفيما لفرق شاسع جدا ، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . إذ ليس ما هو خارج عنها لتوجه إليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين أننا نققد الآخرين وقلما نوجه نقدا إلى أنفسنا (٩) فيقيم المقارنة على مستوى نوع العملين الناقدتين ، وهو أمر يصدر عن خطأ مبين بفصل التمييز السوي بين النقد الإنساني وما سواه نقد الحياة . فالقول بأن الحياة تنقد ذاتها بذاتها لا يمكن أن يعنى عندنا إلا أن الحياة تملك من نفسها وفي نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير أننا نرى - في هذه الحال - أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تكون إلا بواسطة الإنسان ، فهو أولا يعي ذلك ويقدره ، وقيمة الشيء في معرفتك به ، ووعيك له . وثانيا لا نعرف كائننا الآخر بملك الحس والإرادة والتمييز والاختيار غير الإنسان . فالحياة لا تختار وإنما تعرض أحيائها عرضا ، وبقاء الشيء والوجود رهن بحاجة الإنسان وأرادته له ، ثم أليس الإنسان هو

(٨) راجع متللي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع القربال ص ٢٣ - ٢٥ .

(١١) القربال ص ٢٥ .

النقد ، أولا واخيرا ، في الحياة ، اى النفس الانسانية بكل ما لها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا تحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق في الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغريبة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان نسمعه ادبا . فمهمة الناقد اذا هي غريبة الآثار الادبية لاغريبة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « ادبا على الادب » اى ان مادة الناقد الاولى بدليل ان تكون من الحياة المشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلف » والمعبّر عنها بالدرجة الاولى من الشاعر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة ان لتمييز مكانة النقد بالنسبة للانتاج الادبي علينا ان نعرف اولا حدود العمل الادبي نفسه ، وحدود الاشكال الثقافية الاخرى والتي تمسه بشكل او بآخر ، وعلى هذا يتبين وظيفة النقد لعلنا انها غاية بذاتها بل « القصد من النقد الادبي هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقيبح ، بين الصحيح والفاسد » (١٤) فينهج بذلك نهج اليانجي خاصة والنقد العربى عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى ، مبنيها - الى حد ما - انها تقرر نوع المقاييس الادبية والفكرية التي تسود ، في زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لمن يقرر

الناقد ذلك (او على الاقل يعمد للتقرير) : للكاتب ام للقارىء ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله بغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا ايضا « عواطف وافكارا مشتركة هي نتاج مجهوداتنا الادبية المشتركة . وغريبة هذه هي وظيفة الناقد » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعنفا ومدى بتفاوت البواعث التي تبعثه ثم بتفاوت القوى التي تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهي لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكون علاقة الناقد بالكاتب ، فهو يعبر عن القلق الذى يشيره العمل الادبى فيه ، ثم رغبته في التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تشيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من اوضاع يعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . وياتى الناقد ليعبر عن القلق الذى يشيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . اى ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة اخرى هي علاقة الارة . « فمن يريد ان يشير

(١٢) الفريال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الفريال ص ١٥ .

(١٥) الفريال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

الشخصى والتجربة المباشرة لادراك حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع سائت **يوسف** بأن الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا أى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش اثر الادبى ، ما هي حقا صورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من امتثاله باثرها الذى حققته في نفس القارئ ، على نقيض ما يرى **ادموند جويس** من ان النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك في الادب او في الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدا يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصصا ، وهو تحليل لاراي الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب في علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم اواصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اى ان الاديب الكبير هو الذى يمهّد للناقد الكبير او يخلقه (ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهّدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا عكس فاقول ان النقاد الكبار يمهّدون الطريق للادباء الكبار . فالمعقبة الحظّة تشق طريقها بتقدّمها لا بما يقوله فيها مادح او قاصد (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطى العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

مشاعر الآخرين عليه ان يتأثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذا يبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستغفر المواهب للعطاء والإبداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد - اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابدا . فالتأثر ليسوا على مستوى شعورى واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد اوسع ، بل احد ، ذلك انه وليد الكيان الادبي نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباحث الاول له . واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى في النقد ، عند نعيمة ، ولها صبح اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة ، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد ببناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص وسيئاته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترب من اليوت « يقينى ان للنقد غاية : هي توضيح الاثارة الفنية وتثقيف الذوق فيصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان اساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتأثير ، وذلك لانه لا يستطيع ان تستغنى عن الذوق

العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمة يفرق تفريقا قاطعا بين النقد والادب ، بينما هو في الواقع « ادب من الادب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكم الادباء في ان بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما في الامر ان النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يعدو ان يكون ادبا يتخذ من الادب نفسه موضوعه (٢٧) وهكذا يظهر لنا ان نعمة لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سياتي . ولكنه لا يقول ايضا ان النقد دعاية لا يقوم الادب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارئ والناظر والسماع والزمان . فان خطأ القارئ والناظر والسماع فلن يخطيء تقدير الزمان في المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مراتب عالية **ككنانت بوف وتين وراسكين وبيلسكي** فيما في نفوسهم من كنوز الافكار والاحاسيس ما تكتشف الا لدى احتكاكها بكنوز مماثلة ، « فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقا على هذا الكتاب او ذاك » (٢٨) من هنا كان لنا ان نستنتج ما يلي :

١ - التأكيد بان ليس الناقد وحده ، وبالضرورة ، الذي يقوم بمهمة النقد ، بل هناك الزمان (٢٩) (يلحظ هنا ان نعمة يعدد الاسماء لقوة خفية واحدة هي وحدها تحفظ

قيمتها التي يحملها ، اي ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن ادبي : ولعله بذلك يلدك بموقف **ورد ذوث** « ليست القدرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل احط شأنا من ملكة الخلق والابتكار » ولو ان الوقت الذي يبدل في نقد الآثار الابية ينفق في الادب الانساني من اي نوع كان لكان ذلك خيرا لنا واجدى (٣٠) (ورد ذوث) ، او بما يشده **اميل فاجيه** « اننى لا اعتقد بان للنقد ثمة امرا ، ويقدر ما اتعمقه اقتنع بان ليس له اى اثر (٣١) . فالناقد لاحق بالكاتب ، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلو لا الكاتب لما كان الناقد ولا يصح العكس ، وذلك هو الفارق الاول **والأهم** ما بين الاثنين (٣٢) . فالادب الخالق ينظم تجاربه التي استمدتها من « رأس النبع » في أكثر الاحوال ، اما النقد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، اي من الحياة ، اي بعد ان تغلب الادب نقلة جديدة . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه في الاستقلال بقدر ما بينهما من اتصال (٣٣) . فالناقد اذا هو الحلقة التي تربط بين العمل الادبي والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبية تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة في مجموعها . ومحاوله اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائى بشأن هذه

(٢٣) راجع الثقافة ١٩٤٢ ع ٢٢ ص ١٦ .

(٢٤)

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلي هاين : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٧ .

(٢٧) ريف خوري ، الادب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تفرقه من مؤلف الريحاني في هذا الصدد ، راجع رسائل الريحاني (دار الريحاني ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الأدبي . ومرة بحت من هذا النشاط وأصحابه ، فيكاد ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التي تقوى كلما باضت وليفقتها ، ويلمعهم الى الشغل بانفسهم والى الانتاج الأدبي وترك سواهم وشأنه . وهنا ينهي لنا أنه يميز بين نوعين من النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة علميته فيفهمه تناولا للمؤلفين ونتائجهم وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة لم يكن صريحا وواضحا في هذا التعريف ، بل كثيرا ماكان يتحدث بصورة عامة فانت لانتكاد تعرف من يقصد من النوعين ، معادف رثيف خورى الى ان يأخذ عليه هذه الظاهرة « فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ليؤن لى ان اصغها بالأمعة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليغة الضرر . تلك هي الفلسفة « الليبرالية » المحض وأدعوها بالعربية « الاصطفالية » دهي تستند على ان هذه القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة في العصور ، عدا انها في كل عصر وبيئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة لاشية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد بوسعه ان يدعي انه يصدر من هذه القيم قيم الحق والخير والجمال ... » (٢١) وتفسيرا لتلك الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد على اساس من الحذر والاحتد . فهما مستويان مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

خلود العمل الادبي فحينما الحياة ، وحينما الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارئ ايضا . اذ ليس ثمة فائد أعلى من الجمهور ، فهو متبصر بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما يصيب من احكام سديدة في جميع الانواع ، فهو يطلقها اولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد في اللغة لتؤلف الرأى العام (٢٠) . وهكذا فالنقد ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له اصحاب اختصاصيون ، بل هو امر يتولد طبيعيا عند الناس ، وبالتالي يمكن اية كان القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع من مسؤوليات ، فان الصحيح لايعوز ناقدنا يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هي التي تعطى الاثر الادبي القدرة على البقاء اذا كان حاملا اسبابها .

ب - غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى تحليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصره على مجرد الشروح والتعليقات او الاسفاف لان يكون ضربا من المهارات او نوعا من المماحكات ، انه تأليف تنبع قيمته من ذاته ولايستعيرها من المواضيع التي يشغلها . فالناقد الحقيقي هو خالق كالشاعر ، فينحو بذلك نحو سانت بوف او دي غورمون ، وينهي لنا ان هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم بالعجز عن ان يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الابداع والاسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر في امر النقد ، وفي تحديد المكانة التي ينبغي ان يشغلها هذا النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق ، ويعظم الناقد حين يذكر تين وسانت بوف الفرنسيين وبيلسنكي الروسي . فيؤكد ان من

فالحديث عن النقد ليس حديثاً عن قيمة هذه الآثار على أساس جمالي أو مثالي مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقي عنده لا يكون التزاماً بقواعد مفروضة ومبسقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد في توتر دائم للخلق والإبداع . فإذا كان المؤلف أو الشاعر خالق اثر ما فإن الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٢٤) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) **فمن هو هذا الناقد؟ ما صفاته وما ثقافته؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبي والآخرين؟** أولاً يكون في وقفته هذه سداً ، في الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الأدبي ؟



صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبي ، في أساسه ، وظيفة فكرية ، مادتها المنتج الأدبي ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الاثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارئ وله ، فهو الذي يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذا الاديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتألف في كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملاً من أعمال البنية الإنسانية (كالشمي والاكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعي أو الحضاري . فان الاصول والأدوات الجديدة في النقد ، والاتجاهات في البحث ، تعتمد في أكثر احوالها ، على

العلاقة على أساس من الثقة والاطمئنان . إلا ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الإجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأخرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٢٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولاً عن شكلها . ولعل علي ادبهم يفسر ، في شكل أو في آخر ، جانباً مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعي ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون في يسر وسهولة عن أحزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، في حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٢٣) »

وهو اذ يفهم النقد غربلة لجهودنا الأدبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الأثر أساس الملكة النقدية ، وهو أخيراً ، اذ يفصل في العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بأن بحث نعيمة في المفهوم النقدي لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، او على أساس اتجاه مذهبي محدد ، او هو يستل من نظام فكري فلسفي مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على أساس انه فن هو أو علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الإنسانية والسمائية الأخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة . . . وبالتالي لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل في رأيه ، وبعبدا عن أي تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذي تكتنفه الآثار الفنية.

(٢٢) دروب ص ١٨٥

(٢٣) علي ادبم - على هامش الأدب والنقد (دار الفكر القريب ، مصر . لا . ث) . ص ١٢٤ .

(٢٤) الفريال ص ١٧ - ١٨ .

محجة لندركها في النقد هو الرائد الذي سنتبعه،
والحادى الذى سنسير على حذوه (٣٦) .

فحين يكون المناخي تراكما يورث الضل
ويبعث الشوه في أذواق الناس وملكانهم وإذا
لا يعود الزمن أكبر مغربل ابن منه غرابيل
الناس (٣٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف
الغطاء عن ذلك الماضي لتحس حقائقه ،
وحسب ، بل لا يمكن تنبؤه بالنقد وإطلاسه
عليه ، فيكون له السبق في استشراف القيم
الجديدة ، أى ، هو ، في حالات خاصة ،
يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **أمروسون** ،
وقد يعين موضوعات الأدباء يكتبونها مثلما فعل
جورجى ، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك
مترسما خطى **تولستوى** وخطى **بولوا** والنقاد
الرومانسيين . أو قد يمد الفنان بموضوعات
محددة وقواعد وتقنيات علمية ... وإذا يكون
الناقد شبيها بمخرج فنى ، يبين للقارىء
الروح التى يجب ان يستلهمها في سبر أعماق
الأثر الأدبى فلا يكون (هذا الأثر) ثابتا ونهايا
عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، في
الحقيقة ، ينتهى مع النقد . وهذا الناقد
القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية
لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا - كما
ادعى اليازجى - بالمطالعة أو بالدربة والممارسة
أو بأى سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أى

فروض (٣٥) أصبحت أساسيات في الفكر الإنسانى
الحديث ومميزة له . وإذا القارىء عاجز ، كل
مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى
المقاصد والإبعاد الحقيقية التى يكتنرها الإبداع
الأدبى ، كان على الناقد إذا سبب المسك
بالقارئ في يد ، والمسك بالأثر الأدبى وصاحبه
في يد أخرى فيساعد القارئ على فهم العمل
الفنى وتلوقه ، ويساعد الفنان على ان يفهم
منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره
بتعميم المعايير المطلوبة أو بتحديدنا وتجهيزها
فيكون الناقد بالتالى مستقطبا بثلاثة اهتمامات
واضحة : أولها الادبى المبدع والخلفية الفكرية
التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح
نتاجه ، وثانيها العمل الأدبى نفسه ككائن
أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما
أراده الأدبى بل يصبح له استقلاله النسبى
وقوانينه التى تحكمه بنفسه ، وثالثها القارئ
الذى هو ، بالنهاية ، مركز جميع هذه
المقومات والاهتمامات . فمن هو ، في رأى
نعيمة ، هذا الناقد الذى هو حاجة ضرورية
في المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا
اذ إننا في حاجة الى الناقد لان أذواق السواد
الأعظم مثلا مشوهة بخرافات رضعناها من لدى
أمننا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ،
فالناقد الذى يقدر ان ينتشلنا من خرافات
أمننا ، وترهات يومنا ، والذي يضع لنا اليوم

(٣٥) يعود الفضل في هذه الفروض ، بالدرجة الأولى ، الى أربعة علماء كبار من مفكرى القرن التاسع عشر وأوائل القرن
المشرين هم : دارون (منه جاءت الفكرة بان الإنسان جزء من الطبيعة وأن الحضارة تطورية) وماركس (القتال بان
الادب هو الذى يعكس ولو بطريقة معقدة متلوية أحيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والإنتاجية لهذا العصر أو ذاك) وفرويد
(الذى يرى أن الادب تعبير ملغى وتحطيق لرغبات مكتومة قيساسا على الأحلام - وأن هذه الملغيات تعمل حسب مبادئه
معروفة ... وفكره ان هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعى وأن بين الرقيب والرفسية في التعبير صراعا
مستمرا) وفرويد صاحب الأفكار عن السحر البدائى والأسطورة والشعائر البدائية ... كلها تكن في أساس
أعلى النماذج الأدبية ، يضاف إليها فكرة السلوكيين بان الادب ليس الا رجلا يكتب رجلا يقرأ ولا شئ غير ذلك ،
وفكرة العقلانيين بان الادب قابل للتحليل « ... للتفصيل في هذا الموضوع راجع ستانلى هايمز : النقد الأدبى ومدارسه
الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الفريال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « في مهب الريح » ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٦٤ .

لا وجود له على الإطلاق . (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب في طبيعة العمل ومهمته، سبيله ان يبصر الاشياء على حقيقتها ، محاولا ان لا تسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقا مع نفسه في ما يذهب اليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الادب بان يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته وبان من بناته ، وكثيرا ما يكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرما على اتجاه قديم في الادب ويدفع به في اتجاه جديد ... انه روح الثورة في الادب (٤١) . واذا قد يفعل النقد ، حيناً ، - في الحركة الفكرية - ما لا يستطيع الادب وحده ان يقوم به . فهو حديث مباشر مع القراء ، يشرح الاشياء ويكشف عنها الغوامض والاسرار التي اكتنفتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة في الادب ، اى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو السبيل ، معا ، في التمهيد لمنازع جديدة وفي القضاء على اتجاهات قديمة ، اذ قل هو محك الادب يستظهر منه طاقة الحياة فيه واسباب الجمود والموات ايضا ، فلكي يقضي نعيمة على نوع الادب السائد اثناء ثد (النازع الى القديم والقائم على برامة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلا يعتمد عليه للقضاء على ترهات الماضي وللمهيد لادب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدمك الاول لبنائه الادبي على الاطلاق .

هو يكون ناقدا ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والاصيلة (واذا الثرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثيلها لها « هناك خلة لا يكون الناقد ناقدا اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التي توجد لنفسها قواعد ولا توجد لها القواعد ، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازنين ولا تبتدعها المقاييس والموازنين ، فالناقد الذي ينقد « حسب القواعد » التي وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا يفوقه ولا الادب بشيء » (٣٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيدا لا يحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه وأهمها قوة التمييز ، لان النقد ليس « حكما » فقط بل هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص » و « ترتيب » في مرحلة أولى . واذا فدراسة القواعد وتطبيق مضامين النقد وتقنياته لا تطلع ناقدا ، بل في ذلك خيانة لحقيقة النقد والادب على حد سواء ، اذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الدلال على المعايير او المحاسن في النص الادبي ، وكما تراهي له ، وهو لن ينفعه في ذلك برامة اسلوب او طابع تهكم وسخرية ، (٣٩) لان في ذلك قتلا للروح المبدعة فيه ، وفهما سيئا لوظيفته ، اذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . فالناقد الذي يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وان يعين الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصور حكمه في ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد

(٣٨) القربال ص ١٧ .

(٣٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

مبدع ومولد ومرشد مثلما هو محمص ومثمن ومرتب . فالنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذي يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب في اثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه » (٤٥) . **واذا يعتبر اولا** ان الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الاديب ويسعى الى اثباتها وتحقيقها ، بكل وعى وارادة فيكون بالتالي عارفا بجميع ابعاده وبثائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغريرة منه ، اى الاديب ، قد لا يعرف جميع اسرار مولوده الادبي . « ما اكثر ما تناولت قلمي وفي نيتي ان اكتب كيت وكيت واذا بي اكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليدبو لي احيانا ان يدى ليست وحدها التي تقود قلمي . او ان قلمي ليس وحدي » (٤٦) واذا هو في موقف شبيه بموقف القارئ **ويعتبر ثانيا** ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيث ولادته وتلوقه . **فالنقد « اكتشاف »** (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فان روح الخلق الادبي وروح النقد الادبي من نوع واحد « وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من الحلاق بروح كبيرة

الذات هي الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارئ والكاتب معا على احترامهما والايمان بها ، اتقى بصيرة وأوسع افقا واسلم ذوقا واصدق نية وامضى هزما واشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٨) وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غير الاثر ، في تواصل مع الكاتب عليه ان يكون اولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاربة الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر ان يكون ادبيا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفني الذي يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . « فلكي تكون نافذا ممتازا يجب عليك ان تكون مؤلفا جيدا ، فالوهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفق بالناقد قدما تبيين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٩)

الناقد مبدع ايضا

لا يقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو امامه وتمحيصه ، وتثمينه وتربيته (٤٤) فهو

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1870—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان برولتير (١٨٤٩ - ١٩٠٦) في مقالته من النقد في « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمييز والتصنيف والحكم . ويشرح والتصنيف على انه تحديد علاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالبيداء الخاصة لنوعه الفني ، وبالمكان الذي طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكون شرح الاثر معنى تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية غير معين لان المهم هو تحديد موقع الاثر في « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعي غير شخصي اذا تطلبنا اعتبار « الروح الادبي » من جهة ودور وظيفية النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الفريال ص ١٨ .

(٤٦) سيمون (الرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الفريال ص ١٩ .

ان الناقد هو محور العمل النقدي ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للإنسان ، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التي هي « بنات ساعات جهاده الروحي ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهي اذا تسامت ثم دعت من الناقد بالاخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سبط بقوة خفية على جماهير قرائه فاعطتهم وجهة جديدة وإيمانا جديدا (٥٢) وهكذا فيحركة تكاملية يصبح الناقد ، بدوره ، كاتبا لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة في أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن أن يحدد بمقاييس الدور او القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالأثر الأدبي هي علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن أن يزعم ترجمة الأثر الأدبي وتفسيره وتوضيحه اذ ليس أكثر وضوحا من الأثر الأدبي نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبي بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . منا يمكنه هو أن يلتمس اتجاهها يشتقه من شكل هو الأثر نفسه . وبالتالي فالناقد يثير أمام النص الأسباب نفسها التي يثيرها الأديب أمام العالم وأشياؤه.

غير أن هذا المنطلق التأثيري العامل بمنطق الدوق وإحكامه إنما هو امتداد طبيعي للقلق المتوثر عنده باستمرار ، فنقل أفكاره عن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والتركيز لهذه المجرّدات وجودا مطلقا او ملتصقا بجوهر الأشياء والأفعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو في ذهن الإنسان وحده (لا في خارجه) مصدر

في كل نزاعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحى موحياها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الأصيل بين الناقدين والمبدعين في الأدب لا يملك أي معنى او قيمة ، او هو لا يمكن أن يكون الا مع النقاد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة في تاريخ النقد ، بل لها أسيادها وخاصة في النقد الفرنسي انطلاقا من سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) وارتقاء بمارسيل بروسست (١٨٧١ - ١٩٤٥) واندريسه سيواريس (١٨٦٨ - ١٩٣٩) و (اميل شارتييه) الآن (١٨٦٨ - ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الأثر وإعادة خلقه ، أي ان الناقد قادر على إثارة العواطف والمشاعر المختلفة وإن يعيش من جديد التجارب نفسها . يقول دويو : ان طريق النقد المثالي هي طريق الإبداع ولكن بأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهي المؤلف لينتهي من جديد حيث بدأ المؤلف أيضا ... ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صاحبها ... ان كل شيء يبدو لى حقيقيا بالنسبة للقوة التي ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكرى والاصالة التي تختفي وراءه تبدو في معنى علاقة مشابهة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد أيضا مولدا « لأنه في ما ينقد ليس في الواقع الا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن في ذاته بل لانه ينطبق على آرائه في الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلمعده انطبق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) أي

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩)

(٥٠) الغريبال ص ١٩ .

(٥١) الغريبال مقالة « محور الأدب » ص ٢٢ - ٢٨ .

(٥٢) الغريبال ص ١٩ .

الإطلاع على النصوص أن تؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا وجدانيا لا يقود الى أى ارتفاع ، أو الى ادراك ما في القيم من تنوع لا ينفد . وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى إقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكي يسهل فهم الغربة الأدبية والقصد منها (كما سنرى في المقاييس النقدية عند نعيمة) إنما كان يتحول الى إقامة علاقة شخصية أخرى ولكن ما بين الناقد والنص الأدبي ، هذه المرة ، وبالتالي ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة في متناول نخبة تلاحظ وتفهم ، وكل قصة نمط من السيرة الذاتية ، والناقد الحاذق هو الذى يكشف نفسه عبر روائع الأثر ، فإذا كان الشاعر يتلمس المجال الذى تتفتح فيه موهبته وتحيا فإن الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن أن يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفنن فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتباً مغرورا الى صوابه ، أو يهدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا أننا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الإرشاد هنا تأتي نتيجة حتمية وطبيعية لخاصة الإبداع والتوليد في الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة وما مداها في التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا ما يكون الأدب ، غير موفق في اختيار مجال نشاطه ، أى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر أصيل ودائم منذ نعيمة يقول بان الأدب ولادة فطرية في نفس صاحبه ،

الحكام على الأشياء والأفعال . وهكذا فني مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للأدب فلم يبق أمامه إلا الشعور بعمده في أحكامه . فنقد الأدب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتأليف الأدبي سواء بسواء . غير ان شعور الناقد أو القارئ (رضاه أو نفوره) عما يقرأ ، ناشيء في الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يعيل اليه أو ما يفضضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . أى كأنه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، وإعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الأدب أو تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور في خلد الناقد (أو القارئ) **فنعيمة يقيم شأننا عظيما للانطباعات الشخصية** . الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليقها ، لأنها ليست في حقيقة امرها ، الا انكاسنا مباشرا بشكل أو بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد في خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الأشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقى معين - مهما بلغ نضج هذا المستوى - إنما يصدر عن موقف سيء : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الأدب والقارئ) ، بل لشدة التصاقه بالنص الأدبي لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن الأثر الأدبي بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرأ اوفى ؟ بل ان هذا التحكم الذوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف في تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة أسيرتها ، بل تتسع لها ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى إرساء أصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الغرض من

فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانيات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ما تقدم من خصائص الناقد ، نستنتج أن للناقد ، عند تعيمه ، شأنا في ذاته ، ينبع من شأن موافقة نفسها وليس من قوة أخرى . فهو يدأب في تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول او موارد خارجية عنه ، لأن ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تعميم موافقة وإثباتها يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمها (المقاييس والموازين التي تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هي ما يطن به سطوره ، من الاخلاص في النية والمحبة لمهنته ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الدوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما أوتي به بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارئ وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه أناتول فرانس في « أن النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة وأهمية (٥٨) » .

بواعث النقد

البواعث التي تعطى النقد مركز التقدير هي نفسها البواعث التي تعطى العمل الأدبي وجوده وكيانه :

١ - اخلاص في النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد من الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا ما يبسها وما يخصصها ، فاية فطرة هذه صادقة تنتج في مجال ما فاذا نتاجها في مجال آخر ...) هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليسم وصادق في مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، او لا يكون ادبيا . لم يقل « من كان معدا للادب كان في غنى ممن يدلّه على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافر لاتتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والممداد والقرطاس (٥٩) » . فيأتى الناقد ليهدي هذا الاديب الى فرعه وبذله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه « . وعندنا ، ان قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة ووداعة النفيسة التي ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب يتقلب تهليلا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من اهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد أن يعلمه للآخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة . وهو مرشد للمؤلفين ، ولكن لا من حيث هديهم الى النوع الفنى الملائم والمناسب للمكانهم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى « لان التنوع الفنى عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر (الابه) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم

(٥٥) في مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) القربال ص ٢٠ .

(٥٧) القربال ص ١٦ .

(٥٨)

الناقد يتذوق ليخلق

غير أن القول بهذه البواش والعناصر ، لايعنى ، في نهاية الأمر ، بأن يكون الناقد هو الأديب . أو انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الأدبية الا اذا كان هو نفسه من ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما في النقد العربي ، وذهب النقاد العرب فيها لمذاهب شتى ، ولعل ابن وشيقي يخلص طابع مذهبهم ذاك حين يقول بأن « أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربهم أو كانوا منهم بسبب ! (وقد كان أبو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة ، اعنى النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحدقه بها واجارته لها) . (١١) »

اى ان الناقد الشاعر أبصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل أيضا وبحماس بأنه ليس من الضروري على ناقد فن ما بأن يكون هو أولا من ابناء ذلك الفن المنتجين له « وقد يميز الشعر من لايقوله كالبراز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر من الدنانير مالم يسكبه ولا ضربه ، حتى انه ليعرف مقدار مافيه من الفس وغيره فينتقص قيمته ... (١٢) » وهو عين مايلزم اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعاء بقوله مستشهدا بجواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أهليّ ان أبيض البيضة اذا لأعرف ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ؟ » (١٣) ولعل ذلك

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمقود فينحاز النقد الى التحليل او الى التحقير تبعا لنوع العلاقة على غرار ماراينا في الفصل الاول من هذه الدراسة) .

ب - يستتبع هذا جبه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمعة النقد السلبى ، افتقاده لعنصر الحب هذا (١٤) اذ يورث فيه التزام عمله النقدى الصافى فيكون همه ، وبالتالي لايقبل فيه الزيف ، لانه يصدر عن دقة في الذوق ورقة في الشعور وتيقظ في الفكر . فينتأى لنا انه يريد ان يجعل من النقد عملا صعبا ، يعلم الجمهور ظواهر الأثر الادبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف الميقاتيات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الامور الوزن الاكبر فلا يفغل الحديث على ملكة التعبير عند الناقد وطريقتها وقوتها ، لانها تنتمى للعناصر الاولى ، وهو اذ يضعها في درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التى يصدر عنها هتا بحالة **فلوير** حين كتب (١٨٦٦) الى **جورج صاندن** عن موضوع الناقدين فقال « كان الناقدون في زمن **لاهلوب** نحويين ، وفي ايام **سانت بوف** وتين مؤرخين فتمتى بصبحون فنانين حقا وصدقا (١٥) . فتمتد نعيمة اعتبار كبير لطريقة العرض النقدى ، اذ انه يؤمن بان كثيرا من الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايقتدونها من طريقة عرضهم لها .

Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٥٩)

(٦٠) ستانلى هايمن ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، المعجده ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) القربال ص ٢٠ - ٢١ .

(النفسى) وهو فى كل هذا انما يصدر عن موقف ادبى واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتج الادبى ، وان سلطان الادب فى انه ابداً يحول فى اقطار النفس باحثاً عن مسالكها مستطلعاً آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضاً للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (١٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسى بديل للاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية او تبيان المعاييب والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت يوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (١٦) فدراسة الأنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هى احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الاولى على الاطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن ان يكون الا فى نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد امام كل نص او اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، فى آن ، عن حقيقة الكون ومجراه (١٧) ؟ ان ناقداً كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متأصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجراءة ، الدقة ، الشعور ... » وفكرية متيقظة و طاقة تعبيرية نافذة يكون رائداً لا يعدم اناساً ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشنيئته ، فيستجوبون ما يجب ويستجوبون ما يستجيب ، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطاناً باتماً بآمره وتمذهب بمذهبهم وتتحلى بعلاهم وتندوزق بلوقه ألوف من الناس . اذا طرق سبيلاً سلوكه ، واذا صب نغمته على صنم حطموه ،

يعود الى بعض المفارقات البدئية ما بين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، اما الناقد فيتذوق ليجلخ . فهما شريكان ، لا فى نغم التاليف ، بل فى القدرة على الشعور بالحالة نفسها والتجربة ذاتها اللتين صدر عنهما العمل الادبى « غير ان من الناس من لا يدركون ان من لا ينظم القصيدة قد يقرأ فيها اكثر مما اودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم فى حياته بيتاً ولا عرف مافى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ولا من لذة الفوز بها ، غير ان ذلك لا يوقه عن ادراك مافى الافصح من عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يعميه من تموجات الاسوان فى الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الالخان فى مقاطع الالفاظ والمعبارات . والا لا يكون ناقداً . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبأته الى ان تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكان القصيدة من وضعه . واذا ذلك لاحاجة به ان يكون عالماً بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (١٨) فيكون دون الشاعر ان ينقل الحالة كما هى لياتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، بعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . ولن يعيق الناقد شكل النتاج الادبى اذ همه ما يحمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لا ينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ما ينظر الى نوع ما قاله ، وفرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطعاه ، اى ان الناقد يتجه فى بحثه اتجاهاً يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل

(٦٤) القربال ص ١٧ - ٢١ .

(٦٥) القربال ص ٢٧ .

(٦٦) راجع قسطنطى الحمصى ، منهل الوارد فى علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) هذا ما يقول به P. Valéry راجع P. Valéry 135-145. M. Bémol, la méthode critique

تسليطها على النقد الأدبي ، أى لن يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . وإذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة « فلنترجم ولنجل مقام المترجم لانه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولانه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترنا عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بانفكار هذا العالم وآماله وافراحه واحزانه . فلنترجم (١٦) فدعوته هذه لا تحدد - وعلى سبيل المثال - (تفكير نعيمة بكرة التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضيه على ذلك ، وليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء الى اللوق والبصيرة ؟ وليس الناقد أيضا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب اللوق وحده في كل مرة ؟ فلطالما أحس نعيمة بهذا الهاجس الذى كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه في كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الجدر والاحتمال ولا يجزم في الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير ان الناقد ين طبقات . كما ان الشعراء والكتّاب طبقات . فما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم (٧٠) . وهكذا فإن نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقد والشعراء الى طبقات منزع النقد القدامى أنفسهم في تصور الشعراء على أنهم طبقات (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما بنافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضا

وإذا أقسام لهم الها عبيدوه وبخسروا له وسبحوه (١٨) لانه انما يصدر في ذلك لا عن فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر - في تلك الخصائص المذكورة - عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذى يحدده اطار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافي والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يمثّلها جميعا ويصهرها في بوتقة واحدة ، فهو في عمله انما يعبر عن الراى العام لمحيطه فإذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما في نفوس قرائه من استعداد فطرى للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلما من الأرض التى أطلعت به بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فلدبه قسط من الحساسية الحية اكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسع احاطة بالنفاذ الى حقائق الأشياء . وهو في كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهى ان شيئا لا يمكن ان يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا ان نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التى يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التى عليه العمل بنورها . فإذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة اكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الأخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يتناول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الأخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى ان دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا أريد

(٦٨) الغريال ص ١٦ .

(٦٩) الغريال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغريال ص ١٧ .

(٧١) ظالا ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهي تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة آل رضوان الشهبان .

الأزمة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق في الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا في لحظة أخرى وتحت عوامل وظروف أخرى ، وما يبدو جميلا في حالة قد يفقد شيئا من جماله في حالة أخرى . من هنا كانت تخف وطأة زلة النقاد وينعدم خطرها الفادح . « فلنحاسب الناقد بنياتهم أولا ، فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٢) فالهم ان تكون النية سليمة » اي طبيعة نفس الناقد وأصائله ، خالية ، من أية شائبة ، عندها لا قيمة لخطاه ، لان جوهره الإنساني صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة وأجاد استعمالها فذلك حد ما يحق لنا مطالبة به (٧٤) - ليس لنا ان نسال الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له ان يذهب في ذلك مع ما ترضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالأديب . واذا لا يمكن درسه على أساس ما قل ، بل على أساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها في عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكتليات . وعندنا ان الأمر ينطلق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الأديب أو الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على أصحاب النظرة المعيزة للأديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهم من الأديب الذي خال انه جليل من غير جليل الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان هيشلين موجها كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت للشعر والفن وانت تعتقد ان الشعر والفن رزق من السماء . وانا - كما قلت لي مرة - من التراب والتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي ان التراب الذي

على اى اساس يجرى هذا التقسيم الطبقي ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا اكبر . وبمقدار ما يسير غور الأديب ويعرف كنهه ويحاور المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الإعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنياته :

وكان طبيعيا ان يصل به هذا الجذر الى النهاية الحتمية فيستننتج بأن « ... الناقد لا يتجو من زلة أو هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، او يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لانه بشر والعصمة ليست لبني البشر (٧٢) . اوليس في هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من ان « الناقد مرشد » او انه حاجة ضرورية في المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الرأي عن ايمان عميق عنده ، بعبد الصدفة ، اي ان النقاد - كذلك الكتاب - نتيجة لمواضع معلومة ، يكتبون ما تليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف ان حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة تطلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لان المسألة برمتها عند نعيمة ، انها هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهي القوة الخفية التي تحفظ للأشياء بقاءها او تحرمها اياه . ويجب ان نأخذ معنى الحياة هنا لا على أنها مجرد العيش اليومي - وهو جزء منها - بل هي الحاجات والمقاييس المشتركة بين بني البشر ، والتي تخاطب جوهر الإنسان العظيم والذي لم يتغير عبر

(٧٢) الفريال ص ١٥ - ١٦ .

(٧٣) الفريال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

وظيفة هي من أهم وظائف الحياة (٧٧) .
وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الأولي في
الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلح
منهاهم .

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازياً
للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت
بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب
دعوة أدبية جمالية من خلال نقده فيضع النص
الأدبي باعتباره مجالا متحرراً . فليست
وظائفه اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف
مظاهر الاستحسان أو الاستقباح الجمالي
فحسب ، بل هي وظيفة تشريعية ايضا تفتش
عن « نسمة الحياة » وعن « المدي » بناء على
مقاييس واضحة ، وأصول تنبع من نفس
الناقد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتذوق
بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعنى ابدان
الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، أى ان الأول
يخضع للعقل والآخر ، يوضحه . ان الناقد
يقوم بمهمة النقد لأنه انسان (لا مجرد آلة)
له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب
أدبية وغير أدبية ! فيهتم بتحويل تجاربه
وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .



المقاييس النقدية :

من الطبيعي أن مفهوم الأدب هو الذي
يحدد ، في شكل أو في آخر ، مفهوم النقد
واتجاهاتهم ، ويصدق هذا أكثر حينما يكون
الناقد نفسه أديباً ، فيصدر عن خلفية وجودية
هي روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها
واشكالها ، والمقاييس النقدية هي كل مفهوم
للقد ، وكمثل الأدب ، هي محصول نوعي

ينبت القمع الغدلي والزينة الطاهرة والوردة
الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والنث (٧٥) .
فهو إذا لا ينم عن منظور ارسنقراطي في فهم
وظيفة الأدب والنقد ، وإنما يريد ان يرى
الاشياء والجمال والقوال ... عبر حقيقة
النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس
والحياة اللتين تعطيان الوجود قيمته (الموجود
قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن
المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد
من فضل سوى فضل رد الأمور الى مصادرها
وتسميتها باسمائها الكفاء ذاك ثواباً (٧٦) لأن
أساس العملية النقدية السعى الى اكتشاف
ومعرفة حقائق الأمور والاشياء . المهم ان يبقى
منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من
الناس لا يمكن ان يحافظوا أو ان يبقوا
باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ،
ضمن الإطار الروحي والحي السبيل الوحيد
لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند
جميع الناس القدرة على النفاذ الى لب
الأمور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضاً ، فليس
عندهم دائما همّ التحرى والسبر في الأعماق .
من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم
وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من
الثوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت
لوائه ، ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك :
فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع
الناس ايضا (والنقد في سبيلهم بالدرجة
الأولى ولأجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا
صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول
فيكون حظهم قليل لأن النقاد « لا يرضون
فريقاً من الناس الا بغضاب فريق آخر ، غير
ان القوى بينهم — والقوى من اخلص النية —
لا يحفل بمن يرضى وبمن يفضب لأنه يخدم
غاية اكبر من رضى الناس وسخطهم » ويتم

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٢ .

(٧٦) القزبال ص ١٨ .

(٧٧) القزبال ص ٢١ .

ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية أيضا في تدقيقها وتقديرها حق قدرها ان كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمى الأديبى ، لان الأدب ، فى النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (أى السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (أى للتأثير الذى أحدثه الانتاج الأدبى فى نفسه) بالجوادة أو الرداءة فى صورة غوية وإن كان لها فى واقع الأمر اساسها الجمالى الدفين فى نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا فى بد من يحاولون استخدامه وإن يكن قد أخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذا مسألة احساس فردى (ذاتى) فيقدر ما تحب الأثر وتنفعل فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصيا أصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الأدبى ، ولا يعنى ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن أهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الأثر الذى يخلقه فى نفوسنا فى وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيضا ارتباط بطبيعة موقفه من الأشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من أبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدى بل من حيث هى تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولا كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكانه (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعمهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « تراها » كما هى (٧٩) أى هى لا تكون الا بنا وتبعنا للماركننا لها) كانت المقاييس التى تبني عليها نسبية أيضا وبالتأكيد .

من هنا كان النقد عند نعيمة ، فى أساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى تماما كإى نشاط آخر » والعمل الفنى عملية معقدة لانه عمل نفسانى ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه فى نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود فى النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، وإلى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسدانى والعقلانى والروحانى . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى (٨٠) ففى الواقع

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل ملعب جديد ، ان يلى الأدب أو فى سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه ومقرية فلة تتعهد نموه » نعيمة : وولت هتمان أو الشعر المنسرح : الأدب ص ١ (١٩٢٥) ج ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى ديوان بارت أن ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان نماميه لا بأن يحملنا نقد بما يقول ، بل يحملنا تأييد بما قرر قوله ، وهو يستعين فى ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهاب بمناسبة كتابيه « فى الشعر والغزو الجمال » . « و أبو الطيب المتنبي » بسكتنا فى ١٠ كانون الثانى ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : فى الأدب والنقد ص ٦٥ .

النقد بمقتضى المقياس الذاتي الصرف . « والحق أن لكل جيل نمطا من التدلق الفنى ، والأجيال فى ذلك كالأفراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه وأغراضه الفنية الخاصة . والتدلق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع إنما هو فى رأى مثال أعلى ، ويجب أن يظل كذلك ما دامت عملية التدلق قضية أناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (ألبوث) فتكون السمة الأولى للدراسة الأدبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما إذا كانت متكلفة وعاجزة أو صادقة ومؤثرة . ولعل يبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتأثير إنما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الأكبر فى توجيهه الى ذلك تذكر منها :

١ - ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ - اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الإبداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى - بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الأول - فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانباً عظيماً للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بالفاظهم .

المؤلف نفسه الأثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لومستر) ، وعلى هذا يبنى نعيمة أساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقياس والموازن « فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع ، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارئ أن يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بأن نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الدوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بهمة النقد والأدب « والدوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وإبراز ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر اللطاء حيث يكفى القليل . ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الإيجاز أوفى بالفرض وأوقع فى النفس . ولا يعطف حيث الوعظ بلاذة . ولا يفالى حيث المفالة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعغير خد وجبين ، وتسخير كرامة وجدان ، وإهانة للفن الذى يجب أن يتسامى أبداً عن التملق والذل والإمتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد برك (٨٥) ويصر بأن يكون الحكم على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) فى العاطفة ، أى

(٨٢) الفرغال ص ٦٧ .

(٨٣) بدأ النقد - فى الأدب الانجليزى - يشتهرون أهمية « الدوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ أواخر القرن الثامن عشر : « والدوق هنا معناه الادراك الفيزيى لخصائص العمل الفنى ، أو الحدس بطبيعة النتائج وبقيمتها . ولأنك ان الناقد حينما يعتمد على الدوق بهذه المعنى لا يلجأ الى القواعد المثقنة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقاً آلياً . كما أن اعتبار الدوق المعيار الأخير فى تقييم الأدب يعنى إحتلال العنصر الشخصى أو الفردى ، أى شخصية الناقد محل الاهتمام العامة التى كان يطبقها الناقد تطبيقاً موضوعياً من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشأ آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٩٥٦ فكان إصراره هذا أول مناداة بطوق اللعب الحر فى النقد الأدبى . راجع فى ذلك : لاسل أبركرمبى : قواعد النقد الأدبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلحظ هنا أن دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشيرها وإسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومعظمى لطفى التلغوطى قبل هذه الرحلة .

٣ - لقد وصلت دراسات الأدب في القرون الوسطى إلى جمود ، وعناية بالشكل ، واستغراق في التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبي وخرج تدوq النصوص من طبيعتها الفنية إلى طبيعة البحث المنطقي أو الرياضي ، فأصبحت همة الدارسين منصرفة إلى بيان ما في النصوص من تشبيه واستعارة وإيجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، وأصبح الناشئون لا يتدوqون من روائع الآثار الأدبية إلا معرفة أجزاء الاستعارة أو تقرير الكناية ، أو تعميل هذه الناحية أو تلك من المحسنات البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، في تشييد دعائم التأثيرية في النقد العربي الحديث ، هو ، بشكل أو آخر ، من قبيل « الإحياء » للزعة النقدية العربية القديمة . أي أن لهذا التجديد منطلقاً في القديم . ولقد مر ما استفحل أمر النزعة التأثيرية في النقد العربي ، قديماً ، عم شيء من الفوضى النقدية حاول الرزوقي تصويبها « وزعمت » . . . فأنك مع طول مجالستك لجهادة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين في انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤديك إلى المعرفة بجيده ومتوسطه وديته . حتى تجرد الشهادة في شيء منه ، وثبت الحكم عليه أو له ، آمننا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد أن كثيراً مما يستجيد زبد يجوز ألا يوافقه عليه عمرو ، وأنه قد يستحسن البيت وينثني عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظاً ومعنى حتى لا

يخالفه ، فيعرض عنه إذ كان ذلك موقوفاً على استحلاء المستحلي واجتنواء المجتوى (٨٨) . فإذا بالحكم النقدي العام يصبح ، في أساسه ، طبعاً واستعداداً متمكنين في النفس وقادريين على التمييز والإبداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضي الجرجاني إذ يقول « وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الروية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصوير أمثلة الحسن والقيح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تحليل استحساناتنا ، بل تندفع أيضاً إلى معرفة طبائع الأشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الأخرى ، على غرار ما نحا الأمدى (٩٠) ، إذ يقسم الدوق إلى ثلاثة أقسام : الطبع والخلق ثم جماع الاثنين أي الفطنة . من هنا فإن « التدوق نفسه يستطيع أن يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورسالته ، ولا بد لكي يكون مكتسباً من أن يدل على فهم « دائم » لغاية هي النتيجة الضرورية ، بل هي العمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورسالة (بلا كمور) .

أما المعايير أو القاييس الأخرى (والتي أساسها الدوق دائماً) التي يعتمدها نعيمة في النقد فينبغي ، سهيلاً للدرس والبحث ، أن نقسمها إلى قسمين : واحد يتناول فن النقد

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجوه النفسية في دراسة الأدب ولقد ص ٢٢٤ .

(٨٨) الرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوساطة بين الكتبي وخصومه ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى مالم يمكن إخراجه إلى البيان ولا إظهاره إلى احتياج وهي علة مالا يعرف إلا بالدوية ودائم التجربة وطول الملاسة وبهذا يغفل أهل الحضافة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دريته ، بعد أن يكون هنالك طبع فيه ثقل لتلك الطباع وامتزاج ، ولا لا يتم ذلك ، ولكل بعد ذلك إلى اختياره وما تقف عليه فطنتك وتميزك فينبغي أن تنعم النظر فيما يرد عليك وأن ينتلج بالنظر الأمن يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ومن إذا علم انصف » راجع الأمدى : الموازنة (ط المعارف الأولى ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤) .

اللاحياسية ... ويقول ريتشاردز « علينا أن نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٢) فنقول نعيمة أذاً على إيجازه على جُنب كبير من الأهمية للوصول إلى الحكم الصحيح ، ولابدء الرأي بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد إلى المرتبة الخليقة به . وإذا على الناقد أن يفتش عن الفكرة التي تسكن المؤلف فجعلته « أداتها » فيكون النقد تحليلًا وخلقا أكثر منه صوغ أحكام وإطلاقها « فكما يخلق الكاتب نفسه في ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذي ينقده غير الحافز والمشحذ . أما الأثر الذي يلقيه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) إذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه غير الأثر المنقود (أناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هي ، في نظره ، قوة الفن الذي مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس إلى قوة تنشط بهم من علاقات المعيشة المحدودة إلى حرية الحياة التي لا تحد من الإنسان في الله ، إلى الله في الإنسان (٩٦) أنه ، في النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو (٩٧) لذا كان على الناقد أن يفهم الجمال ، والألوان المبهجة لا تصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة إلى مستوى الجمال ، والألوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك أن الحب هو الله لا يجعل الشهوة

بعامه ، وواحد يتناول العمل النقدي بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبقي عنده ، على أن كلا القسمين واحد في روحه وشكله ، ويؤلف في النهاية أصول مذهبه في النقد .

أنه يرى أولاً أن لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩٨) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتياً لا موضوعياً . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لأن نقداتها لا تموضع المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع بليوت فيما ذكرناه آنفاً في أن كل جيل يختلف من الجيل الآخر في فهم الأدب ، ولذلك يأتي بمعايير خاصة ، والدوق الفني المطلق مثل أعلى ...) . ويدعو ثانياً إلى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملي القربال أو الدائنين بدينه » (٩٩) ولشد ما يشبه هنا André Suarès في اعتباره أن اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الأدبي وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه أن يجعل من المؤلف هدفاً له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به أو يستنمه . ولقد أسهب في شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لأهميته ، ولكن نعيمة المبح إليه بإيجاز ، ورأى ريتشاردز أن على الناقد أن ينحو جميع العوامل التي تفسد عليه حكمه كالإختلاف في المذهب والاتفاق فيه أو وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارئ لا من القصيدة نفسها أو دقة الحس أو

(٩١) القربال ص ١٦ .

(٩٢) القربال ص ١٤ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسيني : النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الآداب ص ٩ (١٩٦١) ع ١ ص ٤ .

(٩٥) القربال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) المرجع نفسه ص ١١٧ .

فالحياة والفن والإنسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آتفا . فاذا توقف النقد عند ادب ما او عند اى اثر ما ، فلا يعنى ذلك اعادة تأليفه فى قيمة ما بقدر ما يرمى الى اعطائه المحل المتناسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتاح جميع عمله النقدي وظاهره الاصلية (لقد تأثر المهجريون بالادب الغربى ولا سيما بالادب الرومنتيكى الذى يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلصات النفس فى ياسها ورجائها وحزنها وفرحها وصحتها ومرضاها وفقرها وغناها وآمالها وآلامها : فنزعو الى الشعور الوجدانى الدائى وكرهوا الادب التقليدى الذى لا يصدر عن شعور واحساس) . وهذه هى الخلفية الفكرية التى يصدر عنها نظامه النقدي . وهى نفسها التى يصدر عنها نظامه الادبى . من هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد للمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اى المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لا يتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين ع'ما من صدور الغربال » فى الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتهاتوئما تردد » (١٠٠) .

ولنا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على ما يبدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبى بعينه لابعيونا وان نفهم منه ما يفهمه هو تحكم عليه بحكمه . وفى هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبه بيننا وبين العمل الادبى بديل ان يقربه الينا .

الجسدية الهنا ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة (٩٨) فليس هم نعيمة فى النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقه العقلية والاخلاقية والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغة . على اننا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل امام الآثار الادبية وحسب ، بل هى تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التى تتأتى امام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلزم الكيان الحي ، بأسره فى ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر ما يكون الاثر الادبى كبيرا يكون شخصا (هاجس الناقد التائرى ان لا يكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لان فى امكان الذاتية الفنية والنافذة وحدها ان تستنشى من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقائق لا يمكن ان تكون الا فردية ، اى لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير فى اعماق الشيء والنفس (فى كل شيء ينطوى العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدي ، اذ الفن عنده - كما مر معنا - لايعلينا ان نرى فقط بل ان تكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبه وجسده . وهكذا فنعيمة لا يكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لا تكون الثورة الادبية فى اسلوب التعبير بل فى الانسان مصدر كل تغيير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا فى كسل مانفعل وكل ماقول وكل ماكتب انما نفتش عن انفسنا (٩٩) والعالم هو جوهر نظامه الفكرى والادبى :

(٩٨) الرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) القويال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها أو العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الأدبي والنقدى . وإذا كان الأدب العربى اثنائى في فقر أو نقص ، لايعنى ذلك انه في حاجة الى مقاييس ثابتة . فهي متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث أخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه وعن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التي صرح عنها مرة في الهلال « ان الشرق لى غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواء لا يكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا في الأخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل في ان تنهج منج الآخرين انفسهم وتسير في مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحرثتك ») وإذا كيف تزهو آدابنا وتثرع مادامت مقاييسها في ايد لا تعرف من الأدب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التي تقيس الأدب بعدد مشتركها ومتاصريها وأعدتها) وخاصة في تلك المرحلة اذ هى دور انتقال (وهو من اصعب الادوار في الحركات الادبية) غرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر - ما ينجح في هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شان .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التي يقيس بها الآثار النقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارئ مقاييس عديدة

فاتجاه نعيمة في النقد لم يعتمد على التراث النقدي العربى القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربى ايضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتتمثل في شكل أو في آخر ، في محاولات ذاتية ، تعمل على الموهبة وما تستعينه في استحضار نفسها . ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس وولبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذى يخلق بيئته ولا يخلقه البيئة » (١٠٦) اى ان العمل الأدبى لا يقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها ») . من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقى صادرة عن هذه المبادئ العامة بالتاكيد ، ففي حديثه عن « اغاني الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لم اختيار هذا الموضوع دون ذلك ، او لم يفتنى هذا النوع من العواطف دون غيره ، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر في اثره ام اساء . المهم في الخلق ، عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « لينصعد وشيد أيوب من الزفرات ماشاء وليبك مادام في مقتلته دموع . فلا شان لي معه في ذلك . تلك هى اوتاره ، وذلك هو أسلوبه في التوقيع عليها . والذى يهمنى هو انه يحسن التوقيع (١٠٧) . ولعله ينطوى على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فيرى ان ازدهار الادب او تقهقره لايعودان الى طبيعة

(١٠١) نعيمة : راجع جوفج صيدح : ادبنا وادبنا في المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٩) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغاني الدرويش » لرشيد أيوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغرالى ص ٧٣ - ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٣١) ج ٢ ص ١٢٨ .

(١٠٥) الغرالى ص ٧٣ - ٧٤ .

عما وجدنا نحن من قبل ، وكأنا جميعا اديبا بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التي اعوزتنا (هذا ما يراه التأثريون) فاذا قوى احساس المرء بعمل أو قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمة هذا المقياس في جميع نقده فطبقه في « الارواح الحائرة » (الغريال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٥) والقروينات (الغريال ص ١٥٥) والريحاني في عالم الشعر (الغريال ص ١٦٣) وكثير من رسائله ... فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير أننا نخالفه في مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثارة العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفي ذاتها من الاسباب الهامة في بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانيين « وليس الشعر كله محتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى ان يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالي صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول في ذلك فانما يصدر عما كرهه من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق ... الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة اثر مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

يقيس بها الشعر والشعراء لست لأخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما الا اعارض عليه ما عندي ، فلينبذه اذا شاء او ليقلبه اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعمة ، فشرط المحافظة على حرته وذاتيته الذي تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا في المحافظة على حرية القراء ومناعهم . فمهمته ان يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، ومالا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبي يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، في شكل او في آخر ، مبدع ضمن اطار ايدولوجي لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها او ان يبدلوا فيها ، ان يرفضوها كلية او جزئية ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . ولهذا ايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه : فاذا بقوا وحدهم مستغربين بظنون خارج نظام الحقائق الاصيل ويتخذون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبي

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فاول ما ابحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي اعني به بنسمة الحياة ليس الانعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظور الذي اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة أيقنت انه شعر والاعرفته جمادا . والاذالك ليس ليخضعني بأوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترجعة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة أخرى ، فان منطلق هذا المقياس هو ان الشاعر يعبر

(١٠٦) الغريال ص ١٢٩ .

(١٠٧) المرجع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٥١ .

في مجمل نقده (١١٣) . اذ يقدر كالمقداد ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذي يعطى الايات كيانها الشعري غير الرسم الجديد والفكر المبتكر وال عاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذي يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين في تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قلبه والسبيل الذي اعتمده صاحبه في اظهاره « وانا حينما اطل على الصدق والاخلاص في اى عمل ادبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناشر او الناظم اذا هو خاطبني بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يث افكاره واحاسيسه في قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التى فيها اسكب افكارى واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيرى حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو ان اعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى وبطمنن اليه وجدانى (١١٦) . فنعمة لا يعمر الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من اية فلسفة فنية جمالية في ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التى راح نعمة يطلق فيها آراء النقدية ونتاجه الادبى لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق في

المواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعرى او الادبى بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر في ذاته (في انه شعر) اذ ان نعمة لا يقيم كبير شأن للنوع الادبى ، لانه يعتبر النوع الادبى شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لغرض آخر ، يبرر وجوده ، الا وهو ، « الافصاح عن الحياة اى عن كل ما يتناوبنا من العوامل النفسية (١١٠) ولا ضير في اى اسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما ابواب الادب الا اساليب (راجع «الريحاني في عالم الشعر» : الفرغال) حيث يؤكد ان ليس من آفة في ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذلك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاوّل الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فنى على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او ان الشعر يفضلها لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطالعه شعرا يعتبر العنصر الثانى في تمييز الاثر الادبى من غيره « باتساع مداه ، بعمقه وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) في الافكار والخيال وال عاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه

(١٠٩) الفرغال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الفرغال ص ١٢٩ - (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الفرغال تبينا لذلك ص ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لاي مافى .

(١١٤) الفرغال ص ٢١٢ .

(١١٥) الفرغال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعية : رسالة الى نقولا فرنان .

القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن أى اعتبار مادي آخر كالجنس ، أو المذهب أو غيرهما لقد جمع (عمر فاخوري) الى سلامة اللفظة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الدوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وأفكارهم اينما كانوا ، ومن اينما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . المعروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التمييز الفطرية .

قضية الشكل

اما العنصر الثالث فهو ثوب الأثر الادبى الخارجى ، أى دقة تركيبه وحلاوة رنته» وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجى ، عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة الوانها وما اشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان « الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ، والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كينانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن فى صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعى الذى يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة أخرى . ثم ان الكاتب كما اشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير ان نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

المبحث الفنى الاستطيقى الجمالى ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضايها لم تكن لتنجو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يعجز الخلق الادبى الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التى تمتد فى فكر القارئ ووجدانه اثناء التعرف عليه . أى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التى تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمه فى مدى صدق الناقد وخالصه المتغائبين لانهما « سر الابتكار والابداع عند الاديب » (١٢١) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للأثر على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الجمعية بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتائج قلبه سبقتة ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لفهره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو ، عندنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء فى المفهوم النقدي عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما اعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الى الجانب التقىيى ، أى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى - خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمعارفات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل - الى هجير حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية . فكان اذا ثمة تدرج منطقي وطبيعى فى منهجه ، فطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللفظة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الدوق هى المنشودة لداتها ، بل

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخوري ادبى وانسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٢ ص ٩ .

(١١٩) القربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

القراءة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات في الموقف النقدي ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير في خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهي حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام أى ظاهرة ، فاقترعت محاولة احياء الروح في العمل الادبي بكثرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لا يقدر فنا ولا ادبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه مسن الافاق الجديدة ، وهو لا يرضى بالفن المخلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الاعلى وصاحبه في آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباهها في نقد الاثر الشعري هو الاوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من وراءها وسماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتفتح له براعم الحياة فى داخله (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف امام الاثر الادبى - وخاصة الشعري - يقيس نفسه به حيناً ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها عهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التي صدر عنها . وهو في كل هذا يعرف ظاهرة « الاتحاد الفنى » حيث تفنى الذات فى الموضوع ، فاذا به يقترب كلياً من ابن قتيبة فى حكمه النقدي « اشعر الناس من انت فى شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقواله عنايته بما يسكب فيها من روحه لملحه ان جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه (١٢٦) ذلك لانه باعتبار منطلقه الفلسفى والادبى كما بيننا يعتبر بوحدة واحدة فى الجمال والكون . فكيف لا يعتبر فى النتائج الادبى ومقياسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان أى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق فى الموقف اذا : بدلى ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما فى النقد القديم) فان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد فى جمال المحتوى . يضى على ماهو موجود شيئاً ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هى فى الحقيقة ، اساليب متنوعة الابداع الانسانى الواحد . ويقترب هنا كثيراً من نظرية تولستوى فى الفن التى تقول بان الفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركات والخطوط والالوان والاصوات والاشكال المعبر عنها بالكلمات . أى لابد ان تكون هناك فكرة جديدة تهتم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيراً ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفنى قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٧)

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الاداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فائقة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الغريال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على أمرين :

١ - اذا كانت الرواية مشهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

يجعلك تعيش في شعره فتكون انت هذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية » (١٢٦) بينه وبين الشاعر .

آراؤه في فن الرواية :

ب - اذا كان الممثل قادرا على فهم أفكار المؤلف وغاياته وتفسير هذه الأفكار وتادية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات (١٢٠) . فالرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكأ الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقد عليه من عدم اعارتهم الى انتباه لهذا الفن . فافرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب القربال (وهى نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلعب بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) او قصص موضوعة (العواطف لجبران) ... وهو بذلك يتقدم على سابقيه او معاصريه من النقاد . لان مجمل تلك المقاييس التى حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازنى ...) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرف الا الى فن محدد منه هو الشعر الغنائى المتوارث من القديم « وأخذ نقادنا ومفكروننا يقتتلون حوله خلال الربع الاول من هذا القرن بل الى مسنونات بعد ذلك ، مغفلين فنونا أخرى اخذت تظهر في ادبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشعرية ، وفن القصة والاقتوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا تكاد نعرش على آراء فيها وفي

الا أننا نشير أخيرا ، الى أن هذه المقاييس النقدية عند نعيمة ، وإن اقتصر في معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تناولت ايضا الى فن الرواية فرائى انها تحتاج « عدا الفكر الملل والحلل الى يد المتفنن لابرار اشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدتها على فكرتها الأساسية (١٢٧) . فنتطلب ، بالتالى ، خبرة فنية تقدر على اللامعة ومراعاة اصول هذا الفن . فالروائي الفنان اذا ما خلق شخصين او اكثر نوع الاغراض التي يرمى اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . أى أن التأليف الروائي ليس كتابة مقال ثم يأتى للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل في سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشخص في يد الروائي كالحجر في يد المثال يخلق منه ما يشاء ، والمثال الماهر ليس كالمثالين الذين يحسبون - كما قال فيهم يسوع - ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة ازميل مثلما قد يخلق المصور العبقري آية من الحسن بللمسة ريشة ، والكاتب الفنان أفعاً من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو في القدرة على التأثير (كما في الشعر وسائر الفنون الأدبية) في

(١٢٦) نعيمة : مقفمة ديوان الجدول لابي ماضي (٢١ حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) القربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كرم عن روايته « المصدور » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) القربال ص ٣٢ .

واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود .
ولكم يذكر حكمه هذا بقول ايسن « اذا اردت
الكتابة فانك تستمدى نفسك الى محكمة انت
قاضيها » .

• • •

المنهج الانطباعي :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعي
او الموضوعي او العقائدي او اللغوي او
الجامعي ... واما كانت مقاييسه الذاتية او
العلمية او التاريخية او الفنية .. يبقى له
منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ،
اي هو يعتمد اصولا معينة في فهم الادب ، وفي
تبيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير
ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل ادبي ، الى
مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجسد بذلك شخصية
النقاد ، وتتعطل عنده حساسية الذوق
الذاتية ، القادرة على اكتشاف القيم الخاصة
في كل اثر ادبي بذاته . من هنا كان من الخير
للادب أن تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل
الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى
هو شغل الادب لا يختلف من هذا القبيل عن
اى بناء (١٢٥) . او ليس كل اثر هو نتاجا
شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة
لا تتكرر عند فنانين بل هي لا تكرر نفسها في
نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره
والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة
لانهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار
اخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدي ، عند
ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو
كيفية عرض لها .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، واذا
كان نعيمة يمس بعضها حيناً ، فانما كان ذلك
من قريب ، حيث انك لا تجد تحريبا لوضع
اصول مترابطة في هذه الفنون ، بل خطوات
تتولد من جراء التعليق على قصة او التمهيد
لرواية ...

هذه هي اهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة
في نقده ، وهو يرى أن الامة المتيقظة بحاجة الى
«تقويم» مفهوماتها الادبية ، وتعديل مقاييسها
وموازنتها الروحية باستمرار (١٢٦) ان النقد
في تحد مستمر لانه في نبض مستمر . فعمل
النقاد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد في كل
مرة ، لانه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء
والحقائق لتبنيها . ولكل حقيقة نعمت تظهر
به . واذا كان يؤكد بان الزمان غربالا اثن منه
غرايبيل الناس ، او ان الحياة للحياة وحدها
القول الفصل والحكم الاخير (١٢٧) لا يعنى
ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان
النقاد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة »
تسيران بالنقاد او بالمبدع الى النضج (الزمن
فعل كبير في تطوير الملكة الشعرية عند
الشاعر (١٢٨) لان المقاييس النقدية ، بالتالى ،
غير منفصلة عن الحياة او هي من خارج الحياة .
من هنا كان الشاعر في حاجة الى غربال ، لكنه
يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٢٩) .
على هذا تألف جميع الظواهر : الادب
(الادبي) - النقد (الناقد) - المقاييس
النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين
الإبداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها
في الحقيقة وجوه متعددة - مظهرا - لشيء

(١٢١) الغريال ص ٢٠٨ .

(١٢٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٢٣) راجع الغريال ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٢٤) الغريال ص ١٦١ .

(١٢٥) دروب ص ٥٤ .

النحو من مؤلف الكتاب (١٣٦) . وبالنسبة للقارىء فله مقاييسه واعتباطه ، ففرض نعيمة في النقد العرض لا الفرض « فما أنا إلا عارض عليه ما عندي » (١٤٠) . والمقالة النقدية التي يعرضها إنما هي « مزيج من فلسفة وأدب والنقد » (١٤١) ينحو بذلك نحو ميلنيسكي الناقد الروسي في تنوع المقالة بحيث تضفي جوا من الخصوبة وتبعث على الارتياح والامتناع ، فلا يعود النقد متطلبا لذاته ، لذا كان يطلب من القراء مطالعتها، فربما يجدون فيها ما يستحق النظر « لا بل طالعاها ، قبلتم أم لم تقبلوا ، ولماذا المدحاجة ، فانا لم اكتبها لذاتي » (١٤٢) على ضوء ما تقدم ، يسلك نعيمة في عمله النقدي منهجا نحاول ان نرسم خطوطه فيما يلي :

« انتهيت الساعمة (من « منشود ») ويسرني ان انتقل اليك بغير ابطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الاثر في نفسي فقد راقتني تصويرك للأشخاص... مثلما راقتني ما اجرينته على السنتهم ... » (١٤٣) .

واذاً هو منهج انطباعي تأثري ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتائج ردة الفعل التي تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فاذا لم تتوفر لا يمكن كتابة أى نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدي بالتعريف

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقتناع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقتناع إلا بالحجة (١٣٦) . والسبيل الى ذلك يتحصل عن ضبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومثانة ترابطه بمضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكان هذه العناصر حلقات في سلسلة واحدة (١٣٧) تقوم على التبسيط والوضوح الى أقصى حد ، فهو عندما يخاطب القارئ تراه ينتقل به خطوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقتناع وفعله في العقلية المتحجرة المسالدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى اليه (١٣٨) .

وهو من مطلق الاقتناع او التأثير هذا ، وغير مقالته « القريلة » يتبين لنا ان **منهج** في **النقد منهج** تأثري ذاتي (لكل ناقد غرياله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية...) أى هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهي الى خلق ادبي مبتكر . « أجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه أشد الفلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثأره ولا يهدأ باله ، حتى يعان على الألا أنه أرسنخ قلطنا في علم

(١٣٦) الفريال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر الفريال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو النهج الذي اتبعه بوضوح كبير في مقالته « القريلة » راجع الفريال ص ١٢ - ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) الفريال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشود كما يراه نعيمة ، راجع الحكمتس ١٩٥٥ ، ج ٥ ص ٥ .

العمل الادبي بسيرة الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحدو في ذلك حذو سانت بوف ، الناقد الرومنسي الكبير ، في منهجه الذي يخلص بالناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف اساسا لفهم ما يكتب ولنقده . ليس الادب - اى الانتاج الادبي - منفصلا في نظري عن الانسان ، فباستطاعتى ان اتلوق مؤلفا اديبا ، ولكن من الصعب ان احكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لانه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودنى الدراسة الادبية الى الدراسة الانسانية قيادة طبيعية (١٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه ان راح يطلبه ليس في الدراسات النقدية البحتة وحسب بل حتى في كتب « المنتخبات » او ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب احدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة في كتابه ، ويقول « تميت لو انك اوردت فذلكلة عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارئ العربى الذى لا يعرف شيئا عن اولئك الشعراء واللى يطل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لان النقد الحق (يتكون - كما اجد - من دراسة كل شخص ، اعنى كل مؤلف ، اعنى كل ذى موهبة ، حسب احواله الطبيعية لى نقيم له وصفا حيويا حافلا ، حتى يمكن ان ينزل - فيما بعد - في موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

بالاثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيرا بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر او الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، في رايه ، صورة المنقود ، في اكمل وجه ، ثم يتحدث عن ثقافته وتعلمه ذاكر اول اطلالاته الادبية (اين ومتى) ثم ينتقل الى القسم الثانى وهو دراسة مؤلفات (او مؤلف واحد بعد ذكرها جميعا) (١٤٥) . اى بامكاننا تلوق النتاج الادبي دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالي ، فان نعيمة يحاول ان يلم ، في طريقة لفهم ، بكلية الاديب في شكل مؤلف . فما يهيم من النتاج ، أولا واخيرا ، هو اكتشاف الانسان وراء الاديب اكثر من اهتمامه بالفنان . ان الاثر الادبي وحده ، منفصلا عن صاحبه ، ومعتبرا لذاته ، ليس هو غرض نعيمة في البحث . وهكذا ينتهى الى النقد الاخلاقى الذى عرف في اوربا منذ القرن التاسع عشر وقصاره « ان جمال الاثر الفنى يجب ان لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذى نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . اى ليس للادب قيمة او جمال الا باعتباره شهادة للانسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الاعجاب بالنتاج الادبي الا على اساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حققةوسليمة . وكان Villmain (١٧٩٠ - ١٨٧٠) اول من اراد ان يشرح

(١٤٤) انظر الفريال ص ١٨٩ ومجمل رسالته النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى معلق الروح والقلم كورساته غوركى من القاح .الى القمة ايار ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخورى الفنان) المنشورة في الرسالة ١٩٥٦ ج ١ ص ١ ، وسجل رسالته الاخرى .

(١٤٦) راجع فان تيمم « الازاهب الادبية الكبرى في فرنسا ص ٢٢٠ .

(١٤٧) سانت يوف : احاديث الاتني الجديدة ج ٢ : مقال من شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة الى صاحب « فضاء من الادب الاجنبى » توفيق اليازجى ، الادب ١٩٦٢ ، ج ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستافلى هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

التصميم ، والمنهجية، وليس هو مجرد خطرات متباعدة أو متناثرة ، أساسه التحري النفسى . وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد في منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وأمانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب في خبراته الأدبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزعه التأثري ، بكل تأكيد ، إذ « تقول التأثرية على « الربط » فإذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها ... الى اشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص، ويحكي المتلقى في وصف العمل الفني مؤثرات نفسية(١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقى لسلطان الذاكرة واحكام التداوى (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الأديب الواحد لينتهى الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان « المقابلة » والتحليل هما في رأى **إليسموت** ، عدنا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشرية المنقود وتفسيره تفسيراً مستمدا دائماً من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيفسد بعض الخلط الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلا في النقد لا يعنى ، عند نعيمه ، الانتهاء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحد منهم والاخر وتفضيل هذا على ذلك أو ذلك على ذلك - وقد يكون في مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئهم « اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي ألف مرة ومرة . وتركت

إذا انتقل الى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه بشرع في عرض مقاييسه « قلت في مقدمة الكلام ان اول ما انتظبه من الشاعر هو المدى - مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثم انتفض قوالب شعره الخارجية . اما المدى فليس من ينكره في شعر (نسيب عريضة) وأما قوالبه ... (١٥٠) . وتراه في معظم الأحيان ينهج في أحكامه نهجا فحواه « ضربة على الحافر وضربة على السمار » ، فكلمنا ذكر الردى ذكر الى جانبه الجيد في آن ، ومن قصد ، ويكفي ان نمثل هنا بعض ما جاء في نقده « للندرة الشرقية أمثال كثيرة من ... الوصف السطحي الذى لا يحرك فكرا في رأس ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في قلب . غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضالعا بين أبيات جاءت حشوا ، فبان كصمة من الزهر في حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيء التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك فى القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع في بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك أمره أو يتدبر عمله النقدي ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك في النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار في أمره الناقد وسدت في وجهه السبل . فلا حول ولا « (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدي يقوم على التنظيم ودقة

(١٥٠) راجع القربال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الأرواح الحائرة » في القربال ص ١٣٤ .

(١٥٤) مصطفى تاصف : دراسة الأدب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) القربال ص ١٦٤ .

يحكم بأن هذا البيت من الشعر أو ذاك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذاك أو أن هذا الشاعر هو أحسن شاعر في هذا الغرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاذ لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغت قوة التمييز فينا (١١١) فيصدر الأحكام داعمها بكل تأييده .

التهمك والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، أيضا ، روح التهمك والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانهما في مجمل ابحاثه النقدية النظرية والعملية . فكانني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المقنود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه أرقى . وأكثر مواضع هذه الظاهرة بروزاً عنده في مقالته «الحجاب» (الغريال ص ٣٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٦) وأبتسامات ودموع (الغريال ص ١٨٣) ومستهل «أغاني الصبا» (الغريال ص ١٨٩) . وأماكن أخرى . ولكم كان موفقاً في سلك هذا المسلك ، فتأتى سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى أن تمس مسناً . فهو هنا لا يقل جودة وفنا عنه في رصائنه واتزانه . فيصقل تأليفه لتكشف منه خوارطه الحية . وادرائى مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملح عنده ، فيقول في « الدرّة الشوقية » (قصيدة

للقارئ المقارنة بينه وبين سواه ومحاسنته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقدريك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنهما في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات ومكملهم النقاد ، وما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم « كما ان الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان أحيانا ، بنتيجة هذه المقابلة أو المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدماي في موقف يطلق فيه « الاحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري المتحمس . فبعد ان يسود فقرة من مقول المقنود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت ارق وأدق وأبدع من هذا الوصف (١٥٨) . او يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من ابرع الفنانين كان يستطيع ان يرسم ... صورة اوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... و « الغاية في الابداع ... » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منها (١٥٩) . او تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على انه « اجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الاطلاق ... (١٦٠) . (كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي) وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك ان الناقد كان

(١٥٦) الغريال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغريال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة - مهر فاخوري اديب وإنسان ، راجع الطريق ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : مهر فاخوري الفنان ، الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « الرويات » في الغريال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغريال ص ١٢٧ .

ولكن هذا التهكم لانه له اثر في هذا الكتاب
(كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم ،
الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبع ويبكت ،
ولا يتهمك ، واذا تهكم فلا يبتسم (١١٢) .

**ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء
وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، التي
لا تكون الا مع الانسان ، الذي هو اعظم من
الزمان والمكان (١١٤) .** انها الروح الخالدة التي
تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان
الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحتها ،
وبالتالى ابتعاد عن التسليم وانصراف الى
التأمل - من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور
اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١١٥) ، بل
اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر
الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات
(الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ،
فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من
الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق
شعورى وفني .

لاحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال) مرتفعا
بالهزة في تصاعد مستمر مبطن « لقد سمعت »
بدر « شعرية كثيرة ولما عملت فيها طرف
المبرد وجدها صدفًا لما . . . ولولا ما للهلال
عندى من الاعتبار والثقة بخسن ذوق صاحبه
الفني والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة
الشوقية » . لكن للهلال في معنى منزلة خاصة
به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد
تعدت منذ ايام المدرسية ان اصدق ما يقوله
الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من
يحتقره ، لذلك عندما رأته يقدم لي درة قلت
لاشك في انها درة . . . ووقفت قليلا لاؤكد مما
اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام
عصرية . . . (١١٢) . غير ان نعيمة لم يجر على
ذلك في جميع منتوجه النقدي ، فهو في كتابه
« جبران خليل جبران » انصرف الى النقد
البانى ، يظل ويدقق في اصول فنية متكاملة ،
مما دفع خليل هندادى الى التعليق على ذلك
بان قال « لصاحب الغريال روح كانت تظهر
بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذى تريد ،

★ ★ ★

(١١٢) الغريال ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١١٣) خليل هندادى : التصوير والنقد والفن عند ميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت
الاحرار ، ه كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١١٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماحول » من كتاب هوامش (بيروت دار صائر ١٩٦٥) .

(١١٥) هذا هو النهج الفهمي في النقد وقد اتبعه فيما بعد محمد مندور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .

عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ - ١٩٧٢

عرض وتحليل: الدكتور أسعد عبد الرحمن

كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وفورات وحروب وقعت في الوطن العربي ، سواء في شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين أو اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الإسرائيلية الثلاث الأولى .

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولا : بتسلسل منطقي وزماني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارئ عبر أحد عشر فصلا دونما أي تشويش . ويستظهر معالم هذا التسلسل وذلك التنسيق عندما نعترض للمادة المتضمنة في الدراسة . وفي هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسي الأول في هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » . حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل إبحاثا محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية أو اهلية ، تفطى شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الارضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن « الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسي » و« الجيش الاحمر الصيني » كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . ومن « حكاية الفرق الاجنبية الفرنسية » بالاضافة الى سبعة

(٢٠ - ٢١) . الا ان هذا التوقف في الهجمات والفارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل في العقل الفلسطيني . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح اسلوبا اساسيا من اجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » في العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى - فتح » اثر مباشرتها النضال المسلح في مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ - ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تأريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها ووردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها في الاشهر التي سبقت حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ - (٢٩ - ٣٤) .

في الفصل الثانى « السمكة والبحر » ، يوضح « اوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربى كما تجلى في لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائى (٣٦) . وبعد ان يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « بقدر » فشل العمل الفدائى في تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضى المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢) - (٤٣) . وقد تمثلت قمة الفارات الاسرائيلية الانتقامية في « معركة الكرامة » التى منيت بها الفطرسه الاسرائيلية بضربة موجعة ، في حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطينى الجدينى فى العمل الفدائى الفلسطينى

المامة ، وبالتالي ، وفى كثير من الاحيان ، بآدق التفاصيل . على أن ذلك لا يعنى ان الدراسة خالية من الاخطاء الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لابرز هذه الاخطاء الجانب الرئيسى الثانى فى هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بانها نجحت فى معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها أقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية - الصهيونية - الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض اوضح المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسى الثالث فى هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف الفصل الاول ، « عبادة الفدائيين » The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدأ مع اسدال الستار على أحداث الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى فى العام ١٩٤٨ . فيشير « اوبالانس » الى ان غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت فى مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقي الحال كذلك الى ان بدأت الجبهة المصرية - الاسرائيلية بالانتهاب فى العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما أدى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى فى غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقي الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمعل الجبهة الاردنية وادى بالتالى ، الى حرب السويس (الحرب العربية - الاسرائيلية الثانية) فى العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبى

« الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد ان نسفت الجبهة جزءا من خط انايبب التابلاين (٧٨ - ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى اعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الأقصى في ٢١/٨/١٩٦٩ (٨٢ - ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ - ٨٥) . وأخيرا لا يفوت المؤلف الاشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة في « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التي اندلعت فيما بينها (٨٨ - ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح في الفصل الخامس « أرض فتح » العوامل التي أدت الى بدء تركيز العمل الفدائي في بعض مناطق جنوب الجمهورية اللبنانية (٩١ - ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والازمات التي حكمت العلاقات الفلسطينية - اللبنانية (٩٤ - ٩٦) والنسي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ - ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول - اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت « عبر الوساطة المصرية - الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ - ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل « حادثة الكحالة » (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرووب (١١٠ - ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب في الجبهة السورية - الاسرائيلية (١١٤ - ١١٥) .

(٤٦ - ٤٧) ليس في مواجهة اسرائيل فحسب بل وفي مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨) .

يركز المؤلف في الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمرحلة الأولى من العمل الفدائي العلني (٥١) ، شارحا التزايد المستمر في اعداد رجال المقاومة وكيف مكثهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلني وتحسين احوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠ - ٥٢) ، محاولا - بدون نجاح كبير - شرح موقف الاتحاد السوفياتي من العمل الفدائي في تلك الفترة (٥٦ - ٥٧) ومثبنا ازدياد مكانة المنظمات في الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقي المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ - ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ - ٦٥) . وينتهي هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التي ابتكرتها « الجبهة الشعبية » لتحرير فلسطين « وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان أبرزها الهجوم الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت (٦٨ - ٦٩) .

اما الفصل الرابع « معاذم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته في العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ - ٧١) وتحقيق بدايات في الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة أحد أكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ - ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابي - حسب اعتقاد المؤلف - من قبل الاتحاد السوفيتي من جهة ثانية (٧٦ - ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا في عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطيني في بلدة

لواجهة بات وقومها امرا متوقفا ووشيكاً
(١٣٥ - ١٣٦) .

وفي الفصل السابع يستعرض المؤلف
التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطات
الاردنية والفلسطينية وصولاً الى انفجار
« الحرب الاهلية في ايلول - سبتمبر من العام
١٩٧٠ » . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب
الملك حسين الذي اعلن فيه موافقته على بادرة

روجرز (١٣٧) . وفي تلك الاثناء ، قامت
« الجبهة الشعبية » بتنفيذ سلسلة من العمليات
التي استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان
المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عـرف
باسم « مطار الثورة » (مطار داونسون المهجور)
باستثناء طائرة الجيـمو التابعة للبان اميركان
والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على ارض
مطار القاهرة (١٣٨ - ١٤٠) . هذا في الوقت
الذي بدأت فيه الاشتباكات المحدودة بين
الفدائيين والسلطات الاردنية بزداد قوة

وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى
بلغت قمته باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧
ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ - ١٤٥) .
وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية

(١٤٥ - ١٦٠) لشرح ادق « التفاصيل عن
معارك ايلول بما في ذلك الدعم السوري
للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولي بين مؤيد
لهذا الفريق ومؤيد لذلك (١٥٠ - ١٥٣) .

وبقي الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر
الطارئ للرؤساء والملوك العرب ، والذي مثل
الاردن فيه اليرجاديـر محمد داود، الذي عين في
وقت سابق رئيساً للحكومة العسكرية التي
انيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣) .
وفي مرحلة لاحقة ، وائر ايفاد مؤتمر القمة
الرئيس السوداني (جعفر النميري) الى عمان
نجح المؤتمر في اعلان « اتفاق القاهرة » بين
عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى
العاصمة المصرية أثناء احتدام المعارك في الاردن
(١٥٤ - ١٥٥) هذا وقد أعقب ذلك اتفاقية

وفي **الفصول الثلاثة** التالية يعود المؤلف
بالقارئ الى الساحة الاردنية ، فيشرح عبر
تتابع زمني الاحداث التي شكلت « **مدخلا الى
الحرب الاهلية** » (**الفصل السادس**) **مركزاً**
في الفصل الذي يلي (السابع) على وقائع
« الحرب الاهلية في الاردن » ومنتهياً (في
الفصل الثامن) الى « **هزيمة الفدائيين في
الاردن** » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضاً
وافياً بسلسلة العمليات التي قامت بها
« الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في اكثر
من مكان خارج الشرق الأوسط ، والتي
تضمنت بالاساس ، خطفا لطائرات متنوعة
الجنسيات ، وهجوماً على أكثر من مطار في
أوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧) -
(١٢١) . وفي تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية
الفلسطينية تزداد تشنجا واقتربا من درجة
الصدام الحاسم ، الا ان الملك حسين عرف -
أكثر من مرة - كيف يخنى رأسه للرياح
الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية
بينه وبين الفدائيين وكان ذلك كله مدعاة
لاستياء القبائل البدوية ومعظم قطاعات
الجيش (١٢١ - ١٢٢) و (١٢٧ - ١٢٩) . وفي
هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت
الاتحاد السوفياتي والصين وقيتنام (١٢٣ -
١٢٤) في حين كانت الهجمات على اسرائيل
متصلة وكذلك الغارات الانتقامية الاسرائيلية
(١٢٥ - ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين اطراف
الصدام الثلاثي الجوانب (الفدائيون -
اسرائيل - الاردن) بعد اعلان وليـم روجرز ،
وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته للسلام
والتي وافق عليها عدد من الرؤساء العرب
كان في طليعتهـم الرئيس جمال عبدالناصر والملك
حسين (١٣١ - ١٣٣) . وكانت الحـصيلة ان
ساعت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن
فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضا ،
وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه

وجودهم على الأراضي الاردنيّة حين استشهد أبو علي إباد ، أحد أبرز قادة فتح (١٧٩ - ١٨٣) وأثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربي المشترك في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة قام بعض أنصار أبو علي إباد بغتيال وصفي التل الذي كان يمثل الأردن في ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقداعلن الفدائيون انتماءهم الى منظمة جديدة حملت اسم « أيلول الأسود » (١٨٥ - ١٨٦) . أثناء ذلك ، كان الوجود الفدائي في لبنان يتعزز يوما بمرور يوم يند اليه من الساحة الأردنية (١٨٩) في حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية في المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقي في الساحة الفلسطينية أية نقطة ضوء متوجهة سوى غرة (١٩٠) .

والفصل التاسع يرمته مخصص للحديث عن صعود وتعاظم غرة ، ذلك الصعود الذي منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذي جعل غرة مختلفة عن باقي المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلي . ويذكر « أوبالانس » ان البداية في النضال الحقيقي جاءت مع نجاح كل من فتح والجبهة الشعبية في الوصول الى غرة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكري مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى أسلحة الوسائل (المطاردة والقتل ، نفس المشاغل ، حظر التجول ..) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال نكسب ، بل ضد كل الأفراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر ايلول - سبتمبر على تصاعد العمليات في القطاع ، قرر موشيه دابان ، وزير الحرب الاسرائيلي آنذاك ، القيام بتفريد

أخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليعتزلوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفي التل (١٠/٢٨ / ١٩٧٠) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن « هزيمة الفدائيين في الأردن » فيستعرض شريط الأحداث التي أدت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسلية أسلحة الميليشيا في الخيميات ، بالإضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين في أحراش جرش وعجلون الى خارج الأراضي الأردنية وكل ذلك تحت سمع وامام أبصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦) . ويعتقد المؤلف ان ما كشفه « هزيمة » الفدائيين في الأردن يتلخص في افتقارهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة (١٦٢) . ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية في تقليص عددها من أحد عشر تنظيما الى أربعة أو خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات في حركة فتح (١٦٣) ، الا ان موجات النقد والتفقد الذاتي ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » في موقفها المتصلب الراض تسليح أسلحة الميليشيا وإي صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا أن الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل - عبر ما أعلنه مسؤولوها - ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بدر أي طرف (المقصود سورية والعراق أساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاطف القتال في شهري ايار - مايو وحزيران - يوليو وبلغ قمته في تموز - يوليو حيث دارت معارك عنيفة في جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها

وأخيرا يلخص المؤلف في الفصل الحادي عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل » الأفكار الرئيسية الواردة في الدراسة مستنتجا ان العمل الفدائي « فشل في تحقيق » هدفه فضلا كليا » (٢٢٩) اذ ان اسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التي احتلتها في العام - ١٩٦٧ . ويعزو «أوبالانس» ذلك « الفشل » الى : عدم فهم الفدائيين العرب لاصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها ان ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية - يمكن ان تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ - ٢٣٢) .

انجانب الثاني : أبرز الأخطاء

تعانى الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الأخطاء ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز - يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست في المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهانى الحسن و خليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !!! وفداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الإشارة ، اذ ان منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوى المستوى العادى من الاطلاع . ثم ان « أوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهى إحدى الوحدات التابعة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

حملة واسعة للقضاء على « الإرهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ - ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى اماكن أخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ - ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف للفصل العاشر عنوانا له مفراه الكبير : « الجمر يخبو » وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعانى حشرجات الموت ا فالفدائيون طوردوا الى خارج الاراضى الاردنية ، وقيادوا في سورية ، وهم في طريقهم لان يحاصروا الى لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق واساليب جديدة : مؤيد من خطف الطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مؤيد من « قتل الرهائن والاغتيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملقومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن الهجوم الاسرائيلى الكبير الذى تعرضت له الاراضى اللبنانية ، طوال أربعة ايام في شباط - فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذى اختتم بدخول الجيش اللبنانى الى المناطق التي كانت القسوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتي كان الفدائيون قد انسحبوا عنها اثناء المعركة (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية - الفلسطينية ، وعن الازمات التى مرت بها تلك العلاقات والاتفاقيات الذى « جمد » الفدائيون بموجبه نشاطهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٢) .

ان احدهم ينتمى الى فتح في حين ينتمى الآخرون الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم ان القيايين المشار اليهم هم صلاح خلف (ابو اياد) وهو احد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومي وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « اوبالانس » اكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلا ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . ام تراه « بقصد حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعا من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما انه يقول ان الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تخل نهائيا عنها . ومن افدح الاخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا في قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد - كما اثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٦ - لم يكن في غزة فحسب ، بل وليس له اية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشئ ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور اتيس صايغ ، وهو شخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود اوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذي سبق وان صفه « كقائد في غزة » (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى اوربوا الشرقية (٢١٣) !!!! كما انه في مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتسرا ازاء الجبهة التي قادت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلم ان « الجبهة

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في « ص ٥٣ » بأن حزب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة ، اذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في اى عام آخر . ولا يضاهى هذا الخطا في المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية في فلسطين (٧١) » ، وقوله بأن احمد جبريل الامين العام « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (٧٢) ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » . ولعل اوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها ماليا (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر ان علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دوما علاقات قطيعة كاملة . هذا وتكرر الشواهد على تنشوش « اوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » التي يرئسها احمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى

الشعبية» والجيش الأحمر الياباني «أعلننا أكثر من مرة مسؤوليتهم المشتركة عن تلك العملية».

الجانب الثالث : أبرز الملاحظات

على الرغم من أن كاتباً عربياً واحداً على الأقل يعتبر «أدجار أوبالانس» من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والأمانة ورجاحة الرأي العسكري (١) فإننا نبدي تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب ، «أن بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وإن كانت قليلة ، قد تضلل القارئ لاسيما الغربي ، ففيها أحكام جائرة وغير صحيحة» (٢) أن هذا القول في رأينا هو أضعف ما يمكن أن يوصف به تحيز «أوبالانس» . وليس معنى قولنا هذا ، أن المؤلف قد استخدم بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، اذع العبارات وأضدها للهجوم على العرب ، دائماً قصدنا القول بأن كتباً مثل كتاب أوبالانس ، واسلوبها مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطراً أكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالي تحيزاً افدح من زاوية قدرته على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و«تمرير» الملاحظات بشكل هادئ ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة والبراءة ، هذه كلها تساعد على «بيع» افكار الكاتب «الشخصية» والتي هي أحكام جائرة وغير صحيحة للقارئ لاسيما الغربي - كما ذكر أعلاه .

ويبدو أن المثل القائل : «يعرف الكتاب من عنوانه» فيه كل الصحة أحياناً . فإن يجعل المؤلف عنوان كتابه «قوة الفدائيين العرب» مسألة لا يجوز أن تمر ببساطة ويجب أن تفهم ضمن سياق الملاحظات التي يعتلىء بها الكتاب ، على أنها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواضع حساسية من الراوية الاعلامية . ثم إن توقف المؤلف في عرضه عند العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونخ على وجه أكثر تحديداً ، أن هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنما يقصد به أن يترسخ في ذهن القارئ ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه - أي الحدث - مثلاً - «بداية جديدة» في العمل الفدائي . وينسى «أوبالانس» أو يتناسى ، أن يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير إليها (١٢) .

ثم أن المؤلف يحرص على أن تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية «لا استراتيجية لها» و«فشلت كلياً» وبدأت مرحلة «انحدارها» (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما إذا كان العمل الفدائي «ظاهرة مؤقتة» أو «بداية ليقظة عربية» جديدة (١٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٤) .

كذلك يقرر «أوبالانس» - ولا ندرى إن كان ذلك ناجماً عن سذاجة كلية أو تساذجا

للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية - بقدرة قلم المؤلف - الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨) ، (٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فامر يحيط به - وفقا لامانة « المؤلف - غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراء ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بان العربي انسان لا يهمه الا « حبه الفردى للحياة وتحسين وضعه المالى » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (٢٣٠) .



وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارئ ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع - وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة - الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

١ - ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ - ما هي التقديرات الخاطئة التي ادت الى اصطدامهم الكارثوى مع الجيش الاردني ؟

٣ - كيف تم دفعهم خارج « ارض فتح » في لبنان ؟

متخابثا - ان « الفرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي ادى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف - هكذا وبكل بساطة - يتجاهل دور اعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول - في نظر « أوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . ايضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كانما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العرب ، او كانما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحا في قوله بان الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضى المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين نعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارئ بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤) . ثم ان الكذب - حسبما يقول « أوبالانس » - يكاد يكون صفة ثائية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو

٤ - ولماذا كانت الحركات القداية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ .

٥ - وكذلك - والكلام للناشر - يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ، ويستقرىء الماضى ، ويصف الحاضر ، ويعالج المستقبل » .

اي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه - بتواضع يعكس الحقيقة - بأنه « سرد » الوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالإلمام بالتفاصيل من جهة ، ويعانى - كما رأينا - من كثير من الأخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .

★ ★ ★



التنمؤ الإنسانى فى عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض تحمىل : الدكتور سىمى يعقوب القطب

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة ، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنسى هول فى بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل فى مكتبة الكونجرس الأمريكى . ويقع الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بما فى ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التى استخدمت فى فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا أى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف فروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة اجزاء ، تضمن كل جزء عاددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل ان يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة فى البحوث والدراسات التى تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر فى نظره الى التطور الانسانى من دراساته فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس فى كليات الاداب والطب والتربية فى الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل فى اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو فى الأونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف فى الجمع بين مبادئ النمو والاضاع الاجتماعية فى فى المجتمع المعاصر .

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما في ذلك المراجع .

يتناول الجزء الاول بيئة الإنسان ونمو المدن وقدره الإنسان على تطوير بيئته . وفى الجزء الثانى يناقش المؤلف أعداد الفرد للحياة في مجتمع المدينة الذى يتميز باختلافات في الثقافة وأنماط الحياة في هذا العصر . ويعالج الجزء الثالث النمو الإنسانى في مجالات الذكاء واللغة والإبداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية والوراثية . ويتناول الجزء الرابع النظريات ونتائج البحوث والدراسات في مسائل التعلم، والحوافز والاحاسيس عند الإنسان . اما في الجزء الخامس والاخير فينحى المؤلف منحى جديدا في دراسة النمو الإنسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات في ثلاثة اشياء : الاول ، ينظر المؤلف الى نمو الإنسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الإيكولوجى للكرة الارضية . والثانى ، تربط النمو الإنسانى الى اوضاع مجتمع المدينة في الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . وثالثا ، تزود القارئ باتجاه جديد مفاده ان مبادئ النمو يجب ان تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التى يكتسبها الإنسان في النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالي يتحدد دوره في المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة في ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث

علاقتها بالبيئة ، وتأثير الإنسان بها وتأثيره فيها . اى ان المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراسات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والإنسان :

ان دراسة النمو الإنسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب او يتغير خلال سنوات نموه ، بل أيضا على تأثير المعطيات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الأرض والجبال والوديان والأنهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت. هذا بالإضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم في النمو .

واذا حاولنا تناول الإنسان وبيئته نجد ان لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والإنسان كأي عضو آخر هو جسم في الفضاء يتفاعل مع المؤثرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المؤثرات ويتكيف معها ، اى ان البيئة تتكون من الاشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزاءات والمكافآت والتحييزات والتعميمات التي تنجم عن الاستجابة للمؤثرات المختلفة . وتختلف الآراء في الاطار النظرى للبيئة والإنسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الإنسان بالبيئة في مجال مدى توفر الفرص للإنسان في تلبية احتياجاته الاساسية . اما يياجيه (Piaget) فىرى علاقة الإنسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين اساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيموند فرويد (S. Freud)

والمحافظة على هوية المجتمع وبقائه واستمراره. ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات الاسرية في المجتمع المعاصر ، وذكر ان المكانة الاجتماعية للأسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير بمهنة الأب . أما بالنسبة الى النظام التربوي الذي أخذ يتصل بالانسان في السنوات المبكرة من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى الحياة) ويواجه النظام التربوي العديد من المشاكل المتعلقة بالمنهج والاسلوب والاختيار والتنظيم والادارة وحرية التعليم وغير ذلك من المشاكل . وفيما يتعلق بنظام السلطة الذي يتكون من الجانب التشريعي والجانب التنفيذي فإنه يتميز بالبيروقراطية والمركزية في اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، وتزداد مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر . وبالنسبة الى النظام الاقتصادي فإن التغيرات التي طرأت في عمليات الانتاج والتسويق والاستهلاك والاستثمار كان لها آثار نفسية واجتماعية واسعة النطاق . وأما بالنسبة الى النظام الديني فإنه يواجه مراحل تغير الى مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقي والحراك والتغير الاجتماعي ولاحظ أنه طرأ تغييرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية وقلت المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية . وميز المؤلف بين التغير الطبقي والتغير الثوري الشامل والسرعة ، وحذر من نتائج التغير السريع في تفكك العلاقات والبناء والتنظيم الاجتماعي .

ويخلص المؤلف الى ان الابحاث والتغيرات الاجتماعية هي مسئولة في خبرات التنشئة التي تؤثر في التغير في عملية النمو الانساني .

يرى ان الخبرات السارة في تفاعل الانسان مع البيئة تظهر في الادراك الواض ، اما الخبرات غير السارة فتدفن في الشعور الا ارادى ، وكلاهما يؤثر في تكوين شخصية الانسان . والاتجاه النظري الثالث يتصل بنظرية المثير (Stimulus) والاستجابة (Response) للعالم السلوكي جون واطسون (J. Watson) ، الذي يرى ان البيئة يمكن ان تصقل وتهذب استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون الثواب على السلوك متوافرا .

وقد اشار المؤلف الى اساسيات التفاعل مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء او رقعة الارض التي يتواجد عليها كموامل اساسية في التأثير على سلوك الانسان ، مثل المأوى ونوع السكن وملابته للتقلبات الجوية من حرارة ورطوبة وانخفاض في درجة الحرارة . ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية والوظائف العضوية والاجتماعية للانسان . وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططي المدن ان مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام (Urban Public) ، (٢) قطاع المدينة شبه العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة العام (Group Public) ، (٤) القطاع الجماعي الخاص (Group Private) ، (٥) القطاع العائلي الخاص (Family Private) واخيرا القطاع الفردي الخاص (Individual Private) ، كما يرتبط استخدام مساحات المدن بعدة عوامل اجتماعية مثل الطبقة المتقفة ومفهومها في الاستفادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال الصناعة ورجال التجارة ، أي ان لكل جماعة اتجاه في استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه والعوامل التي تؤثر في ضبط وتوجيه السلوك

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف في مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية أو على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي: (١) أهمية خبرات الطفولة المبكرة وأنماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) أهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفي الأدوار السلوكية في مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الأطفال أثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الأمريكية مثل الدين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن (Slums) .

(٤) دور ومكانة وظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الأطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ، الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى أخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . اما في حالة المجتمعات المتقدمة المعاصرة فانه يصعب النقل للعناصر الثقافية في وحدات

متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ما تسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول او المعياري . ويضرب المؤلف مثلا لرفض الشباب العديد من اساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبادر باستجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي - الاجتماعي في أنماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الدكاء واللغة والإبداع :

يتوقف الرضاء في التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلّاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللغة عنصرا أساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الإدراكي . والقدرة على استخدام اللغة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الدكاء ، اذ ان عدم اللياقة في استخدام اللغة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تم اللغة اولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للأطفال في المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والأطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى المنطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللغة تعتبر أساسية أيضا للأطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

العديد من الأحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات في النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للمواقف وأرباطها بمواقف « الأناهو » « الأنا » و « الأنا الأعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على أن الخبرة العاطفية تحرك وتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

أما بالنسبة إلى الدوافع فإن السبب الذي يعمل الإنسان بجديّة ، متحملاً المشاق والتعب في سبيل الوصول إلى مركز ما لا ينحصر في الخصائص الذاتية للإنسان والتنشئة الأسرية فقط بل أيضاً في المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث أن طبيعة الإنسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فإن المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير في سلوك الأفراد . وعندما يتغير نمط الأفراد وأهدافهم ، فإن هذا التغير يؤثر في المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الأدوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقد .

(٣) التناحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الإنتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية .

(٧) تأثير الحكومة المتزايد على مصير الإنسان .

وبعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف إلى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

أن السلوك الإبداعي والخلاق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة في التوصل إلى الرضاء في الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض أن الإبداع والدكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير أنه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث توجد الإبداع في الأشخاص ذوي الدكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بدكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلافاً » .

ويضيف المؤلف أن البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس في المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، في مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين . أن الخبرات التي يكتسبها الأطفال في النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة إلى مثل هذا الانفتاح والتفاهل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » الرضي في المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لإيجاد حلول للعديد من المشكلات .

المواقف والدوافع والتعلم

إن النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل إلى تعريف دقيق للمواقف والدوافع بالرغم من التقدم في هذه البحوث ، إلا أن الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالمواقف فقد تطرق المؤلف إلى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير إلى أن العاطفة تتبع الحالة العضوية . أما النظرية السلوكية عند جيمس واتسون James Watson فتحدد العاطفة على أساس الامتداد والسرور والألم . وبالنسبة إلى نظرية كانون - بارد Canon - Bard فإنها ترسي مسؤولية المواقف على الجهاز العصبي ، على أساس أن

اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه
وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله
تنمو أيضا ، وعلى الوالدين والمسؤولين في
المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في
حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن
البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه
فيها حياته .

وإذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد أن هناك
العديد من الاوضاع التي تسبب السلوك
الانحرافي والاحباط والمضايقات مما يؤدي أحيانا
الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين
وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم
التفاعل الإيجابي يؤدي الى عدم الالتزام
بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافي
الفردى (الذاتي) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافي وتدعيم التنشئة
السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلى
والخارجي متضمنا العقاب الجسمي والعنوى
بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة،
ويؤكد أهمية الضبط الذى يستخدم العقاب
المعنوى لزاياه العديدة . اما كيف يمكن للفرد
استيعاب السلوك العيارى وتطبيقه فانه في
التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار
أسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية
 والثقافية والتغيرات التى تحصل في المجتمع
وادخال التغيرات في أساليب التنشئة حتى
تستجيب للمثيرات المستجدة في الحياة
المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية
في مجتمع المدينة في أمريكا خاصة أن المعارضة
التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي
للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة، وأهم الأحداث
التي ساهمت في إبراز المعارضة بعد الحرب
العالمية الثانية أولا - معاقبة مارتن لوتر كينج
ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، ثانيا -
المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، ثالثا -

خاص تأثير الأسرة على التحصيل وتدعيم
مستوى الطموح عند الفرد ، كما أشار الى
دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي في
عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي في
المجتمع، والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية
في المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري
المعاصر بالرونة والحرية النسبية ، والاتجاهات
والثقافات المتباينة التي تؤثر في الدوافع ،
وبالتالي في سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع - المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل في عملية
التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع في المجتمع
التي تساعد أو تثبط مصير الانسان في المجتمع
المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها
المؤلف في الجزء الأخير من كتابه ، وقد أخذ
بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات
بعض القضايا الأساسية المتضمنة في السلطة ،
الاستقلالية ، القوة والصراع في المرحلة
الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح
هو كيف يمكن للفرد أن يتعلم استيعاب قواعد
المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويعتق
السلوك الاجتماعي دون أن يكون هذا السلوك
مبنيا على الخوف ؟ وبالتالي كيف يمكن
لمضمون ما يستوعبه الفرد أن يثير تدريجيا
وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعي
بدون تضييعات من قبل الفرد غير لازمة ، أو
تفتيت النظام الاجتماعي .

ويقترح المؤلف ان مبادئ التعلم يمكن
استخدامها في فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد
الأوضاع التي تتم بموجبها العملية . مثلا -
في حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة

التي يواجهها الفرد في مجتمع المدينة الصعوبة في تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى أن البعض يواجه صعوبة في الانسحاب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذى يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه في المجتمع الحضري لا بد أن يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجدد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقف السلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف في الفصل الاخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى في المجتمع الديموقراطي ، وي طرح التساؤل التالي : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة اوفر في المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هي الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالي لماذا يبدو ان بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الاخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والحقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد في السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس اساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمراعاة راي واتجاه الاقلية .

وتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضغط في المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها في مراحل نموه . ويجب ان يكون التعليم عن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

الافضاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة في المجتمع المعاصر لها ، في حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا في تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التى تتمشى مع معطيات التفسير الحضارى . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التى ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما في توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسابرة التغير واستيعابه في حياته وقيمه ومبادئه .

واما فيما يتعلق باستقلالية الفرد في مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى باستقلالية كاملة . والاستقلالية هي شئ محدود ونسبى ومتغيرة خلال فترة الحياة ، لانها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولان الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الاخرين من ناحية اخرى .

وحيث ان النشاط الاجتماعى والاقتصادى والاسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والامداد للدور المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية في المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة، كما تعرض الفرد للمواقف والضغط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف

الا ان المؤلف في مناقشته للابعاد المشار اليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية او قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بابرار مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيراً الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتنشئة والذكاء والتعلم .

والعبرة آتى يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الامريكى المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعى والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حالياً في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

وإذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربى الذى يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التنشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في توجيه الاسرى والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما ان هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول تكيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافى والانزوالى، كما انه اكتفى بالتوجيه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعى في المجتمعات الحضرية .

للتاثير فيها او تحقيقها جزءاً من عملية التنشئة . وإذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الاسرية والتربية . ويجب ان نقر بان الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . وإذا اردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من ان ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . وإذا اردنا تحقيق التغير الاجتماعى والمجتمع الافضل فيجب علينا ان نغير الاهتمام الكافى للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن ان تكون ميدانا للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تم من خلالها عملية النمو ذاتها .



يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانسانى في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التنشئة الاجتماعية والذكاء واللفة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانسانى ، وهى ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسى والاجتماعى والبيولوجي .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.
2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.
3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.
4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.
5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London,
1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الاول - المجلد الثامن

ابريل - مايو - يونية - ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريال	المشاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	المفودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	لتيبيا	٣٥	كرونا
اليمن الشمالية	٤٠٥	ريال	مستقط	٤٠٠	بايه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٠٥	ليرة	بتونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلس	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت